الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عربية 49

المصابيح الزرق

رواية



اللوحة للفنان: هنري ماتيس

حنا مينه

آفاق عربية

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

المصابيح الزرق

رواية

حنا مينه

الهيئــة العامة لقصور الثــقافة

آفاق عربية (49)

(شهرية)

يناير / 2002

المصـــابيح الـــزرق

روايـــة

حنــا مـــــينه

المراسلات باسم رئيس التحرير :
على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

تنبيه

كل شبه ـ اذا وجد ـ بين ابطال هذه الرواية وبين اى شخص آخر ، حى أو ميت ، هو من قبيل المصادفة ليس الا .

المؤلف

قبل أن نبدأ

لا أدرى لماذا تكتب المقدمات . ومع ذلك فنحن نكتبها .

نكتبها حينا رسالة نجوى ، وحينا آخر وخزة مبضع . ولربما كتبناها حديث معلم ، أو تهويمة مناسبة . ولتكن ما كانت . فهى وليدة نوع من رهبة الكاتب حيال اثره عندما يقدمه للناس. فهو يحس نوعا من الخشية اذا ما واجه القارىء وجها لوجه دفعة واحدة . فلابد اذن من ضربات على خشبة المسرح قبل أن يفتح الستار . ولا غنى عن عاصفة من الموسيقى تسبق قصة راقصة من الباليه ، أو مسرحية شعرية من الأوبرا .

فكيف أصنعها معك يا حنا .

لو أردت الحق فان اكثر الأحاديث عن « مصابيحك » طرافة وجدوى ، هو ما كان عن قصة القصة . فان كتابتك لهذه الرواية رواية جديرة أن تحكى . والحياة التى عاشتها هذه القصة قبل أن تطلع على الناس قصة أخرى لا تقل عنها جمالا وامتاعا .

أنا لا أعرف كيف يكتب الروائيون رواياتهم . فهذه محاولة لم أبداها بعد . ولكننى قرات ، وسمعت ، أن معظم الآثار العالية فى الرواية كتبت خلال فترة طويلة من الزمن تستمر أحيانا أكثر من عقد كامل . « فالنفوس الميتة » لغو غول ، عاشت كمسوده أكثر من عشرين عاما . وقصة « كليم سامفين » لغوركى ، ظهرت اجزاؤها الثلاثة الأول خلال أربعة أعوام . وكذلك الأمر بالنسبة لروائع دوستويفسكى وستاندال وبروست وغيرهم . فالرواية عندهم لم تكن أبدا عملية افراغ سريعة لا يعود اليها الكاتب الاعند تصليح البروفات ، وانما هى بناء شاق طويل الأمد ، يتصاعد راسخا ، حجرا فوق حجر ، حتى اذا رفعوا أيديهم عنه كى ينظروا اليه من بعيد وجدوا أمامهم اهراما شامخة باقية على الدهر .

ليس كالغرور شيء يقتل الاثر الفنى . وفى مثل هذا الابداع ليس للوقت اى أثر فى تقويم الأشياء . ولا يمكن أن نعتذر أبدا بالعجلة اذا ما اخطانا ، ولا أن نتباهى بالحسنة عندما نخلقها فى لمح البصر . فالحقيقة أن الفن صنعة بقدر ما هو موهبة . ولربما كان اميل الى الأولى منه الى الثانية . والصنعة مرادفها الجهد، والدرس ، والصبر الطويل . ولرب صفحة كتبناها فى الليل وخيل لنا أنها بدع فى الأدب ، فتحنا عيوننا عليها فى النهار ، بعد نومة مريحة طويلة ، فاذا هى لغو وهذيان لا أكثر . ولا أبالغ فانكر ان بعضا من الآثار الخالدة تم خلقها فى أمد قصير . ولكن القضية مع ذلك تظل فى صف العمل البناء الطويل .

« المصابيح الزرق » كتبت على هذا الشكل . وانا اذ أهتم بهذه النقطة ، لا أقول أبدا ان قيمة هذه الرواية ، او أية روايه اخرى ، انما يجب أن تحترم وتحب من هذه الزاويه . فالصورة الجميلة الألوان ، يجب أن تكون جميلة المحتوى . والريشة التى

تخلط الألوان يجب أن تكون موهوبة . والا لظلت الصورة مجموعة خطوط ، والوان باردة ، وان صبر عليها صانعها السنين الطوال .

منذ اكثر من ثلاثة اعوام ، بدأ حنا كتابة هذه الرواية . ولربما كان يفكر بها من قبل هذه المدة بكثير . ومذ أن خط قلمه السطور الأولى عرفنا جميعا ـ نحن الذين نعايشه ـ الخبر . ففى كل بساطة وطيبة أعلن حنا النبأ ، وبدأ على الفور فعرض على رفاقه مسودة الصفحات الأولى . وهكذا بدات الرواية تتكامل .

لم ينقد حنا ذاته وحده . فلقد أشرك بالنقد كل من يعرفهم ويثق بذوقهم . فصار طبيعيا أن نرى كل مدة فصلا ينشر أو يقرا ، فيأخذه اكثر من واحد من الناس بالنقد القاسى حينا ، والرفيق حينا آخر ، فيسمع حنا الى كل ما يقال ، ويصغى بعينين براقتين وابتسامة لا تفارق ثغره ثم يخلو الى ما كتبه كى يعيد النظر فيه ، وكثيرا ما كان يمحو صفحات طويلة كاملة كى يكتبها من جديد لأنه اقتنع بوجهة نظر اخرى ، أو يفكر بالاعراض عن متابعة كتابة الرواية اذا ما أيقن ان ما ارتكبه فى هذه المرة كان خطيئة لا تغتفر . ولكنه كان رغم كل خشيته ، وايمانه بالناس يثق ايضا بنفسه ثقة مبهمة ، كانت تؤرث النار فى قلبه وتلهمه أنه يصنع أشياء جميلة .

صار طبيعيا اذا أن نتعرف الى فارس « والصفتلى » « ومحمد الحلبى » والقندلفت ، وغيرهم من أبطال الرواية قبل أن يظهروا فى كتاب ، ذلك اننا كنا نعايشهم يوما بعد يوم خلال هذه السنوات الثلاث ، ونرى الى تكونهم كيف يتم عضوا عضوا ، وخلجة خلجة . ولكم جاءنا حنا فى كثير من المرات ضاحكا مستبشرا يقول :

ـ اسمعوا ... سأقص عليكم ماذا جرى لمحمد الحلبى أمس ...

ويبدأ فيقص علينا الحادثة وهو يضحك متأثرا بما يرويه ، كأنه رأى بالفعل محمد الحلبى أمس وشـاركه حادثتـه بكل وقائعها .

ولقد حدث مرة أن سافر حنا الى اللاذقية فى احدى اجازاته لقضاء بضعة أيام بين أهله هناك ، وعندما عاد كان مكفهرا كئيبا . ولما سألناه عرفنا أن أحد أبطال قصته توفى الى رحمة الله . وهو محتار كيف يصنع الآن . هل يترك له خاتمته التى اختارها فى الرواية أم يقصف عمره ، ويتخلص منه .

بلى ... ان أبطال رواية حنا ، أحياء يرزقون . وكلهم من سكان اللاذقية فى فترة الحرب العالمية الثانية . وكثيرون هم الذين يعرفون « جريس » المختار . حتى أن المختار نفسه كان يحدث أم حنا كلما رآها ، مفاخرا بابن بلده الذى رباه على يديه ـ كما يقول ـ وصار الآن شهيرا تنشر اسمه صحف العاصمة . وينتقد أحيانا بعض الأوصاف التى يسبغها عليه حنا مدافعا عن نفسه ، ولكن الرواية كانت تجرى بالرغم عنه ، وعن الكاتب نفسه ، لأن النبع انفجر وتدفق ولابد أن يجد له مجرى .

هذه سابقة قل أن نجد لها شبيها بين محاولات أدبائنا ، شعراء كانوا ، أم قصاصين ، أم روائيين . ولعل أكثرهم قلقا واخلاصا لا يعدو عمله انه يحكك أثره بنفسه طوال عمليـة الولادة ، فلا يقرؤه انسان غيره قبل أن يصدر فى كتاب مطبوع . اما حنـا فلقد صنع شيئا آخر .

وحتى قبل قليل . قبل أن يدفع الكتاب للمطبعة بأيام ، أدار حنا كتابه على جميع أصحابه ورفاقه كى يقرؤوه كاملا ، ويقولوا فيه رأيهم . ومرة أخرى بدا حنا عملية التنقيح ، والتعديل ، والتسويد ، والتبييض . ومرة أخرى ، وليست الأخيرة بالتأكيد ،

فكر حنا جديا أن يرمى الكتاب الى النار ويمتنع عن نشر هذه الأشياء التى لا يعرف ما قيمتها ، رغم كل ما سمع عنها .

هذه هى قصة القصة . فماذا صنع اذا بعد هذه السنوات ؟ ماذا قدم للناس ؟

هذا هو السؤال الذى يحيره ويريد عليه جوابا صحيحا .

يا حنا ...

انا من هؤلاء الذين عاشوا روايتك صفحة صفحة ،وشاركوا بتأليفها ـ اذا صح التعبير ـ ولقد قلت لك رأيى شفاها ،وهاأنذا أقوله الآن على الملأ الأكبر . فاجمع شهادتى الى الشهادات الأخرى ، وفتش عن نفسك بينها اذا كان لابد من شهادتى كى تجد نفسك .

« المصابيح الزرق » بكل بساطة ، رواية تصور حياة جماعة من الناس البسطاء أيام الحرب العالمية الأخيرة . ومن ورائهاحياة اللاذقية ، وسوريا . أو بكلمة واحدة تصور الجو المحموم الذى كانت تعيشه بلادنا أيام الحرب . فاذا صح أن تكون لكل قصة عقدة ، فعقدة « المصابيح الزرق » هى أزمة الحرب .

هذه هى القصة .

ولكن ليست هذه هى القصة بالفعل . والأصح أن نقول هذه هى الفكرة . أما القصة فشىء آخر . ان الروائى قد تجاوز هذه الفكر : « أثر الحرب فى الناس » الى تصوير حياة كاملة تلعب فيها أزمة الحرب دورا كبيرا ، ولكن الدور الأكبر هو لمجموعة هؤلاء الناس الذين يضطربون فى ثنيات الكتاب ... كيف يحيون، وكيف يعامل بعضهم بعضا ، وكيف يكافحون فى سبيل العيش ، وكيف ترتبط مصالحهم الخاصة بقضايا امتهم ، وكيف يفهمون

النضـــال . انها بالأصح قصة حيـــاة مجموعة من الناس أخذت احداثها فى فترة تاريخية معينة . فالقصة ، وان كان الحـــافز الأول لكتابتها هو الحديث عن الحرب كيف تغير الناس ، وتسوق حياتهم فى مجار جديدة غير طبيعية ، فان الهدف ، بعد ان بدأت الفكرة تصبح عملا ، ونماذج الأبطال شخصيات حية متحركة ، خـــرج من يد المؤلف ليصبح نوعا من البانوراما ــ المنظر العام ــ لحياة صادقة صحيحة .

كان حنا قبل سنوات يكتب بشكل آخر . وان كانت هـــذه المحاولة أولى محاولاته فى الرواية . ففى القصة القصيرة نفسها كان حنا مأخوذا بالقالب المباشر الخطابى . هذا القـــالب الذى قاومه كثـــيرا ، ثم تحرر منه فى قصصه الأخيرة . وهـــذه هى محاولته الأخيرة . فهل نجح فى التخلص من الافتعال والايماء المباشر ؟

فى الفن لا شىء يقتل الاثر من ان توضح النتائج قبل المقدمات ، وان ترسم الأحداث والشخصيات حسب نماذج مسبقة . ومع هذا فلا مانع من أن يكون هناك هدف ما عام . أو بالأحرى لابد من وجود مثل هذا الهدف قبل البدء . ولكن الخطر لايكمن هنا ، وانما فى سياق الرواية .. فى مجرى التيار .. عندما نفقد ثقتنا بقدرة القارىء على الخلق كما نخلق ، فنقبض على يديه بكلتا يدينا كيما نقوده خطوة خطوة الى الغاية ، فاذا هو يمل صحبتنا بعد مسيرة خطوات ، فيتثاءب ، ويتراخى ، ويأخذه احساس من اكتشف بسهولة انه حيال خدعة ساذجة . لربما فقدناه بعد هذه التجربة الى الأبد .

خذ آثار الكلاسيكيين الكبار من أى بلد كانوا . حتى الروائيين المعاصرين ، فالجمال واحد الى اى مدرسة انتسب . انه ليخيل

الى قارئهم أحيانا انه يقرأ لا لهدف معين ، وأن الكاتب لا هم له الا أن يروى لك حكاية جذابة باخلاص وصدق وحماسة . حتى اذا رددت رأسك الى الوراء واستغرقت فى تأمل لذيذ واع ، انفتحت أمامك دنيا كاملة تبزغ منها ألف غاية وغاية شريفة ، فاذا فرغت من الكتاب ظل الباب مفتوحا على مصراعيه ، أمام حشد لا حصر له من الذكريات ، والعوالم المبسوطة ، والأفكار السامية ، تظل آخذة بك ملهمة اياك مدى عمرك .

تلك هى القضية — كما يقولون — ان تذهل القارىء لوهلة عن نفسه ، وعنك ، فلا تربطه اليك بغير الصداقة والثقة والحماسة ثم ثق بعدها انه بالغ معك الغاية المنشودة .

ثمة نوع من الخدعة — اذا صح التعبير — فى عملية الابداع الفنى ، يصحبها ابدا محذور واحد ، هو ان يكتشفها القارىء ، أو السامع ، أو الناظر بسهولة وسرعة ، فاذا هو ثائر ناقم ، يدفع الأثر الذى بين يديه عنه دفعا ، أو هادىء ساخر ، يلوى شفتيه ، ويرغب عما بين يديه فى قرف واستعلاء . ذلك هو الأثر الخائب ولكن الأمر يختلف بالنسبة للأثر الناجح ، فان الخدعة فيه لا تكتشف بسهولة ولا بسرعة ، لأنها ناعمة ، خفية ، حاذقة ، أو بتعبير أصح ، لأنها فى الأصل ، وفى جوهرها ليست خدعة بالمعنى المفهوم للكلمة ، حتى اذا اكتشفها أخيرا من يعاينها — ويجب أن يكتشفها — أخذ كمن يشعر انه كان حيال لعبة جميلة رائعة تريد أن تكسب صداقته لغاية شريفة ، ولكنها لم تقصد هدفها مباشرة مخافة أن يسأم أو يسىء بها الظن ، فداورته ، ولعبت به بحذق بالغ ، فاذا به يبتسم راضيا ، منتشيا ، بالرغم من شعوره أنه كان جاهلا لفترة ما محدودة . وهكذا تكون الخدعة ، أو اللعبة قد تمت بالفعل . وهكذا نكون قد أبدعنا فنا صحيحا .

والحقيقة ان حنا لعب بى أو خدعنى ـ كما اصطلحنا على القول ـ بالرغم من اننى اعرف بعض فصول الرواية كاملة ، فاذا انا مســتغرق فى القراءة ، ذاهل عن نفسى ، ناس اننى انمــا اقرا كى اكتب مقدمة لما أقرأ . فالقصة مجموعة صور ، آخذ بعضها برقاب بعض ، فى جريان لا تعثر فيه ، لولا بعض حصى لاتمنع الراكض عن متابعة عدوه بنفس الحماس والشوق .

أضرب لك مثلا على ذلك .. وصف بائع الأرز الجوال الذى لاقاه فارس فى طريقه . لقد أراد الكاتب أن يصور من هذه الزاوية طبقات كاملة من الناس ، من خلال كومة أرز . فماذا صنع لقد وصف البائع ، ونداءه ، وألاعيبه فيه . ثم وصف المارة حوله بسذاجة ظاهرية ، ولكنك تكتشف بعد ذلك أن الكاتب أراد القول أن الأرز نقد نادر فى الحرب ، وان الناس طبقات فى القدرة على شرائه واستهلاكه .. الخ .. ثم فى وصف الزحام على بائع الكاز والفران ، كيف ينفصل الناس الى طبقات متكالبة على العيش . ان حركة اليد وهى تعبث بالأرز فى تلذذ ثم تنسحب الأنامل فارغة وضياع زجاجة الكاز ممتلئة وسط غابة الايدى المشرعة ، كل هذا وغيره ضربات معلم يثق ان مرور ريشة سريعة ناضجة بلون جميل فوق غصن ، خير فى ابداع الشجرة ، من ان نفصل بالقلم فى رسم العروق وحدود الورقة .

ان الأشخاص أحياء لدرجة مذهلة . وخاصة جريس المختار والحلبى والصفتلى والقندلفت وأبو فارس ، هؤلاء الذين أكثر ما يرينا اياهم الكاتب فى الشارع والدكان ، أو فى عرض الطريق ، حتى ليتساءل من تعود قراءة نوع آخر من الروايات : أمن الممكن أن ينتقى أمثــال هؤلاء الناس الذين نراهم كثيرا ليكونوا أبطال رواية . ما المدهش فيهم !؟..

ولكن ثمة فجوة في رأيي لو سدت لأمكن أن نضع الكتاب بلا تردد في مصاف الآثار العالمية الخالدة . تلك هي أن هؤلاء الأشخاص كانوا أحياء بالفعل ، الا أن من يفرغ من قراءة الرواية يحسن انه لم يطلع الا على جانب من حياتهم . أما الجانب الآخر فقد بقي في الظلال . ان القارىء يظل ينتظر شيئًا ما ، أن يحكي له عن أشياء أخرى غير هموم الحياة العامة في أيام الحرب .

أنا لا أعرف ماذا يجب أن يقال ، ولكنني أؤمن أن الصفتلي مثلا ، له مشكلة أخرى غير الخبز والكاز وصيد السمك ؛وجريس المختار غير المخترة ومشاكلها ، ومريم السودا وزوجها والحلبي وغيرهم ، كلهم لابد أن تكون لهم هموم خاصة ذاتية غير التي يشاركون بها الآخرين . بلى ... يجب أن يحكى عن هذه الهموم كعمق fond للوحة المعطاة ، وتخطيط كامل ، غير ان القصة تظل بعد كل ذلك مجرد تخطيط جميل ، فوق عمق مؤثر بالغ الحساسية .

خذ مثالا على ذلك رائعة الكاتبة السوفياتية جالينا نقولاييفا «الحصاد» . ان الأزمة المشتركة التي تنتظم حياة الأشخاص كلهم هي دفع قريتهم المتأخرة بسبب الحرب الى الصفوف الأمامية . لذلك تجد أن عمق الرواية هو هذه الأزمة التي تشغل كل الأذهان والقلوب . ولكن فجأة تقرأ فصلا كاملا عن العلاقة الداخلية القائمة بين « بيوتر » أحد أبطال القصة الشباب ، وبين «فروسيا» احدى بنات القرية ، هذا السر الذي يعذبهما وحدهما فقط . وتقرأ فصولا عن مثل هذه العلاقة بين رئيس القرية وزوجته وأزمة الانفصال المؤقت الذي يحدث بينهما بعد عودته من الحرب . ولا تفتر الكاتبة ابدا خلال ذلك عن وصف هذين الشابين في المعترك العام ، والزوجين المعذبين وهما في غمار العمل المشترك . ولكن يبقى للقلوب مع ذلك قصتها الأخرى التي

لا تشارك بها قلوب الآخرين . وتستطيع أن تأخذ أى بطل آخر من أبطال الرواية تجد الشىء ذاته ، فالكل جاهدون فى نقاشهم ، ونضالهم وسباقهم ، الى انهاض قريتهم . هذا هو همهم الأول والأكبر ، ولكنك تجد خلال ذلك هموما أخرى صغيرة تجرى مع المجرى قرب الضفاف ، هموم ذاتية داخلية لا ينجو منها انسان ، ولا كبير علاقة لها بالهم الأول الأكبر ، ولكن لولاها لما كانت الرواية رواية كاملة .

خذ الاخوة كرامازوف أيضا . انك تقرأ أحيانا فصولا كاملة طويلة توشك حيالها أن تتساءل : ما علاقة كل هذا بالقصةالأصلية؟ ولكن الجواب الصحيح هو ان القصة الأصلية تصبح أصيلة بعدكل هذه الفصول ، لأن الروائى عندما يصور أناسا ، وجب أن يصورهم كما هم ، مع الناس ، ومع أنفسهم ، فى الشارع ، وفى خلواتهم ، فى همومهم المشتركة ، وفى همومهم الخاصة . يجب أن نعرف كل شىء ، والا لظلت ناحية من الحياة معتمة ، ولظل القارىء حائرا بعد هذا يتساءل : هل انتهى كل شىء حقا ؟ . اذ ليس من المعقول أبدا أن يحيا انسان مشكلة الناس ولا تكون له مشكلته الخاصة . وليس من الطبيعى أن يسير عابر فى طريق فلا يشاهد منها الا ما يوصله الى هدفه المباشر . « فبيوتر » الشاب ، هذا الذى وهب نفسه لخدمة قريته « أول آيار » تظل مشكلة الحيوان الطيب الذى قتله غيلة فى الغابة تؤرقه وتضنيه حتى يجد لها منفرجا . و « اليوشا » هذا الذى يتعذب لعذاب اخوته وأبيه ، تظل له مشاكل أخرى مع اهل بلدته ، حتى الصبيان الصغار منهم .

هذا هو طابع الروايات التى لا يحتل فيها دور البطولة الأول شخص واحد ، وانما مجموعة كبيرة من الأشخاص . عندئذ يجب أن نصور كل واحد منهم على حدة ، فى نفس الوقت الذى نصورهم فيه معا .

ولماذا لا نأخذ مثالا آخر أيضا من بين المحاولات الناجحة فى الرواية العربية التى يمكن اعتبارها من هذا النـوع ، مثل « زقاق المدق » مثلا لنجيب محفوظ ، حيث نجد مشـكلة كسب العيش التى يسهم بها الكل ، تندمج اندماجا رائعا بمشاكل الأبطـال الخاصة ، فاذا نحن أمام حياة كاملة بكل معنى الكلمة .

« فالصفتلى » مثلا ، صياد يشقى فى كسب رزقه ، ويشارك الآخرين همومهم الناشئة عن الحرب والاحتلال ، ولكن ليس من المعقول أن لا يكون له هموم خاصة ، وأحلام أخرى لا يعرفها أحد الا هو ، أو الأسرة التى يعولها ، و « الحـلبى » نراه بين الدكان والشارع ، يتعايط مع الناس ويشترك فى المظاهرات ويسكر فى الليل سرا . ولكن أليس لهذا الانسان بيت ؟ أليس له حياة داخلية غير هذه لا يشارك بها الناس ؟ و « مريم السودا » هل كل همها منحصر فى تأمين الخبز والكاز ؟ والقندلفت وغيرهم ...

انا لا انكر أن محاولة كهذى أجريتها شبه كاملة بالنسبة لبعض الأشخاص ، كفارس وأبيه مثلا . ولكن فارس ليس هـو بطـل الرواية وان كان فتاها الأول . فقصتك ليست من هذا النوع الذى يصب فيه كل النور على شخص واحد . انها من النـوع الذى يكون البطل فيها عادة حارة ، أو شارعا ، أو بلدة كاملة أحيانا .

على أن كل هذا لا ينقص الكتاب قدره كرواية اخاذة . وانما طالبت بتلك الأشياء لأننى لا أومن بالقول السائر : « ليس فى الامكان أبدع مما كان ! . »

ثمة أشياء كثيرة جديرة أن تقال فى الحديث عن هذا الكتاب . ولكننى أكتب مقدمة لا دراسة . ومع هذا فلابد أن نقف أمام ظاهرة أخرى ناجحة فى الرواية . تلك هى الحوار . فالكلمـات التى استعملها « حنا » طبيعية وجميلة لدرجة تشعرنا الثقـة ان دور الأدباء فى حل مشكلة الفصحى والعامية دور كبير جدا فالكاتب

لم يستعمل العامية الصرف ، ولا الفصحى العالية . ثمة محاولة للتوفيق كانت ناجحة للغاية بالنسبة الى الحوار الذى نقرؤه للكتاب الآخرين ، والى حد ما بالنسبة الى الحل النهائى الذى نترقبه لمشكلة اللغة التى يتكلمها الناس عندنا .

هذا هو العالم الذى فتح لنا حنا الباب عليه . عالم يوحى بالثقة أن هؤلاء الناس البسطاء يحملون قلوبا واعية وطيبة ، أكثر مما نتصور بكثير . وان البطولة لا تكون فى الأعمال الخارقة وحدها، بقدر ما تكون فى أن يعيش الانسان انسانيته بكل بساطة . لذلك نجد انفسنا عندما ينفتح لنا الباب فى هذه الرواية حيال مناظر شعبية لا أجمل منها ولا أحلى ، تندى حبا ، وثقة ، وتفاؤلا لا حد له . انها قصة كتبت منا ، ولنا ، وان تأثر كاتبها بنماذج من قصص بعض الروائيين الكلاسيكيين الروس . الا أن القصة تظل بنت بلدها ، ذلك ان تأثر الكاتب كان تأثرا خلاقا ، واعيا . واننى لعلى ثقة انها ستكون حجرا كبيرا فى صرح التقاليد الذى نرفعه نحن لبنائى القصة العربية المقبلين.

وبمثل الفرح الصاعد الذى تختتم به « المصابيح الزرق » ، هذه القصة التى يمكن أن نسميها مأساة ، أسند الكتاب الى قلبى كمن يضم انسانا حيا ، وأقول لك :

ــ لم تكن لاهيا يا حنا ... واذا لم تعرف بعد قيمة ماصنعت، أفيجب أن يتاح لك النظر فى عيون جميع القراء ... أو أن تحيا حياة الأجيال المقبلة .

ولماذا لا أختصر الطريق وأقول :

ــ انك ستحياها فى أضواء مصابيحك التى لم تبق زرقاء..

دمشق

شوقى بغدادى
من رابطة الكتاب العرب

الفصل الأول

١

لم يكن فارس فى بدء الحرب العالمية الثانية شيئا يذكر . كان صبيا يافعا فى السادسة عشرة من العمر ، مولعا ، شأن اليافعين، بالروايات والحوادث الفظيعة ! لعله كان يبغى ، دون أن يعى ، منفذا الى الحركة من الجمود المسيطر على حياته ، ويحلم بمغامرات خارقة ، أملا بالحصول على ما حرم منه .

وكانت الحرب احدى تلك المغامرات التى تستهويه ، كما يستهوى الطفل منظر النار ، وان كانت تلتهم بيتا عزيزا على أصحابه . فالرجال المسنون يتحدثون عن الحرب بكثير من التفصيل، لكنهم يتحدثون عن ذكرياتهم الخاصة وحوادثهم الشخصية البسيطة . اما المعارك ، اما الأهوال ، اما النيران التى يؤرثها القتال ، فتفغر أشداقها وتمتد ، حارقة فى امتدادها المزارع والحقول والأشجار والأزهار والبيوت والنساء والأطفال ، أما الأشلاء وهى تتناثر ، والدماء وهى تسيل ، والأنات وهى تتصاعد، اما هذه كلها فكانت تغيب فى مطاوى الذكريات ، كأن الناس وهم يستعيدون ماضيهم يتعمدون حذف المشاهد المؤلمة فيه . وكان فارس لهذا يجهل كل شىء عن الحرب ، سوى انها حادث غير عادى، فظيع ، وكان هو مغرما بها لذلك ...

وقد ذهب صبيحة الثالث من ايلول سـنة ١٩٣٩ الى بيت معلمه . كان يعمل في متجر يديره عسكرى متقاعد ، فوجده متجهم الوجه ، مربد السحنة ، كمن نزلت به كارثة ، ورآه ينقل من غرفته الى البهو ثيابا عسكرية ، يضعها فوق مقعد طويل ، استعدادا لتوضيبها في حقيبة قريبة منه .

سال الخادم عن معنى هذا ، فأنبأته أن معلمه مسافر اليوم . ثم أخبرته أنه لم ينم الليل بكامله ، فقد ذهب مساء ولم يعد الا مع الفجر ، وقد ذكرت معلمتها أنه مطلوب الى الحرب .

لم تزد كل هذه الأخبار المريعة على ان دفعت فارس الى طرح السؤال التالى :

ـ والمتجر ؟

ـ سيقفل !

عندئذ علت وجهه جهامة لا شعورية . ليذهب معلمه حيث يشاء ، حيث يطيب له أن يذهب ، شريطة أن يبقى المتجر مفتوحا . فاذا كانت الحرب هي البطالة فيا للبداية السوداء !

في هذه اللحظة تعالى صوت المعلم الجهورى ، بلهجته العسكرية التقليدية الآمرة ، ونبرته الصلبة ، داعيا فارس اليه :

ـ تعال !

ـ ماذا ؟

ـ خذ !

وألقى في يده عشر ليرات ، هى بقية حسـابه ، وابتسم له ابتسامة مغتصبة ، وقال له : مع السلامة !

***

خرج فارس الى الشارع وفى نفسه شعور كدر ، هو مزيج من أسى وأسف وحيرة ، ومضى فى طريقه واجما ، تلاحقه صورة معلمه ، بقامته الطويلة ، وكتفيه العريضتين ،وعينيهالسوداوين، وتتراءى له صورة معلمته وقد ارتمت على صدره تبكى ، وطفلها يدور حولها ، دهشا لكآبة والده ، هاها لبكاء والدته ، حتى اذا سألها مستثارا :

ــ ماذا حدث !؟

أجابته أمه وهى تلوح بمنديلها لزوجها المسافر :

ــ الحرب يا صغيرى ... الحرب ... ابوك ذاهب الى الحرب ...

... ثم هدر محرك السيارة ، وانطلقت فغابت ، وانكفأت الأم مع طفلها الى الداخل .. وكان هذا آخر لقاء بينهما ، فقد مات زوجها فى السنوات الأولى للحرب .

***

كان فارس يعرف « الست برباره » صاحبة النادى الذهبى ، فذهب اليها وأخبرها ان معلمه ذهب الى الحرب ، فلم تزد على ان قالت ، بلهجتها اللبنانية المألوفة :

ــ أعرف ...

ثم تحولت الى الداخل تلبى طلبات زبنها الكثر ، فى هذا الصباح الكئيب ، الذى حمل معه شبحى الخريف والحرب ...

كانت « الست برباره » فى العقد الخامس أو ما يزيد ، ذات انف كبير ، محدب ، وجبهة عريضة مغضنة ، يعلوها شعر أشيب كثيف مدور ، يحيط برأسها الصغير فيجعل له شكل طبق من شعر ،

ويقوم بين كتفين بارزتين فوق جسم طويل ، خشبى ، تخـــاله مشجبا وضعت فى أعلاه قبعة من قش .

وكان زبنها أخلاطا من الناس ، أكثرهم من الفرنسيين الذين جاء بهم الانتداب ، وبثهم فى كل ركن ، ويسر لهم ســبل النهب والثراء ، فما ان اندلعت الحرب حتى استدعتهم القيادة . وفى ذلك الصباح رأت اللاذقية منظرا عجبا : فقد تحــول كل هؤلاء المدنيين الى عسكريين محترفين ذوى رتب واختصاصـــات ، وكنت تراهم يتــــرددون على حانة « الست برباره » أفواجا أفواجا ، فيشربون ويتعانقون ، ثم يذهبون الى الثكنات للالتحاق بمراكزهم البعيدة ..

***

عاد فارس الى البيت ، يحمل الى أهله النبأ المشؤوم ، فوجده قد سبقه ، وألفى والدته تطلى زجاجة المصابيح بالأزرق ، ووالده يروى للجيران أخبارا سيئة جدا عن حالة الســوق : الأســـعار ارتفعت ، المواد الغذائية اختفت ، نظام التعتيم فرض ، جميـــع المتقاعدين استدعوا الى الخدمة ، أسرعت لشراء كيس من الطحين فلم أجد .

ــ نعم ... لم أجد !

قالها وعيناه غائمتان ، ثم أضاف بعد صمت قصير :

ــ هذا « سفر برلك » جديد ...

***

فى ذلك اليوم تبدل فى نفس فارس شىء ما تبدلا ملحوظا ، وزايله الشـــعور الذى كان يحسه نحو الحرب ، وأحس أن ثقلا

خانقا يجثم فى الجو ، ولاحظ ان والده والجيران يطيلون الكلام عن المستقبل ، وان أمه قد داخلها هم غير قليل .

ذهب مساء يطوف فى الشارع ، فاستقبلته ريح الخريف بنواحها وغبارها ، وواجهه ظلام يضرب رواقه على كل ما حوله، فلا يستبين من الشارع سوى مصابيح زرق قاتمة ، يخالها الرائى منائر بعيدة يلفها ضباب كثيف ، والمدينة غارقة فى وجوم، وصفير الحراس قد اشتد ، ومن على الأرصفة يسمع وقع الخطى خلل الظلام ، فى سير خائف مسرع الى البيوت .

***

وحين عاد فارس فى نحو التاسعة ليلا ، وجد والده جالسا كعادته على حشية فى الزاوية ، ومن حوله والدته وجيرانهم ، والقنديل يرسل نورا أزرق شاحبا ، وريح الخريف تعصف فى الخارج ، فتتسرب تياراتها الى الداخل ، وتلطم ذبالة القنديل فتتماوج ويتراقص الضوء ، وتتلاعب الظلال على الجدران ، كأنها أشباح الماضى تتراقص أمام والد فارس ، الذى أنشأ يقص بعض ذكرياته عن الحرب .

قال مترفقا :

« كنت وحيدا هذه المرة ، لم أخبر احدا بعزمى على الهرب ، فلما نام جميع من حولى ، تسللت من المعسكر زاحفا ، وخرجت من نطاق الحراسة المضروبة حوله ، ثم رفعت كيسى على ظهرى ، وانحدرت فى الوادى العميق ، ورحت أعدو ، اتعثر بالصخور فأقع ثم أقوم فاركض ، يدفعنى الخوف وحب الحياة .

« كان على أن أصل الى كتف الوادى قبل طلوع الفجر ، لئلا يرانى الحراس فيعيدونى الى قطعتى فأعدم .

وسأل فارس والده مقاطعا :

ـ ولماذا هربت

فأجاب :

ـ وعلام أبقى فأموت ؟ الأتراك يستعبدوننا ، فهل أموت لأجلهم ؟

ومد يده فتناول علبة التبغ ، ثم نظر الى ابنه وقال جادا قاسيا :

ـ اذا كنت تظنني جبانا فأنت واهم .

وبعد لحظة من صمت أضاف مؤنبا :

ـ عندما يتكلم الأب يصغي الأبناء ولا يقاطعونه .

وعلقت أم فارس على ذلك قائلة :

ـ جيل منحوس !

وقالت جارتهم مريم السودا :

ـ الحق معك يا أختي ! ..

ومضت دقائق ، سحب الأب خلالها من سيكارته نفسا طويلا ، ومج الدخان فتصاعد حلقات حلقات ، ثم تداخلت هذه وارتفعت خيوطا فضية ، تلاشت وغابت في فضاء البيت .

كان فارس مشوقا لسماع بقية القصة ، فقد قطع الحديث على والده في نقطته المثيرة ، وكأن والده أراد تعذيبه فانصرف الى التدخين .

وسأل فارس :

ـ وبعد ؟

قال والده وقد عاد أليه رضاه :

ـ ماذا تظن ؟

ـ اختبأت حتى خيم الظلام ثانية ؟

ـ كلا ... تابعت سيرى ، فوصلت بعد مشاق كثيرة الى كتف الوادى المقابل ، ثم انحدرت الى الطرف الآخر ، وبذلك نجوت ولم يبق على الا ان اتخلص من الصخور والاحراج لأبلغ الطريق المؤدية الى مرسين ...

... لكن التعب والسهر والخوف ، كل هذا هد قواى ، فوضعت كيسى تحت رأسى ونمت .. نعم نمت ، فى ظل صخرة كبيرة نبتت على جوانبها شجيرات قصار نمت .

ـ هيه همشرى (١) !

فانقلبت من جنب الى جنبب ، دون أن أفتح عينى ، كنت تعبا منهوكا مستغرقا فى النوم ، وقد جاءنى الصوت ضعيفا ، بعيد المصدر كأنى اسمعه فى حلم .

ـ هيه .. هيه .. همشرى ، قاق (٢) !

« عاد النداء أقوى واعنف .

« وأحسست فى الوقت نفسه ، بضربة فى خاصرتى ، ففتحت عينى مذعورا .

« كان يقف بقربى رجل طويل ، اسمر ، قاسى الملامح ، ضامر

---

(١) كلمة تركية بمعنى يا صاح .
(٢) كلمة تركية بمعنى قم ، أو انهض .

ألوجه ، على رأسه لبادة وله شاربان كبيران ، وفي يده بندقية ، ويتمنطق بصف من رصاص .

« خيل الى انه من رجال الحكومة ، وان ضابط الفرقة ، وقد عرف بهربى ، ارسل رجاله يقبضون على .

« جلست حالا ، ومددت يدى الى كيسى ، لكن صوتا صلدا كطلقة مسدس انصب فى اذنى :

ـ لا تدعه يتحرك .

وقال الواقف قربى :

ـ انه أعزل ...

« كنت قد نهضت ، فساقنى امامه الى مرتفع غير بعيد ، يقف عليه رجلان مسلحان ، عرفت فى احدهما صاحب الصوت ، فسألنى :

ـ من أنت ؟

فأجبته خائفا :

ـ رجل فقير .

ـ وما تفعل هنا ؟

ـ اقصد المعسكر القائم وراء هذا الوادى .

ـ أنت جندى اذن ؟

ـ نعم .

فهز مخاطبى رأسه ، وتهامس مع رفيقه وقال :

ـ أين المال ؟

ـ المال ! ؟

ـ تكذب ؟

فرفعت يدى وقلت :

ـ فتشونى !

... لكنهم لم يفعلوا .

« مضت دقائق خلتها دهرا . كان قلبى يدق بسرعة غريبة ، وركبتاى ترتجفان ، وريقى قد جف .

« اقترب منى الرجل الذى ايقظنى ، وانتزع من جيبى منديلا كان طرفه ظاهرا ، وسحبنى من كمى الى صخرة مواجهة للتل ، وحاول عصب عينى ..

« حينئذ فهمت كل شىء .. وايقنت اننى هالك لا محالة فارتميت مستجيرا ، وتوسلت اليهم كثيرا . قلت لهم اننى رب عائلة ولى أولاد صغار .. استحلفتهم بالله ، الا أنهم اصروا على قتلى ورايت احدهم يرفع بندقيته ويصوبها الى صدرى ، وابتعد الآخران عنى وهما يصيحان بى :

ـ لا تتحرك !

وقلت فى نفسى : « وداعا ! وفكرت فيكم وفى البلد والجيران واغمضت عينى برغم العصبة التى فوقهما .. كنت اخاف الموت ولا أريده ، واتمنى أن ينتهى كل شىء بسرعة !

« مضت ثانية ، ثانيتان ، ثلاث ثوان .. وسمعت صاحب الصوت الأصم يسألنى :

ـ من أين آت انت ؟

« ففتحت فمي واطبقته .. كنت عاجزا عن الكلام .

ـ من أين ؟

ـ من ...

« واستعنت بيدى فاشرت الى المعسكر القريب ، إففهموا .

ـ اذن انت هارب ؟

فقلت وانا ارتجف :

ـ ساعود !

وصاح بى صاحب الصوت الاصم :

ـ لا .. لا تعد .

فاومأت براسى ان نعم لن أعود .

وعاد مخاطبى يقول :

ـ سنعفو عنك .. لكن اياك ان تخبر احدا بمكاننا ، اننا أيضا هاربون .

« وارسل ، ثلاثتهم ، شتائم مقذعة ، وتحولوا عنى وذهبوا ، وبقيت مكانى لا اجرؤ على الحراك ، ولا أصدق اننى ، حقيقة ، نجوت ....

« ولما عدت الى بلدتنا ، راح يسألنى كل من يرانى :

ـ يا ميخائيل ... متى شبت ؟

« وتطلعت في المرآة .. آه .. فعلا لقد شبت ! » .

وسكت والد فارس ، وسكت جميع من حوله الا الريح ظلت تعوى وتعوى ، وذبالة القنديل الواهنة ترتجف ، وشبح المستقبل يتخايل فى الف شكل ، واصداء الكلمات التى نطق بها تـدوى فتبعث فى الأجساد قشعريرة الخوف .

٢

..وظل البيت ، تلك الليلة ، يضـــطرب بذكريات مؤلمة ، والفضاء يضطرب بخيالات مرعبة ،واشباح ذات رؤوس كالاجراس الكبيرة ، وأذرع كجذور الاشجار الطويلة ، وانوف ذات عجرات ضخمة كالشوندرات الحمر القانية ..

ولم يكن بيت ابى فارس فى الواقع سوى غرفة واحـــدة ، تقع الى يمين الداخل فى دار كبيرة ، متعددة الغرف ، تقطنها اسر العمال والعاطلين والقرويين النازحين حديثا الى المدينة .

وهذه الدار التى كانت فيما مضى خانا ، ما زالت تحمل طابع الخان . ويستطيع المرء من الوهلة الأولى ان يلحظ مرابط البهائم ومعالف الرواحل فى جوانبها ، كما يستطيع ، بشىء من التأمل ان يرى مجالس التجار والمسافرين ، ممن كانوا يأتون مع القوافل فى طريقهم الى الشمال ... وان يصغى الى اصداء حكاياتهم الأسطورية تتردد فى الفضاء ، وأنباء أسفارهم الطويلة تشيع عبر السنين فى الجو .

ولم يكن الحي بأبنيته وأسواقه ، الا صـــــورة عن هذه الدار او أن الدار ــ وهو الأصح ــ صورة عن الحى ، ففيهما معا يتمثل الماضي على أحسن شكل ، وتبرز خصائصه بروزا متفاوتا ، يكمل بعضه بعضا ، ويؤلف لوحة تحمل طابع الشرق القديم : أزقـة ضيقة ، ذات أبنية حجرية متقاربة ، وابواب صغيرة اشبه شيء بالكوى ، تفضى الى باحات واسعة في وسطها ماء وزهر وشجر ، ومن حوالى الباحة تقوم قاعات ومنتفعات ، وعلى أطرافها ، الى اعلى ، شرفات ذات تخاريم اثرية ، تطل على بعضها ، وتتداخل وتتقاطع على نحو غريب .

هذا الحى المحافظ على بدائية تكوينه ، هو حى القلعة الواقع على كتف هضبة كبيرة ، انتشرت البيوت والأكواخ فى سفحها وعلى خاصرتها ، وارتفعت معها صعودا الى القمة ، متســـاندة متماسكة فى تلاحم عضوى ، اما القلعة فهى صغيرة ، لم يبق منها ولا ما يدل على مكان وجودها .

وكان البحر يبدو من أعلى الهضبة كصحراء لا تخوم لها : ممتدا بزرقته الى مالا نهاية ، ينطوى صدره على كل اسرار المدينة وفضائحها .

ومن سفح القلعة الى البحر يمتد شارع طويل ، حديث ، اسمته سلطات الانتداب « شارع فرنسا » . لكن هذا الاسم لم يهبط الى عالم الواقع ، ظل فى البلاغات الرسمية ودوائر البريد ، أما السكان فكانوا يسمونه ما طابت لهم التسمية ، فاذا ذكر اسم فرنسا شتموا وبصقوا وتوعدوها بيوم عصـــيب . وقد حاول المستشار أن يثبت انه السيد فى هذا المجال الشعبى على الأقل فأمر بوضع لوحة تحمل اسم الشارع ، لكن اللوحة التى كانت تثبت في المساء تنتزع في الصباح ، وذات مرة عجز السكان عن

انتزاعها فطمسوها بالأقذار . ومنذ ذلك الحين أدرك المستشار ان « سيادة » الانتداب لا تتعدى الفوضية والسراى ..

وكان الحى فى نهاية هذا الشارع الحديث ، يتجمع ويتراص ويتفرع الى احياء أخرى متراصة ، فقيرة ، كثيرة السكان . وكانت سوقه الصغيرة تتمركز عند عنق الشارع ، وترتفع منه بحوانيت متفرقة الى سفح الهضبة . ولم تكن فيه متاجر ولا معامل ، بل دكاكين بسيطة ، خاوية ، فيها لحم وخضار وعرق ، وتقوم عند تقاطع الشارع . وفى زوايا الأزقة الرئيسية ، افران ومقاهى بلدية .

اما التقسيم الطبقى للحى فكان ملحوظا فقط فى بيوت السكن الطوابق العليا للاغنياء ، والطوابق السفلى والأقبية للفقراء ، وكان عدد الأغنياء يتناقص عاما بعد عام ، وعدد الفقراء يتضخم سنة بعد اخرى ، لهذا كان السوق يضطرب بالعديد من المعدمين والعاطلين عن العمل .

فاذا مر ثرى اختلف اهل السوق فى حديثهم عنه ونالوه — غالبا — بغير قليل من الهزء ، وقام احدهم فقلد مشيته ، ثم قلد انحناءته التى يزعم انه انحناها للمستشار ، فينبرى له عندئذ من يدافع عن الأثرياء باعتبارهم زعماء الحى ، وكان المختار ، وأعضاء الهيئة الاختيارية اشد الجميع تملقا لهؤلاء الزعماء ، وأسبق الكل للدفاع عنهم .

وفيما عدا ذلك كان السكان خليطا من الناس ، بينهم البائع المتجول ، وناقل الحجارة ، وبائع الكاز والكازوز والخبز والكعك وماسح الأحذية ، والعامل ، ومن لا عمل له ، والاسكافى ، والخياط ، والخباز ، والحلاق ، واللحام ، والموظف الصغير ..

وكانت الملابس تتالف من السراويل للرجال والملايات للنساء وثمة من يلبس البنطلون ، وبعض النساء المسيحيات خرجن من

اطار هذه التقاليد ، فبدأت أكمام الفساتين وأذيالها تنحسر عن السواعد والسيقان فى تقليد لاصنعة فيه ، وزينةبائسة لاتناسق بينها ، واصباغ فاقعةصارخة ،تضحك الرجال حينا وتثير غضبهم حينا آخر .

وكانت هذه الأشكال للحياة والناس تتمثل فى دار ابى فارس على اكمل وجوهها ، فقبالة غرفتهم تسكن عجوز قروية اشتهرت وابنها منذ هبطا الحى ، باسم صقر وأم صقر ، أما الكنية فلم يسأل عنها أحد ، وبذلك دخلت حيز النسيان .

كانت أم صقر غسالة ، ومنظفة بيوت ، وناقلة ماء لأهل الحى ، تذهب صباحا قبل ان ينشر الفجر قميصه الأبيض ، وتعود فى الضحى حاملة طعامها وطعام ابنها . ثم تذهب ثانية وترجع ظهرا ، وهكذا على مر الأيام .

اما شكلها العام فكان ينطوى على فاجعة حقيقية : هيكل متهدم عينان مرمدتان ترشح حدقتاهما بالدمع ، فيظل الجفنان فى حالة جريان دائمة .

وكان صقر شابا وسيما ، معافى ، خجولا كالنساء ، وعاطلا عن العمل كأنه فى اجازة منذ ولد .

ولم يكن راضيا عن نفسه ، ولا معجبا بالدبابيس التى يشكلها فى قميصه وبنطلونه ليتماسكا ، الا انه لم يكن يجد عملا ، وكانت امه تخاف عليه ، فتحول بينه وبين العمل اذا وجد .. فاذا ضاق ذرعا بها هم بضربها ، وعندئذ تبكى فيتراجع عنها مغلوبا على امره ويبدو انه اعتاد مع الأيام شذوذها هذا ، فتركها تلحق به حيثما سار .

وفى القاعة الاخرى الملاصقة لغرفة صقر وامه ، تقيم مريم السودا وزوجها نايف الملقب بالفحل . ولا تعود كلمة « سودا »

الى كنيتها بل الى لونها . وقد كانت تثور بادىء الأمر على من يناديها بهذا الاسم ، لكنها حين تخلو الى نفسها تسحب كسرة المرآة من صندوقها الصغير وتتفرس فى وجهها وتضحك :

ــ العمى .. انا سودا بالفعل .. ربى كما خلقتنى .. حظ ، يلعن الحظ ، لا مال ولا جمال ..

فاذا اجتمعت بغيرها انكرت هذا الواقع . ورفضت الاعتراف به وحين يحرجها الجيران تقول :

ــ اذا قلتم سمرا فهذا صحيح ، أما سودا !؟

فيقاطعها الجيران :

ــ بل سودا ..

ــ سمرا ..

ــ سودا ..

ــ انا سمرتى غامقة .

ــ انت سودا .

ــ الكلام على الدم .

ــ يا حبيبى ..

وعندئذ تنتصب واضعة يديها فى خصرها مستعدة للعراك ، فاذا سكت من حولها ، وشعرت بالطمأنينة ، وزايلها الغضب ، تقول وهى تلف سيكارتها :

ــ المهم انني أعجب زوجى .

فيفتح نايف الفحل فمه الذى ظل مغلقا طوال الوقت ويتنهد ويقول :

ــ علقنا ! ..

ــ علقت ؟ انت علقت ؟

وترميه بنظرة انكار وتقول آسفة :

ــ ياضياع تعبى ، افنيت عمرى ...

ــ افنيت عمرك قبل ان اراك ...

ــ والنتيجة ؟

تلقى عليه هذا السؤال بنفاد صبر ، وعناد من يدافع عن مصيره فينهض الفحــل ، ويحمل صندوق مســح الأحذية ويمضى الى السوق ، بينما يقول أبو فارس معلقا على ذلك بكثــير من الهدوء والثقة :

ــ لاتأخذوا بالمظاهر .. الانسان فى فعله لا فى لونه ..

أما مريم الســودا ــ ويسميها أبو فارس الجــاجة ــ فكانت تحاول الظهور بمظهر النساء النصف ، ويقول العارفون انها تكبر زوجها عشرين عاما ، وان هذا الزوج قد بلغ الثلاثين ، فتجيب على ذلك انها تبدو كبيرة ، لأنها تزوجت ولماتبلغ بعد .

وكان زوجها قبل أن يلتقيا ، يصبغ الأحذية ، ويعمــل فى المقاهى ، وينام هنا وهنا ، لابيت ولا ولد ، فلما جاءت الى الحى ، وكانت مومسا تابت ، أغرته بما لديها من مال قليل ، فتزوجها فى ليلة سوداء ــ هكذا يقول ــ بعد أن سقته حتى غاب عن الوعى . فما ان مرت أعوام قلائل حتى راح المال ، وتكشفت لعينيه حقيقة الحال ، وبقيت مريم بسوادهاوشوهتها .

ومنذ ذلك الوقت أخذت تاوح له سوءات كانت مستورة فيها ، وطفق الخصام بينهما يحتدم كل يوم ، فتقذفه بما تقع يدها عليه : قبقاب ، مكنسة ، صحن ، ابريق ، اى شىء ، وينهال هو عليها بالعصا أو الكرسى ، أو سيخ اللحم ، ويتدخل الجيران فيصلحون بينهما ، وينصحون الفحل بالصبر .

ـ لاعندنا طلاق ولا فراق .. هذه قسمتك .. مكتوب على جبينك .

الله يلعن جبينى .

ـ يا ســاتر !

ـ الله يسامحك يانايف .

ـ الله لايسامحنى .. انا قرفت الحياة .. راح أهرب خلاص

وياخذ فى جمع ثيابه ، ويدور فى البيت ، يسحب هــذا القميص وذاك الحذاء ، فيتدخل الجـــيران ثانية ، ويصيح أبو فارس :

ـ يانايف طول بالك ، هدىء روعك .. لاتجن .. تعال ... تعالى يامريم .. تعالوا ..

ويسحب الاثنين الى باحة الدار ، وتسرع أم فارس باعداد القهوة ، وبعد عتاب ودموع يتم الصلح ، ويعود نايف الى البيت تتبعه الجاجة وهى تعرج عرجا يجعل كتفها الأيمن فى حــالات انخفاض وارتفاع مستمرين ، وينظر أبو فارس ويقول آسفا :

ـ مسكينة .. لو لم تكن عرجة على الأقل .. نصيب !

أما بقية سكان الدار فكانوا من هذين الصنفين ، وكانت لهم مشاغلهم ومشاكلهم التى لاتنتهى ، فاذا صــفا لهم الدهر يوما ـ وقلما يصفو ـ واذا اشتغلوا وكسبوا ، جلسوا مساء فى ساحة الدار ووضعوا على طبق من قش بعض ما عندهم ، وراحوا يشربون ويسمرون ..

كان أبو فارس يغنى فى مثل هذه الحالات ، وكان غناؤه جنونا

رقيقا يبدؤه بأواف طويلة ، مديدة ، تخالها منبعثة من كل ذرة فى جسمه العملاق .

وكانت هذه « الأوف » تستتبع من الحاضرين « أوفات » مماثلة ، فيها شكاة اسوانة تتبطنها انفعالات عميقة يتلامح فيها التمرد مشفوعا بالأمل .

وعندما تنتهى «الأوف» يسحب أبو فارس نفسا طويلا من سيكارته اللف الثخينة ، ويرفع الجميع كؤوسهم فى نشوة وحماسة ، ويكرعونها حتى الثمالات ..

وكان احب الغناء الى أبى فارس ، الموال ، ففيه رجولة واصالة ـ هكذا يقول ـ وفيه معان بعيدة عن التخنث والابتذال . وكانت مواويل أبى فارس هى العتابا المصفاة وردود الآخرين ميجانا شعبية، ذات غزل رقيق ، الشيطان وحده يعراف أى فنان قديم ابتدعه بهذا السحر الحلال .

كان يغنى :

تلات غزلان مروا يا سلاما
وعلى المجروح ما رميوا سلاما
لو ان الحلم يصدق فى المناما
ليالى كتير صادفنا الحبابا

وينهى مواله « باوف » فتأتيه من كل جهة ، الف أوف وأوف .. ثم يندفع الجميع فى تصفيق ايقاعى ، ولازمة تميل لها الرؤوس طربا :

يأميجانا .. يا ميجانا ..

حبى علينا .. بس حبى متلنا ..

ويعيدون هذه الشطرة ويرددونها ، وقد قام فى نفس كل منهم أن حبيبته لن تحب سواه لانها لن تجد من يماثله رجولة ومروءة .

وحين يعود أبو فارس الى مواويله ، يعودون هم الى ميجاناهم وتثب دون مقدمات « الجاجة » الى الرقص ، وعندئذ فحسب يتعالى الضحك ، ويشتد التصفيق .

وتشرع الجاجة تحوم وتدور ، وتتمايل فى اقبال وادبار ، فيصيح الجميع :

ـ قم يانايف ..

وغالبا ، كان نايف يرفض الرقص ، فتأخذ حينئذ عازار الاسكافى ، ذا الرجل المقطوعة ، حماسة لايقوى على دفعها ، فينهض متوكئا على عكازيه ، فلا يكاد يستوى واقفا حتى يقفز بعكاز ورجل ، وسط تصفيق متزايد الحدة ، فيرقص مع الجاجة رقصا جنونيا عنيفا لاقاعدة له ولا أصول ، بل تمايل مع النغمات ، وقفز وصياح ، ويمسك أبو رزوق بكأسين مليئتين ويقف بينهما ، فيشربان بعد رفع الكأسين الى راسيهما فى حركة تقليدية لا بد منهما .

أما الراديو فقد كان وقفا على الاثرياء اذ ذاك . وذات يوم ، ولا يدرى أحد كيف ولا من أين اتى أبو فارس بحاكى ـ فونوغراف ـ قديم مع بضع اسطوانات عتيقة ، وقد فرح الجميع به فرحا كبيرا واخذوا يتحلقون حوله ، ومنهم من يضع راسه فى بوقه الكبير ، وينصتون باعمق مشاعرهم ، مصغين اليه بكل مافى حواس الاصغاء من تواتر ، والحاكى يدور ويدور ، ومفتاح التعبئة الذى تولى

أمره صقر بكل جدارة واهتمام ، يتابع الدوران فى حركة اتباعية قسرية ، بسبب من عتق جهاز الدفع ، فاذا توقفت التعبئة توقف الحاكى . وكانوا حريصين على الا يقف ، رغم أن صوته لم يكن يصل الى الآذان الا بجهد جهيد .

وكانوا فى أيام الآحاد يخرجون بالحاكى الى ساحة الدار ، وفى الصيف يذهبون الى الحقول ، ويذهب معه كل من فى الدار والدور المجاورة . وقد أصرت مريم السودا على حمله أول مرة خرجوا به الى حقل بعيد ، فوضعت صندوقه الخشبى على راسها وسارت فى المقدمة ، وسار وراءها الرجال والنساء والأطفال يحملون سلال الطعام ، وزجاجات العرق عبر الخنادق والأدغال .

وما كادوا يصلون الى ظاهر المدينة حتى اقترح بعضهم سماع موال على الماشى ، فصاح أبو فارس :

ــ يا مريم ..

وتوقفت مريم قليلا ، فقذفها أبو رزوق فورا بهذه الملاحظة:

ــ لا تعرجى لئلا يقع الفونوغراف .

فأجابته مريم نزقة :

ــ لاتهمك عرجتى .. غط قفاك من الشمس .

فمد أبو رزوق يده الى صلعته لا شعوريا وقال فى نفسه .. « بندوقة ! »

وقال أبو فارس :

ــ افتحوا الصندوق ..

فاغتنم أبو رزوق الفرصة وطلب هذا الطلب :

ــ هات عنك ..

ومد يده الى الصندوق ، فنترتها مريم وصاحت غاضبة :

ــ ايدك ..

وقال صقر :

ــ أنا وظيفتى معروفة .

وهكذا ما ان وضع أبو فارس الاسطوانة حتى استلم صقر مفتاح التعبئة ، وركب البوق . وسار الموكب من جديد «الجاجة» فى المقدمة وقد زاد عرجها بصورة ملحوظة ، ولا يدرى أحد هل فعلت ذلك لثقل الحمل أم نكاية بابى رزوق ، وصقر متشبث بالفونوغراف يديره دون انقطاع ، والاسطوانة « الشام شو أذنبت» تدور وترسل ضجيجا أكثر مما تبعث صوتا . والرجال يتراكضون حواليها ، فى أيديهم زجاجات العرق ، وعازار الاسكافى يحاول بعكازيه ، اللحاق بهم ، وأم صقر تهرول خلف النساء ، والأطفال يقفزون على الجانبين ، وصوت الحاكى يضيع فى الفضاء قبل أن يلامس الاسماع .

هذا ما كان فى الماضى .. أما الآن فقد ، انقضى ذلك كله ، وانتفت هذه الملاذ ، على قلتها وتفاهتها ، فلم يعد هناك رقص ولا غناء ، بل لم يعد سرور ولا حبور . ومنذ اليوم الأول للحرب بدأ تقنين كل شيء ، وغاضت البسمات مخلفة جهمة كئيبة ، ونامت البلدة على هم وظلام ..

... ونام فارس ، هو الآخر ، مفتنما مفكرا بما يحمل الغد لهم من آلام ..

٣

وحين أفاق صباحا ألفى نفسه متأخرا ..

كان قد حلم بوالده طوال الليل ، ورآه فى مشاهد مخيفة عكسها عقله الباطنى على صفحة أحلامه . فلما فتح عينيه سره أن ما رأى لم يكن الا حاما ، وان والده لايزال حيا .

تذكر خلال دقائق ، ما مر معه بالأمس : الحرب ومعلمه والمتجر والمصابيح الزرق ، والحكاية ..

كان كل شيء واضحا وضوحا تاما ، وكل شيء هينا الا فقدان العمل . ومع ذلك نسى حتى هذا الأمر ، وسحب صندوقا صغيرا من تحت السرير ، وطفق يخرج ، بعناية وانتظام ، ما فيه من كتب وأوراق وصور وأزرار ..

وقد أراد اخوته لمس بعض محتويات الصندوق فصاح بهم :

ــ لا تلعبوا ..

واستجابة للتوسلات المنبعثة من عيونهم ، سمح لهم فقط بتقليب صفحات كتاب مصور ، فتلقفوه كهدية هبطت عليهم من السماء وانتحوا به ناحية ، وشرع أكبرهم يقلب الصفحات .. بينما اكتفى الآخرون بالتفرج دون اللمس .

وفجأة تساقط ماء قذر من شرفة الطابق الفوقى عليه وعلى صندوقه ، فرفع رأسه وشتيمة كبيرة فى فمه ، لكن رنده ــ بنت الجيران ــ كانت تضحك وتعتذر ، فقال فى نفسه : « لو لم تكونى

بنتا ! » واستقرت فورا ، نظراته على صدرها النامى ، وخفق قلبه .. واغتنم اخوته الفرصة للعبث بأشيائه !

وبعدما فرغ من اخراج كل ما فى الصندوق ، أعاد ، بنفس الدقة والحذر ، الأشياء الى مكانها ، ونهض يفتش عن عمل ..

كانت الدار فى هذه الساعة ميدانا لألعاب تطبيقية كثيرة ، ففى احدى زوايا الباحة ، اربعة أو خمسة اطفال يجلسون وأمامهم كرسى خشبى صغير ، عليه كسر خبز وقطع خيار وتفاح ..

وفى زاوية أخرى تجلس فتيات صغيرات ، فى صف مستقيم ، مستندات الى الجدار ، وأيديهن متصالبة على صدورهن ، وفتاة تكبرهن بقليل ، اتخذت ، بشكل يثير الضحك ، كل سيماء المعلمة الكبيرة ، وجعلت تصطنع الجد ، وتضرب الجدار بعصا فى يدها ، والفتيات الخبيثات يضحكن ، ويلغطن بلا انقطاع .

وقبالة نافذة مريم السودا ، وقف طفل ممسك بفحمة كبيرة يخطط بها عارضيه لاصطناع شاربين كشاربى أبيه ..

نظر فارس الى ذلك كله وابتسم ..

كانت اللوحة صورة من طفولته الزاهية ، وقد تخيل نفسه قبل عشر سنوات يلعب هكذا ويلهو ، وما عتم أن اعترف انه كان أكثر من هؤلاء أذى وصخبا ، وقد كلفه ذلك كثيرا من الضرب والزجر والحرمان من الطعام ، ومع هذا فانه يحب طفولته ويشعر بحنين اليها يمتح من صدره التنهدات .

من المؤكد أنه لم يبلغ المرحلة التى يشكو فيها قسوة العيش ، ومع ذلك فانه غير راض ، ولعله رأى ، فى وقت مبكر جدا ، ان الحياة ليست سهلة .

كان الزقاق مقفرا الا من بعض الصبية ، اتخذوا من المنعطف مقمرة ، وقد حدثته نفسه بمشاركتهم ما دام انه يتسكع كصبي متشرد ..

الشمس مشرقة في كبد السماء ، وهاجة كعادتها في مدن الساحل ، وريح الخريف تتلاعب بأوراق الأشجار ، وسنونات تقطع الفضاء متجهة الى الغرب ..

وقف فارس قرب الصبية المقامرين . لم يكن يملك مالا ، فأسف ، وشد على بطانة جيوبه نزقا ، ثم انصرف الى مراقبة تطورات اللعب ، وكاد يدخل في عراك مع أحد اللاعبين ، لولا أن تدخل بعضهم واوقف العراك ، وحين مل الوقوف شتم الصبية واخرج لهم لسانه .. لكن أحدا منهم لم يرد على تحديه .. فاغتاظ وترك المكان الى مقهى الشاروخ حيث الجلوس بالمجان ، فالشاروخ لا يقدم اى مشروب لأى زبون قبل أن يقبض ثمنه سلفا ، وقد كانت هذه المعاملة غير لائقة ، وغير متبعة في سالفات الأيام ، لكن الزبائن جعلوا يتأخرون عن الدفع حتى أوقعوه في عجز . وامتلأ جدار المقهى بشطوب الطباشير ، وذهبت جميع المطالبات والشتائم والنزاعات دون أية فائدة ، فقرر أن يلجأ الى هذا الأسلوب ، آخذا بعين الاعتبار حالة الناس السيئة ، والبطالة المتفشية في الحى .

كان يقول لزبائنه وهو يضحك :

ـ العمى .. استحوا .. ذوقوا .. ادفعوا أجرة المى والكهربا على الأقل ..

فيجيبون :

ـ استحينا .. ذقنا .. لكننا مفلسون فتعال اشنقنا .

ثم يضيفون :

ـ اما المـاء فيسقى على طريق الخج ، واما الكهرباء فنحن بغنى عنها اقطعها وخلصنا .

ـ واجرة المقهى ؟ ..

ـ هذا مقهى ؟ هذا قبر .. خان .. زريبة بهائم !

فيصيح الشاروخ :

ـ يا أولاد الكلب .. يا بهائم .. طيب اقعدوا .. لكن اكفونى شركم ، لا تقترضوا منى ، ولا تتعاركوا ..

وكانوا يضحكون ويتعاركون ، ويلاحقونه بلا انقطاع :

ـ الا تقرضنا يا معلم خليل ؟ الا ترهن هذا الحذاء ، هذه السترة ؟ هذا السروال ؟

وكان في مثل هذه الحالة فقط ينظر فى الموضوع .

ـ أرهن هذا الحذاء بخمسة قروش ..

ـ لا بعشرة ..

ـ طيب بستة قروش ..

ـ بتسعة ..

ويتم الاتفاق غالبا ، بزيادة قرش من الشاروخ ، وانقـاص بضعة قروش من الراهن ويذهب الى غير رجعة ، وابليس وحده والشاروخ يعرفان الطريق التى يسلكها .

أما المقهى فقد كان فى حقيقته مقمرة وخمارة ، وكان المقامرون فيه هم الشاربون ذاتهم ، فاذا ربح أحدهم ابتاع كأسا رخيصا من عرق التين ذى الرائحة الكحولية الحادة ، فجرعه دفعة واحدة وعاد الى اللعب . وفى أنصاف الليالى ، حين لا يبقى لعب ولا عمل، يتجمع بعض المدمنين حول الشاروخ ، فيشربون ويكحون ويغنون ،

ويأكلون ما جلبوه من خبز وبيض ، وبصل وفجل ، ويتركون فى فضاء المقهى غيوما من دخانهم ، واصداء من أحاديثهم الممعنة فى الاقذاع ، وقشور البيض والفجل والبصل ، فاذا أصبح الشاروخ رائقا كنس المقهى فى اليوم التالى ، والا ترك الأقذار على الطاولات وفوق الكراسى ، فيأتى الزبائن ويزيحونها بأكفهم ، ويلعبون مضيفين اليها من مخلفاتهم المماثلة الشيء الكثير ..

***

جلس فارس على كرسى قرب الباب . كان يعرف أن جلوسه ها هنا لا يكلفه شيئا ، فاطمأن الى افلاسه ، واطمأن أكثر الى أن عين والده لن تراه ، فهو فى موضع يسمح له بمراقبة الزقاق جيدا ، وكأنه اعتمد على الفوضى السائدة فى المقهى ، فقفز وجلس فوق الطاولة ، ووضع كرسيا تحت رجليه ، وراح يراقب بضعة أشخاص يقامرون ..

ولكثرة ما أغراه اللعب لم يعرف كم قضى من الوقت جالسا ، ولم ينتبه الا على صوت الشاروخ يصيح برجل قصير بدين يلبس « قلبقا » ، وفى لهجته العربية لكنة تشير الى أنه من مخلفات العثمانيين .

كان الشاروخ يتكلم وهو جالس وراء طاولته التى نثر فوقها أوراق اللعب ، ينسقها باهتمام ، وقد وجه كلامه الى الرجل القصير الذى عرف فارس من أحد الجالسين انه الجابى :

قال له غير مبال :

ــ نعم ..

ــ فلوس ..

ــ أنا ؟

ـ انت ؟ نعم ، ومن تظن ؟ .

ـ انا مفلس .

ـ ومن معه اذن ؟

ـ اسأل الزبائن .

كان طبيعيا أن يغتاظ الجابى ، لكنه اعتاد مثل هذه المماحكات ، فرفع قلبقه ووضعه فوق دفتره على الطاولة وقال :

ـ ما علاقتى انا بزبائنك ؟ .

ـ علاقتك ! .. انهم لا يدفعون ، فمن أين ادفع انا ؟

ـ اغلق المقهى اذن !

فتوقف زبون عن اللعب وسأل باستنكار :

ـ ماذا ؟

ودون أن يسمع جوابا اضاف متهكما :

ـ اذا اغلق المقهى جلسنا على رصيف الشارع .. وياله من منظر رائع ، فرد الجابى منتهرا المتكلم :

ـ بلا فلسفة .. اخرس .

وجاء الجواب مسرعا :

ـ فلسفة فى راس أبوك .. اخرس أنت ..

وكانت الاهانة بالغة ، فضرب الجابى الطاولة بقبضته وزعق :

ـ يا كلب .. هذا الكلام لا يقال لمثلى .. اشهدوا عليه .. ساجره الى المخفر .

ونهض الجابى ، ونهض الرجل ، وكان شابا مفتول العضل ، جرىء النظرات ، فقال متحديا :

ـ جرب أن تمسنى .. مد يدك الى ...

وعلت الضجة فى المقهى ، وقام الجميع واتجهوا الى المتشاجرين الا الشاروخ ، فقد ظل جالسا وقد سره الشجار .

وتدخل الزبائن فحالوا بين الاثنين ، باذلين كل ما عندهم من كلام لطيف ظريف لتهدئة ثائرة الرجلين .

أما فارس فكان يتابع الموقف باهتمام ، وقد أسف لأن المتشاجرين لم يتضاربا ، وازداد أسفه حين جمع الجابى أوراقه وخرج غاضبا مهددا ، وفى أعقابه انطلقت هذه التحية الجميلة :

ـ مع السلامة ..

وتوقف الجابى عند الباب فظن الجميع أنه عائد لا محالة ، لأن الوظيفة أهينت فى شخصه ، لكن الجابى لم يتحرك من مكانه ، فهو يعلم أن السجن لم يعد الوسيلة المفضلة ، وما هى بعد ، الفائدة من سجن الناس ؟ لو كان عندهم ما يمكن مصادرته أو بيعه لتم ذلك على أحسن وجه : تفضلوا شرفونا فى « بيت خالتكم » .. ليلة .. ليلتان ثم يدفعون أو .. تصادر أملاكهم .. أما المعدمون ؟

كان الجابى رغم حدته بعيد النظر ، فقرر فى نفسه أن يترك الشاب الوقح ـ هكذا نعته ـ ويمضى ، لكن شرف الوظيفة ؟ هنا المشكلة ، ولابد من عمل شىء .. شىء ينقذ الموقف .

فى قلب هذا المأزق جاء جريس المختار فوضع حدا للنزاع . أخذ الجابى من ذراعه أولا ، لكن هذا تظاهر بالنزق وتملكه غضب مفتعل فصاح :

ــ انا ؟!

وشد به المختار وهو يهمس فى اذنه :

ــ كلنا فى الهوا سوا .. تعال .. بسيطة .. يا معلم خليل قهوة .. قهوة عثمانية ..

وجلس الجابى جلسة استعداد لرشف القهوة ، بينما وقف المختار وراء مكتبه ، وشرابة طربوشه تهتز على جبينه دون توقف .

كان جريس المختار ثرثارا نخب أول ، فاذا جاءه زبون جديد اهتبلها فرصة لا تعوض ، فحدثه عن مركزه الخطير ، ومخترته وسطوته ، وذكائه ، وتكتيفه للمستشار والحاكم والمستنطق ، وتحقيقه كذا وكذا من الاصلاحات والأعمال ..

اما اذا كانت بينهما معرفة سابقة ، فلابد أن يحدثه عن قوته الجنسية ، ويحلل هذه القوة فيردها الى قوة بنيته ، ويتوقف عن الكتابة اذا كان يكتب فيشمر عن عضل ساعده ، ويضم قبضته ويشدها ، ثم يفتحها ويتحدث عن لونه فيقول انه أصفر سفرجلى ، لأن الأجناس السورية داخلتها اختلاطات كثيرة بسبب الفتوحات التى تعرضت لها البلاد فى التاريخ . أما مزاجه فعصبى ، لانه من الفصيلة « اللمفاوية » ، فاذا لاحظ أن الزبون لم يفهم ، تطوع فخورا وشرح المزاج اللمفاوى ، والظواهر النفسية التى يسببها .

ولقد أنشأ منذ دخل الجابى دكانه يتحدث بلا توقف ، كان يستعين على الكلام حسب العادة بحركات من يديه ورأسه ، وقد طاب لفارس أن يراقب ذلك من مجلسه ، فابتسم فى سره وتساءل :

ـ أهذا مختار ؟

على انه اعترف دون تردد :

ـ الجو مسل لا بأس بهذا اليوم ، وطالما ظللت عاطلا فسأرابط في هذه المقهى ..

ومع ذلك نهض وسار بعد قليل ..

كانت الرتابة في نمط الحياة الجارية مما لا يمكن احتماله ، فخرج من المقهى وراح يتسكع من جديد ، في عرض الشارع .

طاف مدة ساعتين كاملتين في شوارع المدينة وازقتها . توقف هنا وهناك ، وراقب بفضول حركات الناس ، وهم يضطربون في شؤونهم اليومية . كانت المدينة الضاحكة قد اعتراها الوجوم ، ففي كل مكان يتحدثون عن الحرب ، وثمة من يؤكد أن الخطر لن يلبث أن يحدق بالشرق ، وأن السلطات تدرك ذلك جيدا ، ولهذا فرضت نظام التعتيم . وقد أصاب هذا القول من نفس فارس وترا حساسا ، فآمن بصحة ما يسمع ، وزاد في ايمانه أن المدينة ــ بين عشية وضحاها ــ صبغت بالأزرق من مصابيحها حتى أبوابها ونوافذها وواجهاتها الزجاجية .

كان المنظر طريفا ومحزنا ، وقد ارتفع سعر الصباغ وكثر الطلب عليه ، فمن لم يجد صباغا استعمل « نيلة » الغسيل .

وفي كل مكان ارتفعت السلالم ، وأخذ الناس يتسابقون الى طلي بيوتهم . وفي آلاف النوافذ والشرفات ، شرعت آلاف الأيدي تمر بفراشيها على البللور النقي الشفاف ، فتحيله الى لون أزرق كامد يقبض النفس . وعلى أبواب الحوانيت ، وقف البائعون كجلاذين يصطنعون العبوس كي لا يطمع بهم الشارون :

ـ عندكم طحين ؟

ـ لا ..

ـ قمح ؟

لا ..

ـ سكر ؟

لا ..

ـ بن ؟

ـ ولا بن .

ـ رز ؟

ـ ولا هذا .

فيهز الناس رؤوسهم غير مصدقين ، وقد يشتمون البائعين ، ويدخلون معهم فى ملاسنة تتحول الى عراك ، ثم يعودون الى بيوتهم صفر اليدين نادبين خيبتهم المريرة ، وشرط البلدية يلصقون بلاغات الحكومة على الجدران ، حاملة التطمينات الى الأهلين ، والتهديدات الى التجار والبائعين ، وخلال هذه المهزلة الرسمية ، تختفى اكثر فأكثر ، جميع الأطعمة والحاجيات من الأسواق .

كان على رصيف أحد المقاهى جماعة يتحدثون عن المعارك الحربية ، وقد شرع احدهم ، ويبدو انه محارب قديم له سمة ضابط متقاعد ، يرسم على راحة كفه اليسرى بسبابة يده اليمنى خريطة عن المعارك الدائرة ويقول :

ـ هنا خط ماجينو .

فسأله آخر :

ـ ومن هو ماجينو هذا ؟

فأطبق جفنيه برما بهذا السؤال ، وما لبث أن تجاهله وقال :

ـ هنا خط ماجينو .

وسأل السائل :

ـ لكن من هو ماجينو هذا ؟

فسكت المحارب القديم محاولا كبح غيظه ، ولما اخفق ، رمق السائل بنظرة اشمئزاز وصاح :

ـ اتحسبه ابن عمى ؟ ابن خالى ؟ ابنى ؟ ابن اخى ؟ ماجينو خط يا فهيم .. خط دفاع بين فرنسا والمانيا .

وبعد لحظة صمت ، عاد فرفع يده اليسرى ، وجعل من راحتها خريطة ، ومد اصبعه اليها وقال :

ـ هنا خط ماجينو .

فتضايق احد الجالسين وقال :

ـ طيب فهمنا .. هنا خط ماجينو .. وبعد ؟

ـ وبعد ؟ .. خذنى بحلمك .. اذا جاء هتلر من هنا .. (وأشار بأصبعه اشارة خاصة فى خريطة كفه) اصطدم بحصون من اسمنت مسلح تعجز اضخم الدبابات عن اختراقه .

ومط محارب آخر قديم عنقه وقال ساخرا :

ـ واذا جاء هتلر من هنا يا فهلوى !
واشار هو الآخر الي خريطة كفه هازئا .

فبرقت عيون الحاضرين فرحا بهذا السؤال المفاجىء ، وأجاب صاحب ماجينو محتدا :

ـ لا يستطيع هتلر الهجوم من هنا ..

ـ بل يهجم من هنا .. أتراهن ؟

واحتدم الجدل والنقاش .. وتحول رصيف المقهى الى مقر اركان حرب ، وكل من الرجلين يحاول ان يثبت خبرته العسكرية ، بينما اخذت الآخرين حيرة : أيا منهما يصدقون . ؟!

اما فارس فقد اقام مستندا بظهره الى الجدار ، يصغى مبهورا بما يرى ويسمع ، وظل هكذا وقتا طويلا ، يراقب الحركة بين صاحب خط ماجينو وخصمه . فلما انتصف النهار ، عاد الى الحى تختلط فى ذهنه وتتشابك أفكار لا عهد له بها من قبل ، وتتصارع فى عالمه الداخلى نوازع شتى ، مشوشة ، لا يعرف مصـدرها ، ولا مغزاها ، وقد أحس انه بدأ يتعرف الى اشياء جدية فى الحياة ، أشياء تركت فى نفسه شعورا كئيبا مبهما ، مماثلا للشعور الذى تركه فيه حديث والده ليلة أمس .

بيد انه تذكر رنده وصدرها وابتسامتها ، فلعق شفتيه كجرو صغير ، وفكر أن يترصدها غدا صباحا ، فاذا أطلت من الشرفة ابتسم لها ، فاذا ابتســمت هى ؟! وقال فى نفسه : « لابد أن تبتسم ، وستكون امى فى الشغل ، والدار فارغة ، فاشير اليها فتنـزل .. آه لو يحدث أن تنـزل ! سأعرض عليها كل ما فى الصندوق ، ونتحدث .. ولكن ماذا نقول ؟ كيف يتحدث الناس عن هذا الشيء ؟ ومريم السودا ! وأم صقر ! وقفير النحل ! سوف يروننا ، أهل الدار سيروننا ، فلو تفـرغ الدار يوما .. وأظل وحيدا ، فأراها ، واشير لها ، وتنزل فنجلس ، وأمسك يدها ! .

وخفق قلبه بشدة وهو يعود أدراجه الى سوق الحى ، فلما بلغه ابصر أبا رزوق الصفتلى آتيا من راس الحارة . كان ينحدر متمهلا ، وقد ألقى قصبة الصيد على كتفه اليمنى ، وخطواته واسعة ومتزنة كخطوات جمل عجوز ، فسار الى ملاقاته ، وقد منى نفسه بمرافقته الى النهر .

لم يرفض أبو رزوق العرض طبعا . كان يتمنى هو الآخر أن يقع على من يرافقه ، وها هو فارس يعرض ذلك بكل بساطة . انما ـ وكى لا يرخص بضاعته كما يقول ـ اشترط عليه أن يأخذ قليلا من الخبز ، وأن يقسم الا يعكر الماء ولا يسبح ، فوافق فارس على الشروط ، وذهب لاحضار الخبز ، وبانتظاره جلس أبو رزوق على رصيف دكان عازار الاسكافى ، واضعا قصبته على الرصيف ، وجعل يتفحص المارة بنظراته الحادة ، يستقبلهم من بعيد ، ويلاحقهم الى بعيد . وظل عازار يرقع حذاء عتيقا . لا يعرف أحد سواه كيف يمكن أن يرقع وهو فى مثل هذا البلى ، وقد مد رجله السليمة ، وأراح جذع ساقه المقطوعة على حشية قذرة وراء السندان ، فى دكانه الضيقة المستطيلة كأنها فجوة فى جدار .

***

كان أبو رزوق الصفتلى عجوزا ناهز الستين من عمره ، عملاقا ، شائبا ، يمشى وجذعه يسبقه ، ورأسه الصغير أبدا ممطوط الى أمام يكسبه شبها بجمل دون مقود .

وكانت فى رأسه ، فوق الفود الأيسر ، كرة من ورم تشوه مرآه ، وتجعل أحد جنبى الرأس ناتئا نتوء كيس ملىء بالبطيخ ، وكانت يداه طويلتين كبيرتين كرفش . أما عيناه فحادتان كعينى ذئب ، مثقوبتان كزمر ، تومضان خبثا وحسدا ، الأمر الذى جعل

الناس يتقون سلاطة لسانه ما أمكن . أما لباسه فيتكون غالبا من سروال ازرق وقميص كاكى ، وينتعل صيفا وشتاء بوطا عسكريا ضخما ، ويدخن بغليون من قصب أجوف .

فاذا سـئل عن سـبب الورم فى رأسه هز ذلك الرأس ، كانسان يستعيد ذكريات داميات طواها الزمن ، واجتهد فى تقمص شخصية جدية ثم قال :

ـ لا تسألوا ..

وتنهد بعد ذلك تنهدة طويلة .. وسكت .

وعندئذ يجيب عازار على السؤال ضاحكا :

ـ ضربته زوجته بقبقاب .

فيقايضه أبو رزوق من نفس بضاعته :

ـ أما أنت فلا يصدقك أحد .. لأنك لم تعرف الصدق منذ ولدت .. تقول ان ساقك قطعت فى الحرب ، فلماذا الكذب ؟ . قل الحقيقة ، اعترف انك كنت تسرق فقبضوا عليك ، ولكى لا يعرضوا روحك الخبيثة للموت ، اكتفوا بقطع رجلك لاراحة الناس من شرك .

ويسمع عازار ويضحك ، كان من عادته أن يثور فى مثل هذه الحالات ، لكنه يعرف أى شخص هو أبو رزوق ، فيستقبل أقواله بالهزء ، مجتهدا فى الباسها ثوب الدعابة . وفيما خلا ذلك ، كانا على وفاق ، أعنى على اتفاق فى اغتياب الناس . يجلسان فى دكان عازار ويشرعان فى حديث من هذا النوع :

تمر امرأة فيعريها الصفتلي بنظراته الجارحة ، ويتلفت الى عازار قائلا :

ـ اترى هذه ؟

ثم يشتم ويبصق ويضيف :

ـ آه لو كانت زوجتي ..

أما زوجته فكانت شرسة ، ضربته مرة بمدقة الكبة ، وقد هجر يوسف الشاقول امرأته لأجلها .

ويجيبه عازار دون أن يرفع عينيه عن الحذاء :

ـ يلعن شوارب زوجها ..

ويضحك الصفتلي ويسر في نفسه :

ـ ان شواربك احق باللعنة .

لكنه يكتم ذلك ويقول :

ـ وشوارب أبيها ؟ .. لا تنس شوارب الذي خلف ..

ويضيف الصفتلي :

ـ وشيبة التي خلفت أيضا ..

ويضحك الاثنان ، ويتابعان هكذا أحاديثهما حتى الظهر .. واذ ذاك ينتظر كل منهما انصراف صاحبه ، فاذا سبق الصفتلي بالذهاب ، استدار عازار الى اقرب شخص اليه وقال :

ـ أترى هذا؟ (ويشير الى الصفتلي الذي يكون قد ابتعد) عكروت .. اخو ..

أما اذا ذهب عازار فعندئذ يهز الصفتلي راسه ويقول لمن حوله :

ـ الله عرف الأفعى وحط رجليها فى بطنها .

على أن ذلك كله لم يكن يمنعهما من الرجوع خـلال أوقات قصيرة الى طبيعتهما الانسانية ، وفى هذه الحالات يبدوان طيبين غاية الطيبة ، يزوران المرضى ويسـيران فى جنـازات الفقراء ويذهبان أيام الآحاد الى الكنيسة ، ثم يعودان ويجلسان أمام باب الصفتلى حيث يجتمع حولهما الرجال ، فيأخذ هذا فى سرد بعض ذكرياته عن بونس ايرس ، وكم استغرقته تلك الذكريات ، وكم التفت فى غمرة حديثه الى الجالسين حوله ، فاذا كانت فى الحلقة احدى العجائز قال وهو يحاول النكتة :

ـ فلانة مثل أختى .

ثم أضاف :

ـ اقسم بشرفى (ويخفض صوته المتفاخر قليلا) سحبتنى فى بونس ايرس امراة مثل البدر .. تعال الى غرفتى .. لكن آخ ما النفع ؟

ـ خفت ؟ .

وتبرق عيون الرجال بومضات الاستثارة الجنسـية ويقول أحدهم :

ـ الله يلعنك ... الحقها .

ويقول آخر :

ـ لو كنت مكانك اذن ..

وتصيح العجوز :

ـ استحوا من شيبتكم على الاقل !

ويمسح الصفتلي شاربيه الكبيرين ويضحك .. ويضحك الآخرون وهم يتغامزون .. وتنهض العجوز وتمضي بعيدا .. فيستأنف الصفتلي حديثه :

ـ صدف مرة ..

ويروح يروي مغامرة جديدة مثيرة لأعصاب الرجال .

***

على انه اليوم ، والوجوم يكتنف كل من حوله ، اصيب بالعدوى فوجم ، ولما عاد فارس ، حوالى الظهر ، نهض فذهبا معا الى الصيد ، سالكين الى النهر طريقا طويلة جدا . سارا أولا على امتداد الطريق العام ، ثم عرجا الى ارض بور ، وداسا الأعشاب والأشواك اليابسة ذوات الابر ، وقفزا التخوم وهما يسرعان لئلا يفوتهما الوقت .

كان الصفتلي يعتمر قبعة من قش ، زعم أنه أحضرها من بونس ايرس ، وفارس يعقد منديله فوق راسه ، فتبدو زواياها الأربع كقرون عنز ، وقد راح يسأل طول الطريق :

ـ هذه الأرض لمن يا عم ميخائيل ؟

ـ لفلان ..

ـ وهذه ؟

ـ له أيضا .

ـ وهذه ؟

ـ له .

ـ وهذه ؟

فاحتد الصفتلى وصاح مغتاظا :

ـ ولك ابنى بلا كترة كلام .. كل المنطقة من قبل النهر بساعة حتى بعد النهر له .

ـ لشخص واحد ؟

ـ اى ! لا تتعجب ، الرب معط .

قال فارس :

ـ انا لا أصدق ..

وارتسمت للاقطاعى صاحب كل تلك الأملاك فى نفسه صورة طريفة ، فقد تخيله شخصا متناهى الضخامة ، ذا كرش أكبر من كل ما راى .. وقد ضحك الصفتلى وهو يخبره بذلك وقال :

ـ زوجته هى الضخمة ، تلك هى الفيلة بعينها ، اما هو فيابس كالحورة المقطوعة .

واضاف ويده تعبث بشعر ذقنه :

ـ اتعرف المومياء ؟ هو كذلك ، عصبى الى درجة الجنون ، كافر لا يعرف الايمان ، فاذا جاء الشتاء وسكن المدينة ارتاح فلاحوه من شره ، اما اذا جاء الصيف فقد حلت عليهم مصيبة كاللعنة ، وقد ترك الكثيرون أراضيه وهاجروا . لكنهم كانوا يعودون ، وعندئذ يتحكم فيهم بأشد مما كان يتحكم .

وصاح فارس بغتة ، قاطعا حديث الصفتلى ، غير عابىء بانفعالاته التى بعثها شقاء الفلاحين :

ـ وصلنا ..

وقال الصفتلى :

ـ لا تستعجل .

ومضى الى الأمام على طول مجرى النهر . كان يتوقف من وقت لآخر ، ويحدق فى الماء بنظرات استقرائية غريبة ثم يستأنف المسير ، وفارس يتبعه صامتا متسائلا فى سره عما يمكن ان يراه الصفتلى فى الماء الرصاصى العكر .

كان النهر ينساب سريعا مستقيما حينا ، وبطيئا متعرجا حينا آخر ، مخترقا الزروع الخضر فى الربيع ، وحقول القمح ذى السنابل الذهبية فى الصيف ، والأعشاب الصفر ، وقصلات الحصاد فى الخريف والأدغال القائمة على جنبيه فى كل الفصول .

أنزل الصفتلى قصبته عن كتفه ومضى الى ظل دغل كبير ، وقد ركض فارس يسابق النهر فى انحداره الى الشاطىء ، تفعمه طلاقة الحياة حيوية وحبورا .

واذا سوى الصفتلى موضعه من النهر جلس وألقى صنارته فى الماء ، وجاء فارس فجلس قربه ، وشرع يراقب ، جامعا كل حواسه فى ارتعاشات الخيط ، ويعد نفسه للفرصة القادمة ، فرصة انتشال الصنارة من الماء ، وقد علقت بها سمكة كبيرة .. اكبر من كل ما راى ، ذات بياض كالفضة ، وأصداف وذيل وجناحين . فاذا قفزت سمكة صفق بغبطة لا حد لها وصاح :

ـ آه ..

فيزجره الصفتلى :

ـ لا تصرخ ..

لكن فارسا يعود فيصرخ ، ويصيح الصفتلى :

ـ أهكذا كان الشرط ؟ ..

ـ ولكن السمك لا يعلق ..

فاوضح الصفتلى قائلا :

ـ انه لا ياكل ..

ـ ولماذا لا ياكل ؟ .

ـ لانه لا ياكل ..

ـ واذا لم ياكل ؟

فقال الصفتلى خارجا عن طوره :

ـ للقرد ! .

وسكت فارس عاضا على مؤخرة لسانه ، فقال الصفتلى أكثر هدوءا :

ـ ماذا تريدنا أن نفعل ؟ نلقى نفسنا فى الماء ؟ نمسكه بيدنا ؟ نهذى كالمجانين ؟

ثم اضاف بعد لحظة صمت وقد أعطى صوته شيئا من الرفق النصوح :

ـ اذا لم ياكل فانه لا ياكل ..

وسكت قليلا واضاف :

ـ وماذا نستطيع ؟..

وفجاة قفزت سمكة كبيرة فى الماء ، فهز الصفتلى راسه وشتم :

ـ يا رزق الـكلب .. البورى ، لعنة الله على البورى ..

والتفت الى فارس :

ـ رحت على الصيد من قبل ؟

لفظ العبارة الأخيرة بلهجة التساؤل الجدى :

ـ لا ...

قال الصفتلى ناصحا :

ـ اذن فتعلم الصبر .

وسلم فارسا القصبة ريثما لف سيكارة أشعلهابهدوء ، وبعد ان سحب منها نفسا طويلاوضعها بين اصبعى يده اليسرى واستعاد القصبة باليد اليمنى وقال :

« كان لى فى زمن الشباب صديق صياد اسمه عبد الله ، كان شابا قويا جريئا ، كثير المرح ، دائم الحركة ، لـكنه قليل الحظ . تأمل ماذا أقول ! قليل الحظ ، انا أؤمن بهذه المسألة بعـــكس والدك » .

ولما لم يقل فارس شيئا استأنف الصفتلى كلامه : « كنا نذهب الى البحر معا ، فاصطاد انا ويصـــطاد الآخرون ، ويأتى المساء وصنارة صاحبنا فارغة ، واذ ذاك يتملكنا الاشفاق فنعرض عليه سمكة أو سمكتين فيبتسم ويرفض :

ـ هل انتم أكرم من البحر ؟..

كان أبيا عفيفا ، وعنيدا أيضا ، وكنا نعرف منه ذلك ، فنكتفى بدعوته الى بيوتنا ، وحين يأتى كنا نفرح كثيرا . فبعد العشاء ،

ويكون قد شرب قليلا ، يدق لنا بالزمر ، وكان يجيد الدق والغناء بشكل يأخذ العقل ..

وسكت الصفتلى لحظة كأنه يفتش فى راســـه عن شىء ثم سال فارسا :

ــ ما الذى ساقنا الى هذه القصة ؟

ــ الصبر والصيد ..

ــ هه ، نعم ، الصبر والصيد .. قلت لعبـد الله ذات يوم ، انت لا تنجح بالصيد لأنك قليل الصبر .. تلقى صنارتك هنا ، ثم تسحبها وتلقيها .. ثم تضجر فتذهب وتتمدد فى ظل شجرة أو صخرة ، وتغنى او تدق لنا على زمرك .. هذا جميل ، نحن نحبك لأجل ذلك ، صوتك يطربنا ، وزمرك الحنون يكاد يبكينا ، لـكن هذا كله ليس من صفات الصياد ، يجب أن تتعلم الصـــبر ، أن تحترق فى الشمس فلا تبارح مـــكانك ، الصبر .. الصبر .. الصبر ..

وقطع الصفتلى قصته التى امتلكت حواس فارس وصاح وهو يشد بالصنارة :

ــ اكلت ..

ونط فارس واقفا ، يكاد يثب لفرط سروره ، وظل يراقب صفحة المـاء الراكدة تنداح عن دوائر صغيرة يحدثها ســـحب الصنارة المتواصل ..

وحين ادرك الصفتلى أن لا جدوى من مواصلة الشد صاح :

ـ علقت الصنارة ، لابد ان تكون سمكة كبيرة جدا .

قال فارس :

ـ واذا كان ، يا عم ميخائيل ، حوت ؟

فانتهره :

ـ حوت ؟ وفى النهر ! ما شاء الله ، ذكى ..

وراح الصفتلى من ثم يبحث حواليه عمن يساعده . وعلى الضفة المقابلة ابصر فتى فلاحا يرعى غنماته ، ويراقب الماء والصنارة باهتمام ، فصرخ به متعطفا :

ـ تنزل ؟

وقال الفتى :

ـ ماذا تعطينى ؟..

ـ انزل أولا ..

ونزل الفتى ، وراح يسبح كضفدعة الى حيث علقت الصنارة وبحركة رشيقة غطس الى القاع ، وخرج يحمل بين يديه شيئا كرويا كحجر ، أدكن مبرقشا كأفعى ، وفى نفس اللحظة انطلقت صرخة وشتيمة .. أما الصرخة فقد اطلقها فارس ، واما الشتيمة فقد قذفها الصفتلى ..

.. لقد علقت الصنارة بسلحفاة !

وحين اخرجت الى اليابسة الفى الصفتلى نفسه بين امرين : اما ان يقطع الصنارة ويتخلى عنها ، او ان يقطع راس السلحفاة ويستخرج الصنارة منه

كانت العملية الثانية اصعب لـكنه اقدم عليها ضناً بالصنارة ولما انتهى القاها من جديد فى الماء ، وهو لا يفتأ يسب ويلعن ، وجلس فارس بجانبه ، كما جلس الصبى الفلاح بعد أن سبح الى الضفة الأخرى ولبس ثيابه . ورغم أن الأمور سارت بعد ذلك على مايرام ، فقد اعتكر مزاج الصفتلى ولم يشأ أن يستأنف حديثه عن « الصبر وعبد الله الصياد » . ولم يجد فارس مندوحة من التململ معتبرا ما سمعه عن الصبر شيئا لا يعنيه ، لأنه لايريد أن يكون صيادا .

كان الصبى يدعى نجوما ، وقد ساله فارس ، لماذا لا يسموك «نجم» أو «نجم الدين» فأجابه : اسم نجوم احلى ، جـدى كان اسمه «نجوم» ، ونحن في القرى نحب هذا الاسم .. وأنت .. ما اسم جدك ؟

ــ فارس أيضا .. وقد مات من زمن بعيد .

وبعد أن تم التعارف بينه وبين نجوم ، نهضا يعدوان فى اثر الحراقص ، ويخبان فرحين. سعيدين فى الأراضى المجاورة للنهر ، ويدوران حول الأدغال القائمة على ضفتيه .

وظل الصفتلى فى موضعه ذاك من النهر ، يرضى حينا فيغنى، ويغضب آخر فيشتم ، والماء مندفع فى مسيره لا يبالى برضاه ولا بغضبه ، تتابع موجاته الرقيقة فى تكسرها الرقيق ، مدفوعة بأيدى النسمات ، وتقفز من وقت لآخر ، سمكة كبيرة مفضضة ، ويخش شىء ما فى الدغل ، ويزقزق عصفور يحـط على غصن زيزفون مائل فوق النهر يكاد يلمسه .

والى أبعد ، الى يمينه ويساره ، وعلى الضفة المقابلة ، انتشر صيادون آخرون ، القوا بصناراتهم فى الماء ، وجلسـوا ينتظرون الصيد فى صبر عجيب .

وحين ضاقوا ذرعا بالصيد والنهر ، واشتد عليهم الحر ، أفاءوا الى دلبة هرمة تقوم على ضفة النهر المقابلة ، وشرعوا منذ وصولهم اليها يدخنون ويتحدثون ، ويروى كل منهم ما صادف فى نهاره ذاك . كانت أحاديثهم تدور غالبا حول السمكة التى افلتت منهم ، ومن عجب ان هذه السمكة تكون هى الكبيرة دائما .

ــ آه .. لو لم ينقطع الخيط !

قال صياد ضامر ، احمر الشعر ، وهو يفرك كفيه ، وقد جلس القرفصاء :

ــ اما انا فقد سحبتها حتى الضفة ، ثم نترت الخيط .. لكن ما الفائدة ؟ الله يلعن البورى ما أكهنه.

وقال أكذبهم وهو يمسح شاربيه الكبيرين بكميه ، اثر تجرعه طاسة ماء :

ــ الصيد توفيق .. لو اكل السمك الطعم لانتشلت نصف قنطار .

فهز الصفتلى راسه هازئا وقال :

ــ لو ...

كانوا شيوخا فى خريف العمر ، يرتدون ثيابا خلقة ويتكئون على سللهم ، وقد القوا قبعاتهم جانبا ، واخرجوا اقدامهم من ابواطهم لتستريح . كانت جلستهم المريحة هذه فى طراوة الظل وعذوبة الانسام ، توقظ فيهم مشاعر ، تظل راقدة وهم على الضفاف . فاذا اجتمعوا نام منهم من نام واخذ الباقون فى سرد ذكريات ماضيهم ومهنتهم ، وقد ثرثروا هذا اليوم أكثر ماثرثروا عن الصيد ، وحين اخذوا قسطا من راحة ، وملوا لغوهم الذى

لا طائل تحته ، أجالوا أبصارهم فيما حولهم ، وشرعوا فى حديث ناقم ، لـكنهم مالبثوا ان اختلفوا حين وصلوا فى حـــديثهم الى النقطة التالية :

قال أحدهم :

ـ تصوروا كل هذه الدنيا لرجل واحد ..!

وأجابه آخر دون أن يرفع عينيه عن سيكارته التى يلفها :

ـ تقدم باستدعاء ضده .

ـ لمن ..؟

ـ لمقسم الأرزاق ...

ـ وما دخله فى الموضوع ؟

ـ هو الذى قسم وأعطى .

ـ وأين رزقنا اذن ؟

وانتهره صياد متدين :

ـ لا تكفر يا رجل ..

وقال آخر متهكما :

ـ حديث نسوان .

وأرسل ثالث هذه الملاحظة :

ـ رزقنا هناك « وأشار الى النهر » قوموا نفتش عليه .

ونهض الصفتلى قائلا :

ـ أما أنا فقد يئست من النهـــر .. سأفتش عن رزقى في

البحر .. فى الأرض .. واتجه الى البساتين القريبة وانطلق وراءه سباب قاذع :

ـ شيبة شيطان .. سيسرق .. أقسم أنه سيوقعنا فى داهية .

ونهض صياد آخر ، ثم آخر ، وبقيت الدلبة وحدها .

كان الأصيل قد أوغل وبدأت تسابيح القبرات تتعالى فى ابتهال علوى ساحر ، وعلى الأدغال الكثيرة حول ضفتى النهر .. راحت عصافير التبن تحط وتطير ، وتزقزق مرحة كأنها تنشد لحنا تودع به النهار ، وماء النهر الرصاصى يسرع باتجاه البحر ، والفضاء بما فيه من أحجار وأدغال وأشجار ينشد أغنية صامتة تبعث فى النفس قدسية عميقة . ومن الأرض المنداة ببرودة المساء المتنفسة لهيبا حارا تمتصه رطوبة المغيب ، ومن التراب الخصب المبارك ، تنتشر رائحة تفعم الجو وتعطره .

كانت آمال الصيادين تنتعش فى مثل هذه الساعة ، ويتركز انتباههم كله فى الماء ، كما يتركز انتباه الفلاح فى الأرض ، وقد علق الصفتلى أمله عليها فى ضراعة الصياد الذى أمسى ولم ينل مايشترى به خبزه .. ومن كل أطراف الفضاء ، من القرى ، ومن خيمات النواطير فى البساتين ، من فوق التلال وعلى سفوحها ، انتشر دخان التنانير ، واندلعت النيران تضىء الآفاق ، مؤذنة بانتهاء النهار ، وانتهاء العمل المرهق ، والكدح المذيب .

وثمة فى أنحاء السهل ، كانت تتصاعد نحو العلاء أغانى الرعاة العائدين مع قطعانهم الى القرى ، زمورهم فى أفواههم ، وعصيهم تحت أبطهم ، وأغنامهم وأبقارهم تدرج مسرعة الى زرائبها ، ترسل فى الفضاء ثغاء وخوارا يقابلهما ثغاء وخوار الخراف والعجول المربوطة فى الحظائر ..

ومع الرعاة عاد نجوم ، يسوق غنماته أمامه ، ويهش عليها بعصاه ، فسار معه فارس قليلا ، ثم انكفأ يركض بمحاذاة النهر ، والقمر والنجوم الملتمعة قد انعكست على صفحته ، حتى خيل اليه ان السماء تبتسم للأرض ..

ألفى الصفتلى يغنى ، كان قد اصطاد سمكة كبيرة ، وثلاثا صغيرات ، فلما جلس فارس مقرفصا قربه ، جعل يحدثه بفرح عن خيرات الأرض .. والخبز الكثير الذى يكفى الجميع ..

ـ آه لو وزع هذا الخبز « قال الصفتلى راضيا» اذن لما اشتهيت رغيف جارى قط ..

كان الصفتلى حسودا ، لكنه فى أوقات الاقبال والخير ، يبدو رجلا سويا طيبا .. يحب المزاح ، ويجيد الحديث والغناء . ولقد اصطاد اليوم مايكفيه ، فسجد لله ، وقبل التراب ، ورفع رأسه وابتسم للنهر كأنه يقول :

ـ شكرا ..

ثم رفع قصبته على كتفه ، وحمل سلته وعاد الى البيت .

... وعلى الطريق ، الطويل الطويل ، راحا يتحدثان .. قال فارس :

ـ هل يستحق ما اصطدته هذا التعب يا عم ميخائيل ؟

قال الصفتلى :

ـ ولم لا .. نعم يستحق يا عين العم ..

ثم أضاف :

ـ نحن يا فارس نعيش على الرجاء .. على أمل أن يعوض

الغد ما أمسكه الأمس ، هذا هوس .. الصيد هوس .. أفيون .. ثم انه ، وهذا المهم ، مصدر لقمتنا ، فلولا الصيد كنا نموت .. ما رأيك ..؟

قال فارس : صحيح :

وظلا يتحدثان زمنا ، والصفتلى يؤكد أن حكاية السمكة التى بلعت خاتم السلطان صحيحة .. ويتوقف عن السير ويقول :

ـ كل شيء جائز ، ربما اصطدت سمكة مثلها فى أحد الأيام .

قال فارس :

ـ أنا أصدق ، لكن والدى يقول ان مثل هذه الحكايات كاذبة .

فساق الصفتلى هذا العتاب :

ـ طباع ابيك غريبة ، لـكنه ذكى وطيب .. شهادة لله .

ثم اسـتدرك :

ـ الا انه لا يقرا فى قصة الزير .

فسأل فارس مدافعا عن والده :

ـ اتقرا أحسن منه ؟

ـ فى قصة الزير ؟ نعم ..

ـ وفى غيرها ؟

ـ انا اقول فى قصة الزير ...

فقال فارس مداورا الصفتلى :

ـ اذا وضع والدى نظاراته اقرا فيها بسهولة ..

ـ واذا لم يضع .. ؟

ـ انا اقول اذا وضع ..

اجاب الصفتلى مداورا :

ـ الأصل أن تكون القراءة بدون نظارات ..

واحتج فارس :

ـ لـكن ما دخل النظارات ؟

قال الصفتلي ؟

ـ أى ولك ابنى راح احكى كلمة ..

ـ احــــك ...

ـ أنا وأبوك نقرأ مثل بعضنا ..

فابتسم فارس لانتصاره وقال :

ـ أما أنا فاقرأ احسن منكما ..

ـ ولـكنك لا تنشد مثلى ..

ومن جديد ثار جدل بينهما ، انتهى الى هذه النتيجة :

ـ ابن المدرسة يقرأ أحسن من ابن الـكتاب ..

.. واستمرا بعد ذلك فى سيرهما حتى وصلا الحى .

***

وجد فارس والده يغتسل من غبار الكلس والرمل ، كان قد عاد لتوه من عمله المضنى ، فهو معمارى قديم ، أفنى عمره فى تشييد البيوت دون أن يتمكن من تشييد بيت لنفسه . ووجد والدته تقشر بصلا للطعام ، والقنديل الأزرق القائم فى الزاوية يرسل نورا خافتا يجعل ظلال الأشخاص ضائعة المعالم على الجدران وهدوءا غير مألوف يخيم على الحى بأجمعه ، كأن سكانه يترقبون حدثا مفجعا مع الليل .

وقد لاحظ أن الخبز على المائدة أقل من المعتاد ، وفطن والده الى مايجول فى خاطره فقال مفسرا :

ـ لابد من التقتير فى هذه الأيام ..

وقالت أمه :

ـ ولـكن الأولاد لم يشبعوا ...

فلم يبد على والده كبير اهتمام بهذه الملاحظة ، بل تراجع عن المائدة ، وقال فيما كان يفتح علبة التبغ :

ـ فى الحرب لا يشبع الناس ، فاذا لم يموتوا جوعا ، فمعنى هذا انهم محظوظون ..

ثم أشعل سيكارته ، واتكأ على وسادة من قش ، وغـرق ، صارما وقورا ، فى صمته المعتـاد ، والدخان يتخلل شاربيـه الـكثيفين ويرتفع أعلى فأعلى فى فضاء البيت .

وبعد أن أنهى سيكارته ، التفت الى فارس وقال :

ـ غدا تذهب الى جريس المختار فتحصل لنا على بطاقة خبز .. ثم نهض فانتعل حذاءه وخرج ..

٤

كان جريس المختار ذئبا وحملا فى وقت واحد . يستطيع ، عند اللزوم ، أن يعكر الماء ويتهم سواه بتعكيرها ، ويستطيع ، عند اللزوم أيضا ، أن يغضى عن تعكيرها من قبل سواه ، وأن يضـع رجليه فيها مشعرا الآخرين أن ليس من انسـان لايخطىء ولا ينخدع .

كانت له أوقات يخدم فيها الحى خدمة وجدان ، وتتميز هذه الأوقات بخلوها من الفوائد المغرية ، الفوائد التى تتطلب الخبث والدهاء ، فاذا ذهبت وجاءت غيرها ، أوقات أكثر ملاءمة للاستغلال شمر عن ساعديه لسلخ جلود الناس بسكين لطفه ، ونشر هذه الجلود بغير ملح فى الشمس ، ثم اقناع أصحابها بأنه انما يفعل ذلك لمصلحتهم !

وقد كانت الحرب خير فرصة جاءت بعد انتظار ، ومنذ اليوم الأول صارحهم برأيه فيها .. قال :

ــ « الظروف استثنائية » .

وظل بعد ذلك يردد هذه العبارة طوال خمس سنوات ، حتى حفظها الناس عنه ، وأصبحوا اذا رأوه مقبلا قالوا :

ــ « جاء الظروف استثنائية » .

واذا رأوه مدبراً قالوا :

ــ ذهب « الظروف استثنائية » .

وكانت هذه الظروف الاستثنائية تعنى السكوت عن كل شىء : الغلاء والبطالة وفقدان الخبز والكاز وتعسف الحاكم وظلم المستشار . أما السكوت فكان أمرا هاما بالنسبة اليه . هو يعرف ان المختار وجه السلطة تجاه الشعب فى القرية أو المدينة ، وخاصة فى القرية ، فاذا سكت الناس ارتاح هو ، واكتسب ثناء الذين أعلى منه ، واذا شكوا نال هو اللطمة الأولى ، ثم تصاعدت اللطمات بطريق التسلسل ، وجاءته بالتالى التهديدات والتوبيخات بطريق التسلسل أيضا !

لهذا كان يتشدد فى طلب السكوت ، وكانت حجته المفضلة

في ذلك ان الظروف استثنائية ، فاذا سأله سائل : « وما هى هذه الظروف ؟ » ابتسم مشفقا على غباوته وقال :

ـ العمى ! الا ترى الحرب ؟

ولقد حاول ان يطبق قاعدته الاستثنائية تلك على كل شيء . جعل يوسع دائرة مفعولها يوما بعد يوم ، ويزيد من شمولها شهرا بعد شهر ، حتى اصبحت كاللازمة يرددها فى احاديثه بلا انقطاع ، ويشهرها سلاحا ، يحاج به من لا يريد أن يقضى اغراضهم ، ويفاجىء بها كل من يأتى اليه طالبا حاجة ما .

وقد كان من السهل خلع المختار ، لو أن تقرير الأمور يعود الى السكان ، الا أن امر العزل والتعيين كان بيد المستشار . وكان المستعمرون ، شأنهم فى كل مكان ، يفتشون عن صنائع لهم ، فاذا وجدوا صنيعة كجريس المختار ، فان تمسكهم به يوازى تمسكه بهم .

ولم يكن هو ، بعد هذا ، من الغباء بحيث يكشف أوراقه للجميع ، ولم يكن الجميع ، من جهة أخرى ، يستطيعون قراءة أوراق المختار ولو كانت مكشوفة تماما .

كانت هناك فئات بسيطة ساذجة من السكان ، تجهل حقوقها وتنخدع بسرعة عن هذه الحقوق ، وكان المختار يستغل بساطة هؤلاء فيخدعهم وهو يبتسم ابتسامة شيطان من بين أسنانه الصفراء . على انه ، هو أيضا ، كان يصبح هدفا لسخرية الناس فى بعض الأحيان ، حين يمعن فى استعمال حيله وظروفه الاستثنائية الى درجة الابتذال .

ومن ذلك أن رجلا فقيرا عاجزا جاءه يطلب وساطته لينال مساعدة من البلدية ، فأخذ يداوره ويحاوره حتى أعجزه فأتلفه ،

وكان يضم أصابع يده اليمنى الثلاثة . ويشير بها ويغمض عينيه ويهز شرابة طربوشه ويقول نافد الصبر :

ـ يا أخي فهمت ، معك حق ، أنا موافق ، لكن الظروف ..

وقصدته امرأة تطلب بيانا بفقر حالها ، فنقعها في دكانه ، وألقى عليها محاضرة ختمها بقوله :

ـ يا أختي فهمت . معك حق ، أنا شاعر بحالتك متألم لأجلك ، ولكن الظروف ...

وأتاه أبو فارس في حاجة ذات يوم ، فوقف وراء طاولته ، ومد يده بأصابعها المضمومة . وضحك ، ثم عبس ، ثم اتخذ سمة الجد والوقار . وشرع في محاضرته :

ـ يا أبو فارس فهمت ، أنا موافق ، الحق معك ، ولكن الظروف ...

وسأله أبو فارس ، وكانت دكانه مليئة بالناس :

ـ ولكن ماذا فهمت ؟

وبوغت المختار بهذا السؤال ، كأن سطلا من ماء بارد داق عليه :

ـ فهمت ... المسألة ... المسألة ...

وقال ابو فارس صارما كعادته .

ـ الحقيقة انك لم تفهم ، لسبب بسيط ، هو انني لم اقل شيئا بعد ... أنت ثرثار ، ثرثار يا مختار ، ثرثار ومغرور بنفسك .

وخرج ابو فارس غاضبا ولما يزل المختار مادا يده باصابعها المضمومة . وقد امتقعت سحنته واصبحت ، دفعة واحدة ، نهبا لنظرات الحاضرين ، حتى شد بعضهم على شفاههم كي لا يغربوا في الضحك .

منذ ذلك اليوم اصبح المختار يحذر ابا فارس ، وظل ابو فارس يكره المختار ، ويستخف به ، ويراه ثرثارا جبانا ، متبجحا لا اكثر .

وقد جاءت الحرب ، واحتكرت الأرزاق ، وخلت الأسواق من مواد الغذاء ، حتى الضرورية منها ، كالدقيق والخبز ، فاخذت البلدية في توزيع الاعاشة على السكان ، بواسطة المخاتير أولا ، ثم بواسطة دفاتر خبز الفقير المعطاه منهم ثانيا ، وهذا ما اتاح لجريس المختار فرصته الذهبية ، فكان يسرق اعاشة سكان الحي ويتاجر بدفاتر خبز الفقير دون حسيب ولا رقيب .

وعندما مر ابو فارس عليه مساء امس ، واوصاه بدفتره ، اجاب المختار فخورا منتشيا بفوزه عليه :

ـ ماتكرم ، خدمة كهذا على الراس ، تتعب نفسك ، ارسل المحروس ولا عليك ...

وقد احب ابو فارس ان يجرب المختار ، فاوصى ابنه بالذهاب اليه ، للحصول على بطاقة الخبز .

٥

أفاق فارس باكرا لأن والده هزه من كتفه قائلا « لا تنسى بطاقة الخبز » وكان هو يخاف والده ، ويعرف أن كلمته واجبة التنفيذ ولقد ود أن يبقى في الدار ليترصد رنده كما اعتزم ، ثم قال في نفسه : « سأفعل ذلك بعد الحصول على البطاقة » وارتدى ثيابه وانطلق الى السوق .

وكان مقهى الشاروخ على نفس القذارة التي اكتنفته ليل امس، تشيع في جوانبه رائحة عرق التين ، وتعلو طاولة في زاويته قشور قصب السكر ، ويتجمع في اقصاه الزبائن الذين رآهم فارس امس ، ولم يجد فيهم ما يغري بالجلوس اليهم ، سوى هذه اللعبة التي يعرف أنها القمار ، وأنها مسلية ، لكنها لاتليق بالشرفاء ، ولا يرضي والده أن يتعرف اليها ولو متفرجا . ومع انه سيفعل ذات يوم ،سيتفرج بدافع اغراء شعر به منذ أن منعه والده عنها ، فانه لم يجلس هذا اليوم ، وتابع طريقه مارا قدام دكان عازار الاسكافي منحدرا باتجاه البحر ، وقد عجب انه لم يجد الصفتلي في مكانه المعهود من الرصيف . كان يتصور مسألة الحصول على دفتر خبز الفقير من السهولة بمكان : أولا ان والده اوصى المختار ، وثانيا انهم فقراء، وثالثا يحمل معه دفتر العائلة . وقد ظن أن هذا كاف وأن المختار بانتظاره .. وسيبتسم اذ يراه ، ويقول هو له صباح الخير ، ثم يضيف :

ـ يسلم عليك ويرجوك أن تعطيني ... الخ ...

لكنه حين وصل الى دكان المختار طارت كل هذه الافكار من رأسه واضطر الى الوقوف على الرصيف ، يدفع الآخرين ، ويزحمهم للوصول الى المختار ، واذ فقد الأمل في تخطي من هم امامه ، اتى بكرسي وجده أمام الدكان ، ووقف عليه واطل الى الداخل .

كان المختار يقف في صدر دكانه وقد جلس قرب طاولته التي انتثرت فوقها الدفاتر والاوراق ، رجل بدين قصير كبير الرأس ، مترهل الوجه احمره ، اشيب الشعر قليلا هو بشارة القندلفت ..

وكان الزحام داخل الدكان شديدا ، كما هو خارجها ، وثمة ثلاث أو أربع عجائز يتقدمن الآخرين ، لم يعرف أجئن باكرا أم افسح الباقون لهن الطريق ؟.. وفي طرف الدكان تجلس أرملة

تلبس السواد ، لم تذهب الأيام الا بالقليل من نضارتها .

كان بشارة القندلفت لايني يخطف النظرة منها خطفا ، ويفرك ذقنه براحته اليمنى ، ويتحدث المختار أكثرمايتحدث وهومتجه نحوها ، بينا اغضت هي حياء ، او انها استرابت بنظرات بشارة القندلفت ، أو خافت عيني الذئب المنبعثتين من حدقتي الصفتلي الجالس على الأرض عند الباب ، فطاب لها أن تمثل دورها باتقان ، شأن المراة التي تعرف من اين تؤكل كتف الرجال .

انزلقت نظرات فارس على هذا المشهد ، كما تنزلق اشعة الشمس المنعكسة من مرآة متنقلة على صفحة الماء ، واستقرت على وجه المختار برهة ، ثم انتقلت الى لوحة وراءه مكتوب عليها بخط فارسي جميل :

« القناعة كنز لا يفنى » ! .

والى جانبها على الجدار ، وبخط سيء قليلا ، بيتان من الشعر هما :

دع المقادير . تجرى في أعنتها ولا تبيتن الا خالي البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال

والى يمين المختار ، رف خشبي ، فوقه دفتر كبير ، اسود الغلاف ، عليه اوراق صفر وحمر ، يعلوها الغبار ، وقد تراكم بعضها فوق بعض .

كانت الضجة والاصوات ودخان السكاير ، وتمتمات العجائز ، وبعض الشتائم النزقة الخافتة تعلو من كل صوب ، والمختاريجهد ليحارب على جبهتين : يكتب ويتكلم في آن ، فاذا رفع راسه عن الاوراق وتذكر الهوية ودفاتر العائلة المكدسة امامه ، مد يده اليمنى بأصابعها الثلاثة المضمومة ، ونفخ واستعاذ بالله ، ثم انطلق

يتكلم ، مرفقا كل كلمة باشارة خاصة ، وكلما توقف عند مقطع خاص فيه تفاخر وتشوف ، استرق نظرة الى الارملة ، وحدج بشـــارة القندلفت بنظـرة اخرى ، وعاد الى اوراقه يمســك القلم ، ثم لا يلبث أن يتركه قبل أن يكتب ، ويعود الى الكلام ، والى استراق النظرة الى الارملة وبشارة القندلفت ، وقد خشي أن يكون قد سبقه الى التفاهم معها ، فهو لذلك يريد أن يسترعي انتباهها بأية وسلية اما الارملة فقد انصرفت تبتسم فى سرها ، وبدت كالنعجة الاليفة الطيبة ، تنتظـر أن يتهمها الذئاب فى كل لحظة بتعكير المـاء ، وتستدرجهم اليه طمعا فى أن تحصل مقابلة على نصيبها مضاعفا من بطاقات خبز الفقير ...

وصاحت امرأة ، نبتت فجأة عند الباب ، ولا يدرى احد كيف وصلت اليه :

ـ يا مختارنا !

ـ نعم ... امر ... تفضلى !

قالها المختار متأنيا ، وقد استأنس بالصوت الانثوى .

ـ مين فى الحى افقر منى ؟

ـ لا أحد .

ـ ليش ما اعطيتنى بطاقة الخبز الا بشخصين ؟

ـ يا اختى اشكرى ربك ، انت احسن من غيرك .

ـ غيرنا أخذ بطاقته بثلاثة وأربعة وخمسة ..

ـ عدد الاشخاص تابع لعدد العائلة .

ـ ونحن عددنا قليل ؟ خذ .. (ودست يدها فى عبها لاخراج دفتر العائلة) ، فصاح بها المختار :

ــ طيب ! طيب ، عودى مرة ثانية ، راح ابحث موضوعك .
وعلا صوت من جانب الدكان :

ــ يا مختارنا !

ــ نعم .

ــ أين بطاقتنا ؟

ــ انتظر كم يوم .. كم يوم فقط ، هيه !

ــ ونحن ؟ . قالها رجل يضع نظارتين على راس أنفه ، وينظر من طرف زجاجهما الأدنى .

ــ ماذا ؟

ــ لم تسجلنا !

ــ حالكم ماشى ..

ــ حالنا ماشى ؟ . يا جماعة ، يا ناس ..

فصاح به المختار :

ــ لا تصرخ ..

ــ لا أصرخ ؟ نحن أغنياء ؟

ــ ما قلت أغنياء ، الحال ماشى ..

ــ الحال ماشى ؟ راح انشق يا هو ، يا جماعة ، يا أصحاب الضمير ..

وصاحت عجوز فى هذه اللحظة :

ــ يا مختارنا ! يا مخهارنا ! نسيت الأيتام ، حرام عليك.؟! .

وارتفعت الأصوات من كل صوب :

ـ يا مختارنا ..

ـ نعم !

ـ يا مختارنا ..

ـ نعم !

ـ يا مختارنا يا مختارنا يا مخ ... تا ... ر ...

ـ نعم .. نعم .. ن .. ع .. م .. ايش ؟ قولوا ، تعالوا كلونى ، مزقونى ، البطاقات التى خصصتها البلدية للحى وزعتها عليكم بالتساوى !

وقالت امرأة :

ـ ما عندك عدل ، تعطى لناس وتمنع عن ناس .. سنشتكى .. ما فى يد الا وفى أعلى منها ..

فأغلق المختار الدفتر وهم بارتداء سترته وهو يصيح فى الحاضرين :

ـ روحوا اشتكوا روحوا ، أوباش ..

وخطا من وراء طاولته يريد الخروج ، فنهضت الأرملة ورجته الا يفعل ، وكذلك فعل بشارة القندلفت ، وقال قائل :

ـ عيب .. ما فى داع .

فصاحت به المرأة :

ـ العيب لمن يعمل العيب ، الأولاد جياع ، لم يأكلوا أمس ، خافوا الله .

واندفعت فى بكاء حقيقى ، بكاء صـــادر من عاطفة الأمومة الملتاعة . فخيم على المكان وجوم يمازجه أسى ، ولاحظ المختار أن الوقت قد حان ليلبس الذئب ثوب الحمل فيخدع الحاضرين ، ويكتسب رضى « النعجة » الواقفة قربه بقدها المشوق وصدرها الناهد .

فتح الدفتر وقال :

ـ خذى هذه بطاقة عائلتى ، جرحت قلبى ، يلعن المخترة والذى وضع أمانتها فى عنقى ، ماذا أفعل ؟ عاطفتى رقيقة ..

وقال بشارة القندلفت مثنيا على كلامه وهو يتنهد مشفقا :

ـ صحيح ..

ثم بادل « النعجة » النظر خلسة وقال :

ـ عظيم ! ورفع يده الى وجهـــه المكتنز ، المترهل ، وراح يفركه دون انقطاع ، بينما تحرك الصفتلى فى جلســـته وتنهد وقال كمن يلقى كلمة ليستفتح بها عراكا مقبلا :

ـ واخيرا ؟

وصاح فارس وهو يقف على رأس أصابعه فوق الكرسى ويمط جسمه الى الداخل :

ـ يا مختارنا ..

وقالت عجوز نفذ صبرها :

ـ ونحن ؟

فانتهرها المختار :

ـ يا أختي بطاقتك موجودة ، حلمك على ، حلمك ..

ـ اذا كانت موجودة هاتها ، صار الظهر ..

وصاح الآخرون :

ـ خلصنا يا مختار ، انكسرت رجلينا ..

ويبدو أن فارسا استطاب هذه التسلية ، فتحول من متفرج لا مبال الى شريك متحمس في الكورس العام ، وجعل يضرب برجله على الباب . وقبضته على الزجاج ، ويضج مع الضاجين ، ويصرخ مع الصارخين . حتى كاد المختار يخرج عن طوره ، لولا أن شرطيا شق طريقه وسط الزحام في هذه اللحظة وأبلغه أنه مطلوب الى البلدية ..

حينئذ شاعت في وجه المختار الأصفر ظلال غبطة لم يقو على حبسها ، وبكل بساطة نسي ما سببه له المتجمعون من أهل الحى . كان على استعداد لأن يضحى بالكثير في سبيل هذه اللحظة ، فالتفت الى الحاضرين ، بعد ما ذهب الشرطى ، وقال فخورا مزهوا :

ـ شفتم ؟ رئيس البلدية طالبني ..

وأضاف بعد قليل ، وسحنته تتقمص سمات الخطورة :

ـ أتصدقون ؟ ليس من عادتي أن أمتدح نفسي ، بل أحب أن أصارحكم انني يده اليمنى ، وهذا من حظكم ، من حظكم دون ريب .. كنت أفضل الا أذكر هذا الأمر ، لكن الواقع ، هذا هو الواقع ، مختاركم نصف حاكم ، ولكن يا ضياع التعب .

ووضع بعد هذه الخطبة طربوشه على رأسه ، وقال وقد أصبح في الباب :

ـ كل واحد ما اخذ بطاقته يرجع بعد الظهر الساعة أربعة ، مفهوم ؟ بخاطركم ..

وخطا خطوة واسعة ثم اتبعها بأخرى ، موزونة .. وذهب .

٦

بعد ذهابه انصرف الناس الى بيوتهم حانقين . اما الصفتلى فقد أعلن أنه سيبقى جالسا فى أرضه حتى يأخذ البطاقة ، ولو اضطر الى النوم فى الدكان .

وقد أدرك بشارة القندلفت أن الفرصة التى حسبها قد سنحت يريد الصفتلى تفويتها عليه ، وابتسمت الأرملة فى خفر وحياء ، وقالت موجهة كلامها الى بشارة القندلفت :

ـ اذن أنا رايحة .

وغنجت وتثنت قليلا ، ففرك بشارة ذقنه بعصبية النشـال الذى تكاد الفريسة تفلت منه بعد طول مطاردة . وراح الصفتلى يتلذذ بمراقبة هذا المشهد المثير من المسرحية الصـامتة لغـرام مشبوب ، ويحس بالراحة لأنه فوت الفرصة على القندلفت الذى ما برح يتحرق ، وتومض عيناه ، ويتدلى لسانه حين ينظر باتجاه النعجة الخافضة أبصارها الى الأرض .

اخيرا قال مخاطبا الصفتلى :

ـ لو رحت واسترحت .. اعطنى دفتر عائلتك ، وتعال خد بطاقتك منى .

ولاحت في وجه الصفتلي تكشيرة ذئب عجوز ، فسأل القندلفت وهو يتكيء بظهره الى الجدار :

ـ بكم شخص ستكون البطاقة ؟

ـ بكم تريدها ؟

ـ بعشرة أشخاص ..

حدجه القندلفت بنظرة غضب جامح ، لكنه ظل متكئا غير مبال به . كان الصفتلي من هذه الناحية نذلا عتيقا لا يبارى ، وهو على استعداد لأن يفقد بطاقة الخبز فقدانا تاما على أن يترك القندلفت ونعجته وحدهما في الدكان .

نهضت المراة وقالت :

ـ سأعود بعد الظهر ..

وتطلعت الى القندلفت في دل غير خفي ، ومضت تتثنى في وقفتها ، وتتمايل وتتحرك كأنها تدوس على ابر ، ثم انصرفت مسرعة ، والقندلفت يشـــيعها بعينين نهمتين فارغتين ، ويركز نظراته على كل جسمها من أعلى الى أسفل .

كان الصفتلي من زاويته ، يراقب المشـــهد بمزيد من اللذة والاهتمـــام ، وقد خيل اليه أن نظـــرات القندلفت تركزت أول ما تركزت على شعر الأرملة ، ثم هبطت الى كتفيهـــا ، ثم الى ظهرها المستقيم الممتليء ، وبعد ذلك نزلت الى خصريها المتثنيين ، وتوقفت النظرات على الردفين المهتزين بانفعال ..

وحين اختفت في الشـــارع ، صـــاعدة نحو الحي ، التفت القندلفت الى الداخل ، فشمل الســـقف والجـــدران والصفتلي بنظرة سريعة جامعة ، وأخرج ساعته الكبيرة المستديرة من جيب سترته ، فنظر فيها ونهض قائلا :

ـ تأخرنا .. بخاطرك ..

ولم يتوقف ليسمع الجواب ، رغم أن الصفتلى استوى فى جلسته ورد هازئا :

ـ مع السلامة ! . عدم المؤاخذة ..

واذ تذكر انه ربما كان القندلفت قد عملها فى لحيته ولحق الأرملة ، نهض مسرعا وهو يقول :

ـ افعلها شيبة الكلب ؟

٧

كان بشارة القندلفت هذا خادما قديما فى احدى كنائس المدينة ولم يكن على تناسب مع مهنته ، فلا هو بتقى ، ولا هو بصالح ، على انه كان خادم كنيسة وكفى ، ولم يكن ينقطع عن السكر الا فى أيام الآحاد ، وأمسيات السبت ، كى لا تفوح رائحة الخمر منه خلال صلاة الأحد . ومع السكر كان يجمع بعض الخصال الأخرى التالية : يضرب زوجته ، ويعشق أية امرأة صادفها ولو كانت من عرض الطريق ، ويحفظ جميع فضائح الناس ويرويها دون تحفظ ، ويظل صامتا حتى يسكر ، وعندئذ تنحل عقدة لسانه فيثرثر دون توقف حتى ينام ويصحو من جديد .

كان اذا سكر واحمر وجهه ، وتراخت شفتاه وتلعثم لسانه يقول ويكرر :

ـ عيب أواحد يحكى ، دخلت البارحة الى بيت .. (وهنا يسمى احدى العائلات الغنية) فاستقبلونى وأكرمونى ، و ... (يدع جملته دون اتمام) ويطبق جفنيه فى تهويمة طويلة من شدة السكر .

فاذا فتح عينيه عاد الى الكلام عن اى شيء :

ـ عيب الواحد يحكى ، دعانى فلان الى الغداء ، لكن أنا ، أينك ؟ عيب واحد يحكى ..

ويستمر هكذا الى آخر السهرة ..

انما ، ويجب أن يذكر هذا ، كان القندلفت رجلا طيبا ، لا يؤذى الناس قط ، وقد تحدث جيرانه عن أخلاقه الخاصة فى بادىء الأمر ، ثم اعتادوها ، ثم ملوا الحديث عنها مع الأيام ، فأصبحت طبيعية تثير التندر . لكن مركز القندلفت ، كمركز صديقه المختار ، ظل على شيء من الاحترام ، على حد أدنى من الاحترام .

لم يكن الصفتلى ، فى مراقبته وملاحقته له ، يطمع باثارة اية فضيحة حوله ، فقد اكتسب مع الأيام مناعة القدم فى هذا المضمار ، وكل ما كان يهم الصفتلى أن يرضى نزعته الخاصة فى ترصد الناس واحصاء حركاتهم وسكناتهم ، ثم اذاعة فضائحهم ان استطاع .

وقد كان بوده أن يلحق بالقندلفت فيبحث عنه . يذهب أولا الى بيته فاذا رآه هناك تظاهر بأنه جاء يفاتحه فى موضوع بطاقة الخبز ، واذا لم يجده رمى كلمة اشار فيها الى ما حدث ، ثم ذهب الى السوق يقص على عازار الاسكافى واقعة الحال .

الا أن الصفتلى مضطر الى ترك هذا كله ، فقد تذكر أن عليه أن يأتى بكاز للقنديل ، والا بات على ظلام ، وكان الكاز كالخبز ،

كلاهما يباع بالبطاقة ، وقد حصل على بطاقته ، فلم يبق عليه الا أن يأتى بالزجاجة الفارغة ..

***

مضى أولا الى بيته فأحضر الزجاجة ، ثم عاد فوقف عند بوابة بيت أبى فارس ومط عنقه الى الداخل ، فى انحناءة مديدة . فألفى الدار ساكنة هادئة .

كان صقر يجلس على العتبة ، وأمه تنام متكورة على الأرض ، ومريم السودا تقتعد الحجر الكبير ، تدخن ، وتنقى قليلا من القمح .

صاح الصفتلى :

ـ ينكم يا ؟

وأجابته مريم :

ـ تفضل يا أبو رزوق .. تعالى نتسلى .

فمد راسه أكثر فأكثر ، صغيرا اشيب كالكرة ، وبرزت عروق رقبته كأنه يخرج رأسه من صدفة ، وقال مستحثا مريم :

ـ قومى ، هذا وقت تسلية ؟ .. قومى نأخذ حصتنا من الكاز .

وأجابته مريم بنبرة من فطن الى أمر نسيه :

ـ صحيح ، انتظرنى ، رايحة معك ، لعنة الله على الرجال ..

فقال أبو رزوق :

ـ قطع الله لسانك !

وقالت مريم :

ـ لا مؤاخذة ، نايف لبس قندرتى .. تأمل ، رجل وامرأة على قندرة واحدة !

وضحك أبو رزوق وقال :

ـ ولك يا مريم لا تستغربى ، أعرف سبعة أخوة على سروال واحد يلبسونه بالتناوب ، ومن يسبق الى النهوض ، يسبق الى لبسه ، وكان الراغب فى ارتدائه ينام بعين واحدة طول الليل .

قالت مريم :

ـ كذب ..

ـ أقسم لك بشرفى ..

فصاح صقر :

ـ فى اى زمن هذا ؟

واجاب الصفتلى :

ـ طبعا ليس فى زمن سيدنا نوح ..

ثم توجه اليهم بالكلام :

ـ وأنت ، اشتريت كازاتك ؟

قال صقر :

ـ أنا خالص من هذا البلاء .

وكان صقر خالصا فعلا ، فمنذ هبط وامه المدينة لم يشتريا قنديلا ، ولا أشعلا ضوءا ، وقد فتحت أمه النائمة قربه عينيها ، فتطلعت الى ما حولها ، وحين اطمأنت الى بقاء صقر فى موضعه من العتبة ، عادت فأغمضت عينيها .. ونامت !

اما مريم السودا فقد وضعت قبقابها في رجليها ومضت ، تعرج ، وتسرع لتلحق الصفتلى الذى اتجه نحو السوق ، وحين حاذته سألها :

ـ ما عاد فارس للبيت ؟

ـ لا ..

وتريث لحظة ، انتقل بعدها الى السؤال الذى يعنيه من الحديث قال :

ـ والقندلفت ؟ .

ـ رأيته ..

ـ هل كانت معه امرأة ؟

ـ كانت ..

فتوقف الصفتلى ، وقد بدا الاهتمام على وجهه ، ثم سأل :

ـ ماذا تلبس ؟

ـ أسود ..

وهز رأسه ، واستأنف السير وهو يفكر ، ثم قال فى نفسه .

ـ لحقها ..

ـ من هى التى لحقها ؟

ـ ومن تظنين انت ؟

ـ طبعا ليست امرأته ..

فضحك الصفتلى وقال :

ـ ولا أمه أيضا ، لعنة الله عليك ، عملها في لحيتي ، عملها ابن الكلب .

وقاطعته مريم فجأة :

ـ هس .. اسكت .. ها هو ..

ونظر الصفتلي فرأى القندلفت على الرصيف المقابل ، لكنه لم يلحظ الا قفاه ، فقد انعطف فى الزقاق ومضى .

قال :

ـ معه امرأة ؟ .

ولم تكن مريم السودا قد رأت أحدا ، لكنها قالت مؤكدة :

ـ نعم .. معه امرأة تلبس السواد .. من هى يا ترى ؟

وفكر الصفتلي مليا : ربما كان القندلفت ذاهبا الى البرية او أحد البيوت ، وهذه المرأة السافلة ، ماذا تفعل معه ؟ لا شك انهما اتفقا ! . ذلك واضح !!

واذ تمثل المرأة الصبية في وضع مريب ، تنضو عنها ثيابها السوداء ، ثياب الحداد ، وتبرز مفاتنها : ساعديها العاريين ، ونهديها ، وعنقها ، وركبتيها ، واستدارة فخذيها ، وتبدو عريانة كحواء عندما أكلت التفاحة ، تراخت أعصابه ، وشعر بلهيب الفريزة يشوى جسمه الفانى ، وانقلبت سحنته وتدلى لسانه ككلب متعب ، ومن عينيه الصغيرتين كثقبى زمر ، سالت نظرات قذرة ، فعزم على اللحاق بالقندلفت ولو الى آخر الأرض ، ولكنه سأل مريم السودا قبل أن يفعل :

ـ متأكدة انت من وجود امرأة معه ؟

قالت مريم :

ـ هل أكذب عينى ؟

ـ اذن خذى ..

ناولها زجاجته الفارغة ، ثم تركها واسرع يدور فى المنعطف ، وقبل أن يتوارى قال لها :

ـ سأعود بعد قليل ، لا تأخذى حصتك وتنسينى ..

واجابته مريم :

ـ اطمئن ، رح وارجع ، أنا بانتظارك امام الدكان .

وراح ابو رزوق مهرولا لا يلوى على شىء ..

كان الزحام شديدا ، وثمة عشرون امرأة ، وبضعـــة رجال وعدة صبيان يتدافعون على الباب ، وبائع الكاز يصيح من الداخل :

ـ لا تقربوا من الحريم يا شباب ، عيب ، بالدور ، لا اعطى الا بالدور .

ولم يكن هناك مجال لأى دور . كانوا يتدافعون لوجه المدافعة احيانا ، والنساء يلتففن فى ملاياتهن السود ، ويصحن بالرجال :

ـ استحوا ..

وبين النساء امرأة لا تفتأ تتوسل :

ـ كرامة للنبى ، يا عبد الصمد ، كرامة للنبى ..

وكانت عشرون أو ثلاثون يدا ترتفع ، دفعة واحدة ، بزجاجات فارغة من جميع الالوان والأحجـام ، والبـائع يقف فى واجهة

دكانه المغلقة كلها ، الا مصراعا واحدا ، فيتناول الزجاجة التى يريد ، فى الوقت الذى يريد ، ويعطيها الى غلام فى الداخل . ويصيح :

ـ ليتر ، نصف ليتر ، ٢٠٠ غرام ، ١٠٠ غرام ..

فاذا امتلأت الزجاجة ، اعادها الى صاحبها . وقد كانت اعادة الزجاجة مليئة أصعب من اخذها فارغة . وكان عبد الصمد يصيح ويشتم ، ويتشبث بالزجاجة الممادة حتى يتيقن أنها اصبحت فى يد صاحبتها او صاحبها ، وعندئذ يتركها ليمسك غيرها .

ويصدف ان تتمسك بالزجاجة عدة أيدى ، كل تشد بها الى جهة ، هذه تصرخ زجاجتى ، وتلك تصرخ زجاجتى ، والبائع حائر الى من يدعها ، حتى اذا غفل طرفة عين تخاطفت الأيدى الزجاجة ، فأمسكت يد بعنقها ، وامسكت أخرى بعنقها ، وتماسكت أياد اخرى بما سنح منها ، والزجاجة التى كانت قائمة منتصبة بيد البائع ، أصبحت متمددة فى أيدى الناس ، ينساح كازها فوق الرؤوس ، وينسكب على الوجوه والشعور ، والملايات والسراويل .. وعندئذ يعلو الصراخ كالعواء ، وتتصادم الزجاجات فتتكسر وتتناثر ، وتنظر هذه فلا ترى فى يدها من زجاجتها سوى العنق ، ويتطلع ذاك فلا يرى من زجاجته سوى العقب ، والكاز الذى ألهبته الشمس يحرق الأجسام ، ويبلل الثياب ويتفشى بقعا كبيرة تنبعث منها رائحة خانقة ، وقد تخدش الشظايا الوجوه او الأيدى ، فتسيل الدماء وتلوث المتزاحمين .

ويحدث فى غمرة هذه البلبلة وهذا الزحام ، أن يثور رجل على الكاز وعبد الصمد والحياة ، فيمسك بالزجاجة ويضرب بها وجه الحائط ، وعندئذ يدوى صوت يجمع أهل السوق ، ويخرج

الناس من حوانيتهم ليروا ما حدث ، وقد تختلف امرأتان فتتشاتمان وتتماسكان بالشعور ، ثم تتعاركان وتتصايحان صياحا معربدا ، يتوقف له المارة ويتجمع الصبية ويخرج زبائن الحلاقين والصابون على ذقونهم .

وقد كان فارس اليوم ، خلال ساعة أو أكثر أو أقل ، يستطيع أن يأخذ حصته من الكاز ، الا انه ظل بضع ساعات ، يصيح ويزعق وينتهر النساء ، ويساعد عبد الصمد في استلام الزجاجات وتسليمها ، كأنه استوى على راس عمل عظيم .

انه يسر بهذا التدافع والزحام وهذه الضوضاء ، لكنه في سروره يبتئس اذ يتصور أن أمه ، لولاه ، لكانت تتدافع مثل هاته النسوة ، أو أن أباه كان يتوسل مثل هؤلاء الرجال ، فتطوف على محياه مسحة من ألم ، وتطن في اذنيه كلمة والده :

ـ الحرب ! .

ومن خلال هذه الجلبة التي تصدع الرأس ، وعشرات الألسن المنطلقة في تيار أهوج من كلمات التوسل والتبرم ، بلغ مسامع فارس صوت مريم السودا من وراء الناس . كانت تشرئب بعنقها القصير ، واقفة على رأس أصابع رجليها ، فوق قبقابها الذي كادت تفقده في الزحام ، وتصرخ وقد غاصت بين الأجسام ، توشك أن تختنق ، وعيناها تبعثان بريقا غضوبا ، وفمها ينطلق في سباب داعر .

كانت تستطيع دون أن تشعر بأي حرج ، الدخول في شجار مع أي كان ، حتى مع السماء .. هكذا قالت ذات يوم . الا أنها قليلا ما كانت تفعل ذلك اذا لم تثر ، فاذا استفزتها امرأة

وعاركتها ، انقلبت الى قطة متنمرة ، سلاحها أظافرها وأسنانها .. ولسانها !

وقد زاد فى حنقها هذا اليوم ، أن الصفتلى اثقلها بحمل على حمل وهى لن تتراجع قبل أن تأخذ حصتها وحصته ، فالبطاقتان فى يدها ، والزجاجتان معها ، وكان شـعارها فى مثل هـذه الأوقات : « من سار على الدرب وصل » ، وهى على بعد ، على ثقة انها ستصل . « العمى ! أعود خالية بعد هذا الانتظار ؟ » .

كان قد مضى أربع ساعات فى تدافع وشتائم وصياح ، ومريم تتقدم حتى لتكاد تصبح آمام الباب ، ثم فجأة تجد نفسها فى المؤخرة .

لهذا قال لها فارس وهما عائدان بعدما أخذا حصتهما :

ـ لولاى ..

فقاطعته : .

ـ اسكت يا عكروت أنت ، سـترى ، سأقول لوالدتك كل شيء ..

وكان فارس موقنا انها لن تقول شيئا ، فهو لم يفعل ما يخاف على نفسه منه ، ولم تكن مريم السودا ، الطيبة ، تشى به ، حتى لو اقترف ذنبا حقيقيا ، فهى تحبه وهو يعرف ذلك جيدا ، انما سألها :

ـ وماذا فعلت ؟

ـ ماذا ؟ اتسال أيضا ؟

فتجرأ فارس عليها وكرر سؤاله :

ـ أى ، ماذا ؟

قالت :

ـ كنت طوال الوقت لا تلتفت الى ، كنت مشغولا بالصبايا يا منحوس ..

احمر وجه فارس احمرارا ظاهرا ، فللمرة الأولى يسمع ملاحظة صريحة على هذا النحو ، وقد سأل نفسه :

ـ « احقا كنت أفعل ذلك ؟ » .

ولاحظ انه كان يفعل ذلك حقا ، بدافع خفى لم يكن يعيه ، ومع ذلك دافع عن نفسه :

ـ انت غلطانة .

واجابته مريم :

ـ انا ؟

كانت ، لطول خبرتها بالرجال ، لا تفوتها من حركاتهم حركة ، لكنها لم يكن يهمها شيء من تلك الحركات ، ولم تكن فى أعماقها تحمل حقدا ولا عداء للآخرين ، وهى معجبة ، أكثر من كل ما جاء فى الانجيل ، بكلمات المسيح هذه « من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر » . ورغم أن الناس رجموها فلم ترجم أحدا ، انما كانت تقول :

ـ ليس من عود بلا دخان .

فيغمز أبو فارس بعينه :

ـ سنحرق هذا العود لنرى دخانه..

فتضحك وهى تسحب علبة تبغه ؟

ـ باطل أبو فارس ، انت ؟

كانت تعزه وتحترمه ، وهى تعز فارسا وتحبه لذلك ، ولأنها ، من وجهة اخرى ، لم تلد أولادا . أما فارس فقد ظل يحاول نفى ما قام فى ذهنها ، وهى تتشبث بملاحظتها حتى اشفقت عليه فقالت :

ـ العمى ، انا امزح معك ، ومن أنت حتى تلتفت النساء اليك ؟ أنت صبى .. ومفلس ، ما شاء الله !

أجاب فارس :

ـ أنا لست صبيا !

ورغم ذلك اغتم ، وانطفأت الفرحة التى استشعرها فى الزحام .. وتساءل فى ذات نفسه : « هل تقول مريم هذا الكلام عنى امام رنده أيضا ! »

وسألته مريم :

ـ ما رايك اذا اخفينا زجاجة الكاز عن الصفتلى وعذبناه ؟

ـ رأيى ؟ عظيم .. لكن أين الصفتلى ؟

ـ ذهب وراء القندلفت ..

ـ لماذا ؟ .

ـ هكذا ..

وعاد يسأل :

ـ الا تعرفين ؟

وقالت مازحة :

ـ ذهبا ليقرآ فى الانجيل !

ثم ابتسمت بغير ارادتها لهذا الجواب ، وقد تمثلت الصفتلى يلوب وراء القندلفت ، وأمامهما تلك المرأة التى قيل لها أنها سوداء الثياب .

وتذكر فارس زوج صاحب المتجر .. خيل اليه أن هناك تشابها بالنظرات بينها وبين الأرمل التى رآها فى دكان المختار . وقال فى نفسه : « كانت عيناها ، من بين الدموع ، تلتمع .. وقد شدت على يدى وقالت : « لا تنقطع عنى ! » وارتسمت ، من ثم ، فى خياله صدور ثلاثة : صدر زوج صاحب المتجر ، والأرمل ، ورنده ، ورغب فى أن يلحق بالصفتلى بحثا عن الأرمل والقندلفت ، أو يذهب لتفقد زوج صاحب المتجر ، ورؤية التماعة عينيها الجميلتين » .

***

طفق الصفتلى يلاحق الأرمل والقندلفت ، وبعد ان سار قليلا فى ذلك الزقاق الضيق ، استلفت نظره بائع سمك متجول ، كان يحمل فى يده سلة كبيرة ملأى ، وقد تفرس فيه الصفتلى جيدا ليعرف ما اذا كان صيادا ، أم بائعا متكسبا ، ثم القى نظرة فاحصة على السمكات ليعرف ما اذا كان صيدها بالصنارة أم بالشبكة .

كان الصفتلى مهووسا بالصيد ، وكان يحزنه أكثر ما يحزنه ، ان يرى اكوام السمك فوق العربات الجوالة ، فاذا صادف ورآها اقترب منها ومد يده فقلب سمكة أو اثنتين ، ثم هز رأسه ولعن

زوارق الصيد والساعة التى جاءت فيها الى البلدة ، والقرد الذى اخترعها .

ــ هذا الايطالى اللعين ..

كان العداء مستحكما بين الصيادين والزوارق التى قضت على رزقهم ، وجعلت الصنارة والشبكة ، هاتين الوسيلتين البدائيتين للصيد ، تصبحان من العاديات لا خير فيهما ولا نفع ، ذلك أن الزوارق تكنس البحر من الصباح الى المساء ، واذا بقى للصنارة والشبكة شيء ، فان ما يدفع فيه من سعر لا يطعم خبزا ولا يسد حاجة ، والناس ، ولهم كل الحق ، يفضلون السمك الرخيص ، ذلك الذى تصطاده الزوارق بالجملة ، وتبيعه بسعر الجملة .

وكان الصيادون يشيعون ان سمك الزوارق يفقد نكهته فى الطعام ، وكانوا يقولون انه غير طازج ، لكن دعايتهم البائسة هذه لم تغن عنهم شيئا ، فاقترح أحدهم أن يذهبوا فى الليل ويثقبوا الزوارق ، لكن صيادا عجوزا شجب هذه الفكرة وقال :

ــ الزوارق لا يمكن ثقبها بالسهولة التى تتصورون ، وأصحابها يصلحونها بسرعة اذا ثقبناها ، وحتى اذا غرقت ــ وهذه فرضية غير واردة اطلاقا ــ ابتاعوا غيرها دون تأخير .

قالوا :

ــ وماذا نفعل اذن ؟

ــ نقدم عريضة احتجاج ؟

وقدموا العريضة .. وعندما وصلت الى رئيس البلدية استدعاهم ووبخهم :

ـ الى اى عهد تريدون ارجاعنا ؟

كان كلام رئيس البلدية منطقيا ومعقولا ، فهذه سنة التطور ، الا أن الصيادين كانوا منطقيين حين عرضوا عليه فى المقابل أن يشغلهم الايطالى ، صاحب زوارق الصيد .

ووافق الايطالى على تشغيل اثنين أو ثلاثة .. أما الباقون ؟ كان بين أمرين : اما أن يتخلى عن الاستثمار فيشغلهم ، ويقاسمهم الأرباح ، أو أن يستمر فى استثماره ، ويتخلى عنهم ، وهذا ما كان ، وتركهم دون عمل ولا رزق .

هذه الخواطر مرت برأس الصفتلى بسرعة البرق ، وحين تنبه الى نفسه كان القندلفت قد اختفى عن ناظريه ، فتقدم حتى آخر الزقاق ، ثم رجع ادراجه دون أن يعثر على اثر . لكنه قرر أن يظل لاطيا فى نهاية الزقاق ، فلبس من منفذ للحارة ، وليس للقندلفتوصاحبته من سبيل الى الفرار ، ولابد أن يمسكه مسك اليد .

كان مهتاجا ، وقد أمده عقله بكثير من المبررات لفعلته تلك ، فهو متحمس ، مستثار ، لكنه مقتنع أن ما يفعله ضرورى وعمل شريف ، فالقندلفت خادم الكنيسة وعمله الشائن لابد أن يمس سمعة الطائفة ، وهو اذن لا يراقبه من أجل نفسه ، ابدا ، تلك غيرته على الطائفة »

لطى ساعة وبعض الساعة ، وفى الوقت الذى مل فيه تمثيل هذا الدور غير اللائق (هكذا شعر فى اللحظة الأخيرة) برز فجأة ، أمامه بشارة القندلفت .

كانت حماسته للفضيلة قد فترت نوعا ما ، الا أنه ما كاد يبصر القندلفت حتي بوغت بشكل فقد معه توازانه المنطقى .

كانت نفسه قد حدثته ، ولا يدرى كيف ولماذا ، بانه لن يرى القندلفت ولا صاحبته ، وقد أسف لذلك أسفا غير قليل ، ونهشته غيرة لا تمت الى الفضيلة بسبب ، غيرة انسان حسود وشهوانى ، وها هو ، من حيث لم يكن يحسب ، يلتقى به وجها لوجه ٠

نهض واقفا وراح يفرك يديه ، وحدق فى وجه القندلفت وهو لا يستطيع تحديد شعوره بالضبط ، أيشتمه أم يعتذر اليه ؟ أيسأله عن المرأة التى معه أم ينتحل حجة لوجوده فى هذا المكان ، وعلى هذه الحالة المريبة ؟

سأله القندلفت :

ـ ماذا بك يا أبا رزوق ؟

قال :

ـ لا شىء ٠٠

ثم حول بصره الى المرأة ، وانطلقت صيحتان فى وقت واحد : أحدهما أطلقها القندلفت وهو يضحك ، والأخرى أطلقها الصفتلى وهو يقول :

ـ يخرب بيتك يا مريم السودا ٠٠

كانت المرأة ، التى مع القندلفت ، راهبة عجوزا ذات وجه صدىء ، وشارب أسود ، وجسم كروى ضخم تحمله ساقان قصيرتان ، هبطت المدينة ، تجمع التبرعات للدير ، والتمست من المطران أن يرسل معها من يعينها فى مهمتها ، فكلف القندلفت بمرافقتها ٠

كان معقولا أن يفعل كل شىء الا أن يضحك : لكنه بمرارة لا حد لها وسخرية قاسية من نفسه ، ابتسم ابتسامة صفراء ،

وترك المكان وهرول الى مريم السودا ليأخذ منها زجاجة الكاز ، ويحاسبها على فعلتها معه ٠

وقد ارادت مريم السودا أن تخفى الزجاجة عنه ، فزعمت له أنها سقطت فتحطمت ، واتكأت على الباب من الداخل وهى تخبئها وراء ظهرها ، وظل الصفتلى واقفا في الخارج يسأل عن زجاجته ، وأراد صقر مداعبتها فقذفتها من أرض الدار بحصاة جاءت على مصراع الباب الخشبى واحدثت قرقعة مفاجئة ، جعلت مريم تجفل وتضطرب ، فتسقط الزجاجة من يدها وتتحطم فعلا هذه المرة ٠٠

سال الكاز على الأرض ناشرا رائحة حادة ، وضرب الصفتلى كفا بكف ووقفت مريم مذعورة فاغرة الفم ، وقد ندت عنها صيحة أسى وندم ، بينما انطلق صقر فى ضحك كظيم ، يخاف أن ينفجر ، فتسمعه مريم وتقع بينهما الواقعة ٠

٨

فى تلك الليلة حدث حادث لم يكن فى الحسبان ٠٠٠

كانت البلدية قد اذاعت تعليمات توجيهية الى السكان ، ترشدهم فيها الى أساليب الرقاية من الغارات الجوية ٠ وقد اشتملت هذه التعليمات على أوصاف زمور الخطر وعددت الصفرات التى يطلقها عند بدء الغارة وعند نهايتها ، وأوصت بالاسراع الى الاقبية والملاجىء ، وتهيئة أكياس الرمل ووضعها أمام النوافذ وفى صحون الدور لاخماد الحرائق ، وأقامت فى كل حى فرعا للدفاع السلبي برئاسة مختار ، وقد اتخذ جريس منذ اليوم الأول لصدور

هذه التعليمات صفة الضابط بكل صلاحياتها ، باعتباره مسؤولا عن سلامة الأرواح !

وتنفيذا لتعليمات البلدية انتقى عشرة من شباب الحى ، واتى لكل منهم بقماشة نقشت عليها هذه العبارة « حملة المحـــامل » وفوقها شارة الصليب الأحمر. كما استحضر صندوقة خشبية ،كتب عليها كلمة « اسعاف » زعم انها ستضم الاسعافات الأولية ، لكنها مع ذلك ظلت فارغة ، الا من فتيلة قطن كالاصبع اشتراها المكلف بالصندوقة ، لكى يرضى غروره أو يتلمس سببا لحملها والركض بها وراء « حملة المحامل » فى الليل البهيم .

وطاف جريس المختار على الحى ، وبرفقته أعضـــاء الهيئـة الاختيارية ووراءهم يهرول بشارة القندلفت ، فتفقد البيوت وأوصى بكتابة كلمةملجأ بالصباغ الأحمر علىعدد منها ، وهدد أصحابها بفتح الأبواب حين الغـارات والا تعرضوا للعقوبات المنصوص عليهـــا فى القانون . ومن ثم ذهب الى مقهى الشـــاروخ فتصدر الرصيف ، وحوله الهيئة الاختيارية جلوسا و« حملة المحامل »وقوفا ،وغمزحامل صندوقة الاسعاف بطرف عينه ، وقيل أن اتفاقا سابقا كان بينهما ، فذهب رجل الاسعاف واحضر مصورا شمسيا فالتقط لهم صورة تذكارية ، وقد حرص الشاروخ وبشارة القندلفت ، وفارس (الذى كان يطمع فى أن يصبح من « حملة المحامل » ذات يوم) علىالظهور فيها بأى شكل كان .

كما أن المختار ، فى اندفاعة من اندفاعات الحماســة ، تذكر أنه خدم فى الجيش العثمانى ، وزعم فيما زعم أنه توصل الى رتبــة وكيل ضابط ، وقد رأى أن الوقت الذى طالما تمناه لاظهار نبوغه الحربى قد ازف ، لهذا كله ، وبعد أن صرف ليله فى اعداد القواعد والأصول ، جمع « حملة المحامل » وأبلغهم أنه سيدربهم تدريبـــا عسكريا

الا أن رئيس البلدية ــ وقد جن المختار ليعرف من أوصل اليه النبأ ــ استدعاه وأبلغه ضرورة صرف النظر عن الموضوع ، مقدرا له جهوده والخدمات الجليلة التى ينوى تقديمها ، وقد اعتبر المختار ــ وكانت تكفيه الاشارة ــ ان الموضوع منته عند هذا الحد ، خاصة وان ظروف الحرب وما ولدته من أعمال فى سبيل تنظيم الاعاشة وما تجره هذه من فوائد قد الهته عن كل ما عداها .

وكان السكان من جهتهم ، قد تفننوا فى ابتداع أساليب الوقاية من الغارات ، فبعضهم قال ان الوسيلة الوحيدة هى الاسراع الى الملاجىء ، وقال آخرون ان الاستلقاء على الوجه ، كما يفعل الجنود ، أفضل . وقال غيرهم : بل الوقوف بين زاويتين أو تحت العقود فى الأبنية المتينة أسلم .. لكن خطرا مداهما لم يكن بالحسبان أخافهم أشد الخوف ، وروعهم أشد الترويع ، ذلك هو الغاز السام .

كان يتحدثون عن الأقنعة الواقية بلهجة التمنى الأسيف ، ويقولون :

ــ من يحصل على واحدة منها ينجو!

ــ أما الأغنياء فيحصلون .. ما هو ثمن القناع ؟

ــ ثمنه ؟ الله أعلم ، الفقراء يجب ألا يفكروا فى الموضوع ...

قال أبو فارس ساخرا :

ــ الحرب لا تعرف أغنياء وفقراء ، حين تهوى القنبلة ، هادرة كالرعد ، لا تفرق بين قصر وكوخ ...

فصاحت النساء :

ــ ياحفيظ » ...

وقال صقر : ــ يا محمد »

وتلاقت نظرات الجميع فى رعب شديد وشاعت فى الجو سحابة

من رهبة الموت ، كأن الغارة التى يتحدثون عنها قد وقعت فعلا ، وان الخرائب والاشلاء تطالعهم فى كل صوب ٠

منذ ذلك الحين طفق القلق يشل أعمال الناس ويحطم أعصابهم٠ وكثيرا ما قطعوا حديثهم وأنصتوا الى صفير عابر ، وكل منهم يمد يده الى حذائه ، حتى اذا تبينوا الصوت اطمأنوا ، فاستأنفوا ما كانوا فيه من حديث ٠٠٠

واتفق ذات ليلة أن علق زمور سيارة فاندفع فى صفير متصل ، حسبه الناس صفير الانذار فهبوا يتصايحون ، وهرع بعضهم بألبسة النوم الى الملاجىء ، وركض المختـــار بالسروال الداخلى القصير ووراءه حملة المحامل فى شبه ذعر ٠

ولم يخطر على بال أحد أن ما سمعه ليس انذار الخطر ، بـل وضعوا ايديهم على رؤوسهم لاتقاء الغارة ، وفروا فى اتجـــاهات متعاكسة يتدافعون على أبواب الملاجىء وكان الليل شديد الحلكة ، والظلمة مطبقة فاصطدمت الاجسام ،وتباكى الأطفال ،وتمتمت الشفاه بالدعاء لله ، ثم اتضح كل شىء ، فعاد الناس الى بيوتهم يضحكون ويلعنون ٠٠

***

لهذا استقبلت شارة الخطر هذه الليلة بنوع من تساؤل يخالطه الهزء : هل من سيارة أخرى ؟

وانصت الناس فى وجوم خلال ثوان قليلة ٠٠

كانت صفارة الخطر تزأر زئيرا حادا ، ثم اطفئت الانوار فغمرت المدينة ظلمة شاملة وتراكض الناس فى ذعر شديد ، يحملون الرضع ويجرون الأطفال ، واندفعوا نحو الملاجىء واصوات الدعاء تنبعث من شفاههم التى ايبسها الخوف ، وصرخات الصغار تختلط بولولات

الكبار ، وتخترق ظلمات الليل ، فتولد ذعرا لا حد له ولا وصف ، والحراس يصيحون بهم :

ـ ادخلوا بيوتكم يا ...

أو يهدئون روعهم ، ويرشدونهم قائلين :

ـ لا تخافوا ، من هنا ، من هنا ....

والناس يسرعون ، واذ يتعثرون ويقعون ، يبكى الأطفال بكاء أشبه بالصراخ ، فلا يجد الحراس بدا من اطلاق صفاراتهم ، فتسرى أصواتها رعشات باردة فى الاجساد ، بينما هدير الطائرات يجلجل كالغضب فى الجو ، ومن الأرض تندفع قذائف المدافع المضادة ، وطلقات الرشاشات التى لا تحصى ... وفى السماء تلتمع القنابل وهى تهوى كالصواعق يسبقها صفيرها الحاد .

بعد ربع ساعة هدأ كل شيء ، ومن أول الشارع هرع جريس المختار صائحا ساخطا ، طالبا من الناس الرجوع الى الأقبية ، لآن الغارات لم تنته .

وتراكض « حملة المحامل » خلفه ، وراح حامل صندوقة الاسعاف يهرول عن جانبيه ، وخرج بشارة القندلفت بالمنامة يسأل أين أصابت القنابل ، وأطل أبو رزوق برأسه فالفى الناس يخرجون وحينئذ غامر وخرج ،وتبعه عازار الاسكافى وفارس ومريم السودا، ثم اندلقت احشاء المنازل فى الشارع ، وظلت أم صقر ممسكة بابنها كى لا يغادر مكانه من الملجأ . ومن أقصى الشارع بدت غمامة سوداء تتحرك ببطء فى عرض الطريق .

خيل الى الناس أنها نعش مما يحمله « المحامل » ، ولكنها ظهرت أكبر من النعش وأكثر استدارة منه . وقال قائل انها بالون من الغاز السام ألقته المظلات ، وقال آخر انهم الجان ، وازدادت الأقوال والمخاوف .. ولما كان لا بد لهذه المهزلة التى لا تليق بالمختار

و « حملة المحامل » من نهاية ، فقد أمر الحارس أن يشهر مسدسه ويتقدم من الغمامة ، واستجمع شجاعته وسار وراءه ، وكذلك فعل « حملة المحامل » ، وامسك الباقون قلوبهم بأيديهم وظلوا هكذا يحيطون بها ويضيقون عليها حتى اقتربوا منها ، واذ ذاك صاح المختار (وكان ابنه قد حمل اليه بنطلونه فارتداه) ٠

ـ النار ٠٠

واطلق الحارس رصاصة فى الفضاء ، وهجم دفعة واحدة بضعة رجال على الغمامة وشدوا بها من كل ناحية ، وتفجرت فى اللحظة ذاتها عاصفة من الضحك فى الصدور ، لم يقووا على دفعها ولا امساكها ٠٠ ذلك أن الغمامة لم تكن سوى لحاف كبير يقطر ماء ، وكان تحت اللحاف عبد المقصود أفندى أحد أثرياء الحى وزوجته وطفلاه ، يتلفعون جميعا بمناشف مبتلة يعصبون بها أنوفهم وأفواههم فلما سحب الحارس اللحاف عنهم فجأة ، ظنوا أن الغاز قد داهمتهم فذعروا ، وسقط بعضهم على الأرض ٠

وما ان تذكر عبد المقصود انه يحمل بعضا من أمواله فى جيوبه خوفا عليها من اللصوص أو الضياع تحت الانقاض ، حتى هب واقفا وصاح بصوت ممطوط خنقه الخوف :

ـ يا ٠٠٠ نا ٠٠٠ س ! ٠٠٠

وأجابه الذين تجمعوا حوله بأصوات مماثلة :

ـ اي ٠٠٠ ش ؟ ٠٠

واستوت زوجه واقفة فى وسط دائرة من العيون المحدقة بها ، لكنها لم تشأ أن تزيح العصابة المبللة عن أنفها وفمها ، أما طفلاها فقد انطلقا يزعقان ويبكيان ، بينما اللحاف الناضح ماء يتكور على كتف الحارس والمختار الذى أقبل مهرولا يصيح :

ـ أرجعوا يا شباب ، أرجعوا يا هو ، « حملة المحامل » الى وراء ... اسعاف الى أمام ... عبد المقصود أفندى الى الرصيف ، الغارة لم تنته .. لم ت ..ن .. ته .. لم ت .. ن .. ت ..ه لم تن .. ت

ومن بعيد ، من فوق بناية البلدية العالية ، انطلقت صفارة الأمان ترسل زعقاتها المتثائبة ، معلنة انتهاء الغارة وزوال الخطر ، وفى نفس اللحظة أضيئت المصابيح الزرق ، وأفرزت الملاجىء ما فى أمعائها فعج الشارع بالمخلوقات ، وقفز الأولاد يصيحون ويصخبون، وهرولت النساء من كل صوب ، وانسحب عبد المقصود وزوجه وابنته وابنـة الى منزلهم ، والحارس يركض وراءهم باللحاف حينئذ فقط سمح المختار لنفسه باشعال سيكارة والتفت الى « حملة المحامل » ورجل الأسعاف فقال : عافاكم الله ، لقد ابليتم أحسن البلاء ، والله لو كان عندى جيش من نمرتكم ..

وهنا ضحك حملة المحامل (وقد اعتبروا أقوال المختار نكتة الموسم) والقوا المحمل على الرصيف واشعلوا لفافاتهم ، وقد ركبهم زهو غير قليل ، بينما وقف فارس يرنو اليهم وقد داخله لمرآهم حسد فتساءل :

ـ متى اصبح من هؤلاء ؟

اما أبو فارس فكان الشخص الوحيد الذى لم يبرح صحن الدار ، ظل يدخن على المصطبة ، وقد اجتمع حوله بعض الرجال والنساء ، يتحدثون عن الغارة وعبد المقصود وجريس المختار وحملة المحامل والحرب ..

سأل صقر :

ـ اتطول هذه الحالة ؟

ـ من يدرى ..

قالها عازار الاسكافى وهو ينفخ كالثور .. ثم أضاف :

ـ هذه حرب ...

فقاطعه أبو فارس ، هازا رأسه ، رصينا مشفقا كأن على صدره قد جثم جبل من هم :

الحرب ؟ لا .. الحرب لم تأت بعد ..

والتفت الى فارس الذى تكور عند زاوية المصطبة ، قرب الجدار ، وسأله :

ـ أين بطاقة الخبز ؟ ..

ثم قال كأنه ادرك الجواب :

ـ لم تأخذها ؟ طيب ، المختار يكذب ، أعرف ذلك ، اذن فانهض باكرا لابتياع الخبز ، قضت والدتك ثلاث ساعات أمس وهى مصلوبة على باب الفرن ..

ثم نزل عن المصطبة وقال لمن حوله :

ـ قوموا الى بيوتكم ، راح يطلع الصبح .

ومضى منتصف القامة ، وئيد الخطى ، هادئا ، كانه قد نسى ما وقع منذ قليل ..

***

وعاد الشارع فاقفر من جديد .. دخل كل بيته ، ولم يبق الا المصابيح الزرق ناعسة واهنة الضوء ، ونباح كلاب روعت فانطلقت من كل صوب ، وقد لف الظلام المدينة ، بعد أن حجبت سحب الخريف وجه السماء ، واطفأت قناديل النجوم ، ولطمت رياح باردة مصاريع النوافذ المفتوحة منذرة بالمطر القريب .

ومكث الحارس الليل بكامله يفكر بعبد المقصود ولحافه ، ويسر فى نفسه ضاحكا :

ـ يا له من أبله ، لو اطلقت عليه النار ؟ من قال له أن اللحاف المبلل يمنع الغاز ؟ جبان ! يخاف الموت مثل النسوان !

***

وحين تسامع الناس بالقصة فى اليوم التالى ، قال محمد الحلبى :

ـ لو فطس عبد المقصود لخسرت زبونا لا يعوض .

وقال مدينوه :

ـ يا ليته فطس ... اللهم خذه وارحنا يا ارحم الراحمين !

لكن الله لم يأخذ عبد المقصود ، ولم يرح مدينيه ، ظل حيا معافى ، وظلت زوجه تتضخم حتى غدت كبرميل ، وكان ينظر اليها ويتلمظ :

ـ هذا الجمال النادر ، اذا لم تكن المرأة وسادة لحم فلماذا هى امرأة ؟

فيقول المدينون :

ـ اللهم خذه وخذها ...

ومع ذلك لم يأخذهما ، فقال أبو فارس هازئا بالمدينين :

ـ عبد المقصود ورقة فى شجرة والمهم اقتلاع الشجرة .

فقال المدينون :

ـ ومن يقتلعها يا ميخائيل ؟

ـ الذى زرعها .. نحن .

فابتسم الصفتلى مرتاحا ، وقد فهم الموضوع على الأساس التالى :

ـ اذا كان لا بد من قلعها فاتركوا الأمر لى .. الست حطابا ابن حطاب ؟

وقال محمد الحلبى :

ـ اليد لا تصفق وحدها ، تذكر هذا يا ابا رزوق .

فرد الصفتلى مدافعا عن مكانة مهنته :

ـ هذا صحيح ، لكن اللحام لا يصبح حطابا ..

وهنا تدخل أبو فارس فانهى الخلاف بهذا الحل الوسط

ـ لابد من تعاوننا جميعا .

قال نايف الفحل :

ـ وحتى النسوان فينا ؟

فتطلعت مريم السودا اليه وقالت مستعدة للعراك :

ـ نعم حتى النسوان .

وتكلم عازار الاسكافى لأول مرة فى هذا الموضوع فقال :

ـ لا عنتر بلا عبلة .

وضحك أبو فارس قائلا :

ـ اذا اعتبرنا نايف عنتر .. فمن هى عبلاه ؟

فمدت مريم السودا يدا كالمخلب الى علبة التبع ، ودقت باليد الأخرى على صدرها وقالت :

ـ أنا .. كونوا مبسوطين !

٩

كانت قصة عبد المقصود كفيلة بأن تضحك الحى شهرا كاملا ، وان تصبح مادة للتندر فى جميع أوقات الفراغ . الا أن حادثة جديدة وقعت دون انتظار ، شغلت الجميع بأنبائها الأليمة .

فبعد ان فقد الطحين والقمح من الأسواق ، اشتد طلب الناس للخبز ، وأصبح الحصول عليه أصعب من الحصول على اعز الأشياء . ومع انه أصبح مزيجا من النخالة ونشارة الخشب والزوان ، فان الناس كانوا يتزاحمون عليه خلال ساعات طويلة من النهار .

ولكى يجنب أبو فارس زوجته مغبة الانتظار الطويل أمام الأفران ، عهد الى ابنه بابتياع الخبز ، وجعل هذه المهمة كل شغله اليومى ، وقد قام فارس ، خلال شهر وبعض الشهر بالمهمةالموكلة اليه على أحسن وجه ، لكن حادثا وقع بعد ذلك غير مجرى الحياة فى هذه الأسرة البسيطة .

أفاق فارس ذات صباح ، متأخرا قليلا ، وحين فتح عينيه تذكر أول ما تذكر أن الخبز سيكون قليلا هذا اليوم ، لأن الأفران لم تستلم الا كميات قليلة من الطحين أمس .

تقلب من جنب الى جنب ، وتمطى وتثاءب ، ثم تكور فى فراشه وهمد .

كان النوم ما يزال عالقا بجفنيه ، وقد ود أن ينام دقائق أخرى الا أن والده صاح به :

ـ قم يا فارس ..

وقالت والدته :

ـ اشتر الخبز ونم .. المهم ان تصل قبل غيرك الى الفرن ..

كان الفجر الخريفى ما يزال يمعن فى تشقيق ثوب الليل ، والديكة تصيح فى الحديقة المجاورة ، فترسم خطا جديدا فى لوحة الصباح المتبلج عن اشراقة النور ، وكانت صيحاتها أولى نداءات اليقظة ، يردفها صوت المؤذن فى ندائه الأبدى :

« الله أكبر » . وتنضم اليها زقزقات العصافير ، فتؤلف جميعا لحنا بتولا ترفعه الأرض ، فى هذه الساعات الطهور ، صلاة حارة الى السماء .

وكان ابو فارس يصغى الى هذا اللحن ويدخن .. يلقاه مستيقظا فى جميع الأيام ، ويستعد له مرتديا ثيابه ، مغتسلا جالسا على حشية فى الزاوية .

ومن وقت الى آخر يتبادل حديثا قصيرا مع زوجه ، وقد تستيقظ مريم السودا فتأتيهما لتناول قهوة الصباح فيستفيق فارس على والديه فى جلستهما الهنيئة الوادعة تلك ، لكنه لا يلبث ان يغمض عينيه ويعود الى الرقاد ، فيما صوت والده يعلو مترددا بعزم واصرار :

ـ لا تدع الشمس تسبقك يا فارس ..

وغالبا كان فارس يدع الشمس تسبقه ، انه يشد جفنيه ، يشدهما بجماع رغبته فى النهوض ، لكنهما يظلان مطبقين ، فتقول والدته مخاطبة زوجها :

ـ دعه ينم ، لا يحسن الى صحة الولد مثل النوم .. كنا مثلهم فيما مضى .

وحينئذ يصمت والده كأنه لم يسمع ، فمن عادته الا يدخل فى نقاش حول آرائه . انه يقول كلمته ويسكت ، لكنه يراقب تنفيذها بحرص ، ويحترم الجميع ، دون اكراه ، هذه الكلمة ، حتى الجيران يشعرون حياله بالاحترام . وكان هو من جهته ، يعرف كيف يصون أقواله عن التبذل ، فيقول ما يناسب فى الوقت المناسب .

وكان فارس يعجب بشخصية والده القوية ، ويتساءل :

ـ لماذا خلق معمارا ولم يخلق معلما ؟

وحين يكلفه بعمل يجهد نفسه كى يؤديه بأسرع ما يمكن واحسن ما يمكن ، لذلك تذكر ، حين فتح عينيه هذا اليوم ، انه وقبل كل شىء ، مكلف بابتياع الخبز ..

جلس فى فراشه قليلا ، وفرك عينيه حتى نفض عنهما آخر بقايا النوم ، ووثب من السرير فاغتسل ، وارتدى ثيابه ، ومضى سريعا الى السوق ، يلاحقه صوت والدته الواهى الرقيق :

ـ لا تعد قبل ان تحصل على ما يكفينا ، كن جريئا ، ولا تبال بشتائم الفران ..

وحين مر ببيت عبد المقصود تمهل قليلا وضحك ، كان يخيل اليه كلما مر به ، ان عبد المقصود يقوم وراء النافذة المغلقة ، عاصبا وجهه بالمنشفة المبتلة ، رافعا فوقه ذلك اللحاف الذى اقلق الحى وأخاف الحارس والمختار وحملة المحامل..

ولأمر ما تمثل زوجه نائمة في البركة ، وولديه مضطجعين

فى وعائين كبيرين تغمرهما المياه ، وقطتهم تقف تحت صنبور الماء فى المطبخ ، اما الخادم الطويلة الممصوصة فقد تصورها معلقة من رجليها فى سقف دورة المياه .

كانت السوق مقفرة بعد ، وثمة حارس يسير متمهلا ناعسا يقتلع رجليه بصعوبة من رصيف الشارع ، ويمضى باتجاه المخفر ليقول لمن فيه « الحارة سليمة » ، وبعض القرويين يهرولون فى سيرهم ليلحقوا دوابهم المتجهة الى سوق الخضار ، واجير المطعم القريب ينظف الطناجر ، وقد جلس قربه اجير اللحام ، يتحادثان بما ليس يدرى سواهما ،ويبدو من هيئتيهما انهما غريبان عن المدينة، قذفهما الريف فيمن قذاف من فلاحيه ..

وقف فارس فى بداية الزقاق المؤدى الى فرن حسن حلاوة ، وتطلع الى واجهة الفرن . كان الناس يتزاحمون أكثر من كل ما رأى ، وخطر له أن يعدو الى فرن آخر ، معللا الزحام بما يلى :

ـ ربما آثر الناس القرب ، فتكاثفوا ههنا كالذباب .

وبسرعة صر قبضته على نقوده وركض . وظل يركض طويلا يدخل زقاقا ويخرج من زقاق ، وينتقل من فرن الى آخر ، وحيثما اتجه وجد مزيدا من الشارين ، وقليلا جدا من الخبز .

كانت الأفران مغلقة ، والخبازون يطلون على الناس من الكوى فى الواجهات ، ولم يكن احد يدرى كيف يصنع الخبز فى داخلها ولا مما يصنع ، ومئات الأيدى ترتفع فى الفضاء متوسلة ، ضارعة للرغيف ، وأصحاب الأفرن كالارباب ، يطلون على عبادهم من عل ويصرخون فيهم بلا انقطاع :

ـ بالدور ..

مع أن الوقت ما زال باكرا ، فقد كالوا لبعضهم وللفرانة كمية من الشتائم .

كانوا يصيحون :

ـ انتم مجبورون فينا ، السنا زبائنكم ؟

ثم يضيفون دون أن يسمعوا جوابا :

ـ تحكموا فينا ما استطعتم ، الن تنتهى الحرب ؟

وكانت الشتائم والصيحات تضيع فى جلبة الأصـــوات ، اصحاب الأفران يدورون فى نطاق تفكير خبيث ، لا يجيده الا المرابون ، وقد استبدت بهم شهوة وحشية طاغية للربح ، فهم يتناولون الخبز من بيت النـــار ، ويلقونه فوق الأيدى الممدودة فتتلقفه وتحترق به ، وتتعارك عراكا قاسيا حول كل رغيف ، وفى غمرة هذا العراك تتحول الأصابع الى مخالب ، والاسنان الى انياب ، وتعصف بالجميع عاصفة جامحة من حب القتال ، وتثور فى نفوسهم كل مآسى الماضى ، قاذفة برواسب الذل والخنوع والخوف الى الشيطان ..

كان فارس أمام حلين : اما أن يعود الى البيت أو أن يفعل ما يفعله الآخرون فيزاحم ويدافع ، ويتعارك أن اقتضى الأمر ، ولقد اختار الحل الثانى ، واخذ طريقه الى فرن حسن حلاوة ، واندفع يشق لنفسه ممرا وسط الزحام .

كانت الأصوات تتعالى من كل صوب :

ـ يا سيد حسن ..

ـ يا حسن ..

ـ يا حلاوة ..

ـ يا .. يا حسن ..

ـ طيب ، طيب هل قامت القيامة ؟

وزعق رجل كان يقف مضغوطا بين الجدار والناس :

ـ يا ليتها قامت قيامتك .. بتنا أمس بلا طعام .

ولم يجب حسن بشيء ، كان قد سمع هذه العبارة « بتنا أمس بلا طعام » كثيرا حتى ملتها اذناه ، وقد اعتاد ابدا ترداد هذا المثل : « العين التى تبكى على غيرها لا تجف ، لذلك تصامم وعاد الى قبض النقود وبيع الخبز ، وعادت الأصوات تتعالى هاتفة متوسلة من كل صوب :

ـ يا حسن ..

ـ يا حلاوة ..

ـ يا سيد حسن ..

ـ يا حلاوة ..

وفجأة علا صوت جهورى ناقم :

ـ يا حلاوة .. يا حامض .. يا خل ..

واضاف صوت آخر :

ـ يا « خ ... »

وجاء الجواب سريعا هذه المرة :

ـ يا ابن الفاعلة ...

وارتطمت فى الوقت نفسه وزنة كبيرة على باب الدكان المقابل قذفها حسن وراء فارس الذى أخذ يصيح :

ـ انت ابن الفاعلة .. ع ...كر ..

وقالت عجوز موجهة كلامها الى حسن :

ـ يا عيب الشوم على شواربك ..

ـ العيب فى شيبتك ..

كان شاب من اقارب العجوز يقف فى مؤخرة الناس فصاح بحسن :

ـ اخرس ..

وسأل حسن غاضبا :

ـ انا ؟

ـ أى نعم ، أنت .

فبصق حسن فى الهواء وقال : لو كنت ابن حرة ..

عندئذ ثارت ثائرة الشاب واندفع بين الناس كالاعصار ، فلما وصل الى واجهة الفرن انقض عليه برجليه ويديه ، وراح يضرب بها حتى خلعها ، فانفتح باب الفرن ، وخرج منه حسن يتبعه الخباز والعجان والاجراء ، حاملين العصى واذناب المجارف واعواد الحطب ، واشتبكوا مع الشاب فى شجار انقلب الى معركة دامية هاجم الناس فيها الفرن من كل صوب ، وقذفوا الوزنات فى الهواء ، ونثروا الطحين ، وحمل بعضهم الماء لاطفاء النار ، وشد رجل بحسن وهو يصيح :

ـ سألقيك فى وجاق النار ..

ورفع آخر حطبة غليظة وصاح :

ــ خذ ...

لكنه قبل أن يهوى بها ، كان الخباز قد عاجله بضربة من مجرفة الخبز شجت رأسه فسال الدم غزيرا يصبغ كل شيء : سترته ، وقميصه الأبيض والأرض ، وحينئذ هاج الناس وعصف بهم غضب جموح ، واثار مرأى الدم فيهم جوعا مزمنا الى القتال ، جوعا الى حطم أى شيء ، الى تمزيق الأسار الذى يلف حياتهم ويذلها ، الى تقطيع الخيط الرهيب الذى يقيد ذواتهم ويمرغها ، الى توكيد انسانيتهم واثبات حقهم على هذا الشكل الأمثل لاثبات الحق .

وقد زاد فى هياج الناس تدخل الشرطة ، واجتذب تدخلهم الذين كانوا يتفرجون ، وهكذا تحولت المعركة عن اتجاهها الأول ، ولم تعد بين فارس وحسن حلاوة الفران ، بل بين رجال الشرطة والشعب ، بين الفرنسيين والوطنيين ...

كان الناس لا يسألون ماذا حدث : دفعة واحدة منذ وصولهم يدخلون المعركة ، ويعرفون بسبب من شعورهم الوطنى اين يوجهون ضرباتهم ، وكانت النساء المحجبات من فوق الأبنية يلقين بتنكات الزهر واصصه على رؤوس الفرنسيين ، وللحال أغلق السوق ؛ وانثالت جموع الناس من بين الأزقة ، وتسلق الشباب جدران البيوت وقفزوا من فوق الأسطحة . كان سلاحهم الرفوش والفؤوس ، والعصى وعيدان الحطب .. ورجال الشرطة يطلقون الرصاص فى الهواء ويصيحون بالناس :

ــ الى وراء ..

وكان فرنسى صغير يختبىء تحت رفراف الفرن ، ويشهر مسدسه ويصيح :

ـ مرد .. « لوفو » .. (النار) .

فيجيبه مقلاع كبير بحجر صلب يسبح كالقذيفة فى الهواء ويصفر ، ويستقر بين رجليه أو فوق رأسه ..

وكان دخان البارود قد انتشر فى داخل الفرن ، وملأت رائحته الجو فمست الأنوف ، ووترت الأعصاب ، وكان القتال يجرى فى الداخل والخارج على السواء ، ورجال يركضون فى الشارع بين كر وفر ، ونجدات الشرطة تسرع من المخافر القريبة ، وقد بلغ النبأ القيادة فأعلن النفير فى الثكنة القريبة .

وظلت المعركة دائرة ساعة وبعض الساعة ، وقد تمكن الفرنسيون من ضرب نطاق مسلح حول الفرن ، وعزلوا الذين فى داخله وقيدوهم ، ثم جروهم مكبلين الى المخفر المركزى ، وكان بينهم فارس وحسن حلاوة والفران والخباز وغيرهم .

١٠

حين بلغ أم فارس أن ابنها موقوف لأنه ضرب حسن حلاوة الفران تملكها فزع غير معهود .. أحست بتيارات متعاقبة من خوف وغضب وحزن تجتاح كيانها كله .

كانت تجلس فى أسفل الجدار الطويل ، تجرد عيدان التبغ بحركة آلية تؤديها أصابعها الخشنة المغبرة ، وكان ظهرها محنيا ، كأنما تبحث فى الأرض عن عزاء لمصابها .

وفى جو القبو الكبير المستطيل ، كنفق طويل ، ينعقد غبار يتصاعد من كل صوب ، ويتكاثف ذرات فيثقل الهواء ويجعله

« نيكوتينيا » نتنا ، فاذا دأخلته جهامة العمل ، وامتزج بالعتمة الرصاصية السائلة فى القبو ، استحال سردابا لا يطاق ، سردابا لا يدرى المرء كيف تحيا فيه مئات العاملات يشتهين رؤية الشمس ويستنشقن أشعتها اذا هلت خصلة منها عبر النافذة .

ومن كل أطراف هذا السرداب تطل نظرات يكاد العمل يذهب ببريقها ، وتدور عيون فى محاجرها الفارغة تفتش عن أمل يمدها بأسباب الحياة ، وفى وسطه يذهب ويجيء رشيد أفندى صائحا دون ملل :

ـ اجردوا جردا ..

كان هذا كاتبا عجوزا ، بل هو نسيج وحده بين الكتاب والمخلوقات ، ولم يكن يدرى أحد أقلب ما بين جنبيه أم حجر ، كان فانيا ، تهتز راسه وتضطرب ، وترتجف أطرافه ، كأن نوبة عصبية تلازمه أبدا ، وتحدق عيناه الكليلتان الشحيحتان من وراء نظارته ذات الاطار الذهبى ، ويغور خداه فى حفرتين قائمتين على جانبى فكيه ، وتبرز الطوايا الجلدية فى وجهه ، ويبدو أنفه كبيرا جافا كخشبة .

وفيما عدا ذلك كانت لسحنته كل سمات الارستقراطية . فمن صلعته الملساء ، وذقنه الحليقة ، وشاربه المحفى ، تطل هيئة كروية لحمية لا شعر فيها ، وعلى عينيه ، يتهدل حاجبان لا شعر عليهما ، ومن كل أطرافه يطالعك جلد فضفاض لجسم ضامر كانت له سمنة فيما مضى .

أما دماغه فكان مصفحا بالبغضاء لكل من حوله ، وقد جعلته هذه الصفة المميزة موظفا محظوظا ومرضيا عنه ، وكان العمال يكرهونه ويتحاشونه فى آن واحد ، وقد يشتمونه ، الا أن ذلك لم يمنعه من ايذائهم بكل وسيلة لديه ، يدور من الصباح الى المساء بين صفوف العاملات صائحا منتهرا :

ـ اجردوا جردا .. هذا ذهب ، التبغ ذهب .

وقد ملت عاملة فى خريف العمر السكوت الطويل فقالت :

ـ نشتغل بالذهب ونحن محرومون منه ! .

فقاطعها رشيد أفندى منتهرا :

ـ اخرسى يا عجوز ..

وصاحت أخرى :

ـ ولكنها لم تقل شيئا .

فانتهرها :

ـ قولى أنت .. هيا ، تفاصحى ..

ونادته عاملة صبية :

ـ يا رشيد أفندى ..

ـ نعم يا خانم .

ـ اسمى زنوبة .

ـ لا ! اسمك بلوطة ، قردة ، كلبة ، أى ؟

قالت العاملة :

ـ ولماذا تشتمنى ؟

فنظر اليها غاضبا ، وتوجه الى مكتبه وصاح :

ـ نصف يوم حسم ..

وصاحت العاملات :

ـ ظلم والله ظلم ..

فنتر خيزرانته وضرب بها وجه المنضدة ، وللتو خفتت الأصوات وسرت دمدمة بين الصفوف ، وجعلت أم فارس تنظر اليه بلا مبالاة وفى أعماقها يفور شىء ما كما يغلى . تمنت لو يقترب

منها . كانت مستعدة الى قول شيء لا يرضيه ، فاذا شتمها ضربته وذهبت ، بل عاركته وقتلته أو قتلها .

ولكون رشيد أفندى من أصحاب الفراسة ، فقد لاحظ ذلك عليها ، فدار ، وزاغ ولم يتعرض لها بشيء .

سألته :

ــ الم يحن الوقت ؟

ــ لم يحن

وسألته فتاة لعوب بلهة الاستنكار :

ــ لكن جرس الظهر دق !

فاستدار نحوها :

ــ هل عندك موعد ؟ .

وضحكت عاملات حولها ، فأطرقت الفتاة محمرة الوجنتين ، ورفع هو فى هذه اللحظة عصاه الى أعلى ، اشارة الى أن موعد الظهر قد حان ، فعلت الجلبة بعد صمت ، وتدافعت العاملات باتجاه الباب ، وتقيأ المستودع رؤوسا بشرية نسل الهواء الفاسد من وجوهها كل لون ، واكتظ الرصيف بالطاعمين والطاعمات ، واختلط الصياح بالشتائم ، بنداءات الباعة ، بضجيج الشارع العام .

وحين مضت الساعة المقررة للغداء ، عاد القبو يسترجع ما قذف جوفه ، ورجعت العاملات نشيطات بعض الشيء الى العمل ، وهرولت الفتيات فى مرح الصبا وحيوية الشباب ، أما العجائز فقد سرن متمهلات كارهات ، كسجينات يعدن الى زنزاناتهن .

كانت شمس الخريف الكئيبة الفاترة ، الضـاربة قليلا الى الصفرة ، تميل الى الافق البعيد ، والريح الباردة تذرو الغبار منذرة بأن السماء ستمطر هذا المساء ، وأطفال صغار يلعبون على قارعة الطريق .

وفى القبو بين مئات كويمات التبغ ، جلست مئات العاملات ، وعند الباب وقف العمال يمضغون ويدخنون .. وكانت رائحة نيكوتينية حادة تهب من داخل ألقبو ، وغبار كثيف يلف المصابيح المثبتة فى الأقاصى المعتمة ، وسعال أصم متقطع ينطلق من هنا وهناك .. ولغط شبيه بالهمهمة يقبل محمولا على أجنحة الغبار .

وفجأة هدأ كل شيء ..

وصاح رشيد أفندى :

ـ العمل ..

وقالت عاملة خبيثة :

ـ اجردوا جردا ..

فثنى على كلامها وقد فاتته النكتة :

ـ نعم .. جردا .. الذهب ..

واحكم وضع نظارته فوق أنفه الخشبى اليابس ، ثم مط عنقه الجلدى وارتفع بجسمه وتطلع الى بعيد ، كانت له عين ذئب فصاح :

ـ من هى الغائبة هناك ؟ .. أم فارس ؟

وللتو هتفت عاملة بنبرة يخالجها الارتياح :

ـ ها هى ..

ودلفت أم فارس تشق طريقها وسط الكويمات مسرعة لتأخذ مكانها ، فاخرج رشيد افندى دفتره وكتب وهو يقرأ :

« حسم نصف يوم شغل على وردة رزق الله » .

فتوسلت عاملة بهذا السبب :

ــ ابنها محبوس يا رشيد أفندى .

ورفع يده عن دفتره وركز نظراته فى العاملات وسأل :

ــ محبوس ؟

ودون أن ينتظر الجواب أضاف :

ــ هل سرق ؟

وقالت أم فارس :

ــ حاشا .. ابنى لا يسرق ..

قالت عاملة موضحة الأمر :

ــ ضرب حسن حلاوة الفران يا رشيد أفندى .

فأغمض جفنيه كقس ساعة ينتهى من وعظه ويشرع بادانة الناس :

ــ لابد أن يشنقوه ..

وروعت هذه العبارة الأم الخائفة فانتفضت وصاحت :

ــ يشنقونه ؟!

وهمدت وردة ، وتلاشت فيها حتى رغبتها السابقة فى أن تتحدى الكاتب العجوز ، وشعرت بحاجة الى من يقنعها أن ما سمعته لن يقع ، ثم دار بها تيار من أسى عقل لسانها ، فانسابت دموعها على وجنتيها ، وساقت عاملة قربها هذه الملاحظة ·

ـ الله يصبر قلب الأم .

وقالت أخرى :

ـ ولك اختى .. الصبى لا يخاف عليه ، ولو كان بنتا .. قلنا معك حق .

ولم تسمع ام فارس ما دار حولها من حديث ، فقد أصيبت بدوار أعقبه اغماء طرحها أرضا ، وعندئذ هرعت اليها رندة ـ وكانت قد بدات تعمل أيضا ـ فرشت على وجهها حفنة ماء ، واسندتها الى جدار القبو ، ونصحتها أن تكف عن العمل ، وامتدت رشيقة خفيفة ، أيدى العاملات ، تأخذ كل عاملة حفنة من كومتها وتضعها فوق كومة أم فارس حتى تعالت وأصبحت مساوية لبقية الكويمات .

ومن حسن الحظ لم يكن رشيد أفندى داخل القبو فى هذه اللحظة . كان مشغولا بشراء أحمال من التبغ وصلت لتوها الى المستودع ، والعمال من حوله يفتحون له الأكياس ، فيتناول خيط التبغ وينظر فيه قليلا ثم يرميه ويلتفت الى المحاسب :

ـ الوزن الاجمالى ٩٠ كيلو ، الرطوبة خمسة بالمية ، والعيدان عشرة ، والكيلو بتسعين قرس .. ارفعوا الكيس وهاتوا غيره .

صاح الفلاح صاحب التبغ :

ـ ظلمتنا يا بك وحياة راسك .

ـ غيره ..

ـ ظلمتنا ..

ـ غيره ..

فجأر الفلاح ثائرا :

ـ خربت بيتنا بأسعارك وتخمينك ، أين ضميرك ، هذا انصاف ؟ أين الرطوبة ؟ أين العيدان ؟

ـ غيره ..

ـ يا رشيد أفندى ..

ـ غيره ..

وراح الفلاح يصيح ، ورشيد افندى ينادي بلا مبالاة :

ـ غيره ، كيس ثانى ، غيره .. كيس ثالث ، غيره .. ارفع .

وتعلق الفلاح بذيل الأفندى وصاح :

ـ هذا حرام .. التبغ ..

ونتر الأفندى سترته وقال :

ـ التبغ ؟ اى تبغ هذا ؟ هذا تبغ ؟ وحل ، هذا وحل ، ارفع ، غيره ، من لا يعجبه التخمين أمامه المحكمة .. هل سجلت الوزن الاجمالى والرطوبة والعيدان ؟

ـ نعم ..

ـ ارفع ..

ورفع العمال الكيس ، ثم غيره ، وغيره ، وتعالت أصوات الفلاحين :

ـ يا رشيد أفندى ..

وعلا صوت الأفندى :

ـ غيره ..

ونظر الكاتب الفتى الذى يدون الأوزان الى ما يجرى أمامه

وابتسم ، كان يحمل فى صدره شيئا من اسى وشيئا من اشفاق ، لكن ذلك لم يكن يتعدى الفكر الى اللسان ، فهو على دين بيلاطس البنطى (١) من هذه الناحية ، وكل ما فعله ، انه كتب وهو يعبث بالقلم : « التبغ وحل ! التبغ ذهب !! » ثم اضاف : « أيهما اقوى ، الفلاحون أم الشركة ؟ » .

وما لبث أن طوى الورقة والقاها بعيدا .. وعاد الى شغله ، ملقيا بكامل انتباهه الى الكاتب العجوز .

وقبل أن ينتهى وقت الدوام بقليل ، وقفت أم فارس وسارت واخترقت الصفوف دون أن تقول شيئا او تصغى الى شىء مما يقال . كانت عاقلة جدا ، فترك تصرفها هذا تعجبا عاما فى المستودع ، لكن رنده قالت مفسرة :

ــ ذهبت لترسل طعاما لفارس !

11

وأعدت أم فارس صرة الطعام . لكن مريم السودا اعترضتها قائلة « أنا آخذها » ، ولم تدع لها مجالا للرفض ، بل سحبت منها الصرة وسارت الى المخفر ، فلما بلغته قرفصت فوق رصيف الشارع الممتد امامه ، وأسندت ظهرها الى الجدار ، بينا وقف

(١) بيلاطس البنطى ــ حاكم اورشليم الذى صلب المسيح على عهده وقد كان انسانا بعيد النظر ، لكنه يؤثر عافيته على حرية فكره ، فلما أيقن أن صلب المسيح جريمة لن يغتفرها التاريخ ، طلب ماء وغسل يديه وقال : « أنا برىء من دم هذا البار » ثم أسلم المسيح الى أعدائه فصلبوه .

صقر ، الذى لحقها ، الى جانبها ، عاقدا يديه على صدره .. وظلت أمه قابعة على الرصيف المقابل تراقبه من بعيد .

كانت الريح صرصرا ، وقد ازدادت برودة الهـواء ورطوبة الجو ، ومرت غيوم خفاف مسرعة فى السماء ، متجهة مع الريح الى الشرق ، وهبط الليل على المدينة .

سألت مريم وهى تضع يدها فوق صرة الطعام ملقاة قربها على الرصيف :

ـ ما رأيك ، هل نستطيع مواجهته ؟

قال صقر :

ـ لن نستطيع ..

ـ وهذه ؟ (وربتت فوق الصرة) .

ـ نبعثها مع شرطى اليه .

ـ أمجنونة أنا ؟

قال صقر ضاحكا :

ـ من يدرى ؟

ـ لعنة الله عليك .

ـ وعليك ..

فصاحت مريم :

ـ يا خبيث ، انت لا تعـرف الناس مثلى .. قد يأكلونها أو يصادرونها .

ـ اذن لنرجع الى البيت .

ـ قبل أن نطمئن عنه ؟

فنفخ صقر وقرفص هو الآخر ، ثم أسند ظهره الى الجدار وصرف هذه العبارة : « اذن لنستريح » . ومضى ينكت وجه الرصيف بعود صغير يابس .

***

انقضت على ذلك مدة قصيرة جدا حسبها فارس وقتا طويلا جدا . كان موقوفا فى غرفة كبيرة زادتها كآبة الخريف ضيقا وقتاما ووحشة ، وقد شعر خلال الساعات التى تقضت على توقيفه أنه كبر سنوات . أصبح يعى أشياء كثيرة . لكنه لم يستطع سبر غور هذه الأشياء ، ولا تحديد شعوره حيالها . انه خائف وشجاع ومضطرب ، وهذه النوازع المتباينة قد اخذت تصطرع دفعة واحدة فى نفسه ، ثم رسبت شيئا فشيئا فى أعماق اللجة من رباطة جأشه ، وطفق شعوره يصفو ويتبلور ونفسه ترتاح ، وتخلد الى الهدوء ، بانتظار ما سوف يأتى ...

وكان كل ما حوله قاسيا صارما : الوجوه التى تمر به جامدة التعابير كامدة النظرات كأنها دوائر من رصاص ، والاغلال المدلاة على الجدار بجانب الخوذ والبنادق والحراب تومىء برهبة لا تلبث ان تتحول الى قشعريرة تسرى فى عموده الفقرى كتيار بارد ، والواجهة الحديدية فى تقاطعها وتصالبها تدنو منه وتحيط به وتضغط عليه حتى لتكاد تهصره ، والنافذة ذات القضبان الصدئة تبدو كمطلة سحرية على دنيا أخرى حبيبة .

كانت غرفة التوقيف مستطيلة ، ينتهى أحد طرفيها بنافذة مرتفعة تطل على باحة المخفر ،بينما ينتهى الطرف الآخر بالشبكة الحديدية المطلة على الردهة ، وفيها ــ بالاضافة الى فارس ــ موقوفون يعرف منهم حسن حلاوة الفران وشخص آخر اسمه

عبد القادر اشترك فى معركة الفرن ، واجير الفران والخبـــاز ، وبضعة رجال من أهل السوق .

وكان يتمـدد تحت النـافذة رجل غريب ، ظل هامدا طـوال الوقت . كان وجهه أسـود أصـفر ، وشفتاه منتفختين ، وذقنه نابتة ، وله شـارب طويل ، يختبىء فيه أنفه الشـاحب ، وفى سرواله الخلق مزق كبير يبدأ من الزنار وينتهى عند منتصف الساق اليسرى ، تبرز منه بروزا تاما ركبته القائمة كزاوية حادة ، فيظهر لحمه من أواخر الساق حتى جذع الفخذ عاريا قذرا كشجرة هرمة تشـقق قشرها ، وتساقط ، الا انه ظل عالقا . الجميع ينتظرون التحقيق ، ولأمر ما كان التحقيق يتأخر ، وفى خلال الساعات التى قضاها الموقوفون بين اعتقالهم واستجوابهم ، تصاعدت الى آذانهم من القبو المجاور أصوات التعذيب تصاعدا مستمرا . وثمة رجال عابسو الوجوه ، بذيئو الألفاظ ،يمرون بهم ويسألونهم سؤالاواحدا لا يتغير :

ـ اتسمعون ؟ ! !

ويمضون غير آبهين بالجواب ، مخلفين وراءهم اصداء داوية لعذاب مرير مقبل ، يتصوره كل موقوف على النحو الذى تجسمه له مخيلته المريضه،العاكسة لعشرات ردود الافعال الخفية ،المتدافعة فى توتر عنيف من أعصاب حطمها تعذيب نفسى منظم .

ومن حسن الحظ أن فارسا لم يكن وحيدا حين مروره بدور التعذيب هذا ، وكان من جهة أخرى ، مستعدا لأن يقول الحقيقة :

ـ نعم أنا ضربت حسن حلاوة الفران ، فافعلوا ما تفعلون ...

الا انه ، بانتظار هذه الساعة تألم بصمت . كان قلقا رغم صفاء ذهنه وحاقدا على هذا القلق الذى بدا له وحشا يفترسه دون أن يستطيع صـده ...

ومن حواليه انتصب الموقوفون الآخرون مستندين الى الجدران أو جلسوا مطرقى الرؤوس الى الأرض • والرجل الممدد ، الممزق السروال ، ما زال تحت وطأة الحشيش .كان منطفئا ، غائبا عن الوجود .. وفخذه العارية قد تمددت ركبتها القائمة كزاوية حادة وبدا لحمه أكثر قذارة يغطيه شعر كثيف ويختلف فوقه الذباب ، وبدا شاربه متهدلا فوق شفتيه الزرقاوين الداكنتين ، وعيناه مغمضتين كأنه قد قضى مختنقا فى قعر بئر •

وحين أقبل المساء ، دنا من الشبكة الحديدية رجلان : فرنسى برتبة رقيب وترجمانه . كان هذا حليق الشارب ، دقيق تقاطيع الوجه ، ناعما كآنسة ، له خال على خده ، ترك بعض شعرات شقراء تنبت فوقه،وبدا فرحا به كما تفرح الآنسة الصغيرة بشريط حريرى ربط فى ضفيرتها ...

تكلم الفرنسى قليلا ، ثم فتح الترجمان فمه وأطبقه كأنه يمضغ الكلمات مضغا :

ـ اذا قلتم الحقيقة فلن يمسكم سوء ـ هكذا يقول الرقيب .

وسكت لحظة راقب خلالها وجوه الموقوفين لسبر أغوار نفوسهم ، وراح الفرنسى ينقر جزمته بكرباجه ، ويتفحص المساجين بعينين خضراوين كعينى القطط ، فى حين تجمع هؤلاء وراء الشبكة ، وقد آنسوا لطفا فى كلمات الترجمان ، وظل الحشاش فى غيبوبته متمددا بلا حراك .

سأل الترجمان :

من الذى حرضكم على مهاجمة الفرن وشتم فرنسا ؟

وجاء صوت باك من طرف الشبكة الحديدية :

ـ موا ... نو mon non موا ... نو ...

واقترب حسن حلاوة الفران ممتقع الوجه . وساد صمت ثقيل على جانبى الشبكة ، وتلاقت العيون فى نظرة طويلة ... وعاد الترجمان يسأل :

ـ من شتم فرنسا ؟

وعاد حسن حلاوة يصيح نائحا متوسلا :

ـ موا ... نو ... موا ... نو ...

ـ الن تتكلموا ؟

وضرب الفرنسى جزمته بكرباجه وتحول الى الداخل بعد أن أطلق هذا الانذار الوجيز :

ـ « بون » ...

وفى قفاه تف عبد القادر تفيفا رش رذاذه ما حوله ، فتراجع الترجمان ، وصاح بعبد القادر :

ـ أنت فعلت هذا ؟

وأضاف دون أن ينتظر جوابا :

ـ ستموت ...

قال عبد القادر وهو يجلس بهدوء :

ـ الموت أشرف من رؤية وجهك يا نذل ...

كان يتوقع أن يعود الترجمان اليه ، لكن هذا ترك المكان ولحق بالرقيب ... وعاد الموقوفون الى زواياهم ينتظرون تنفيذ التهديد:

وبقى حسن حلاوة ممسكا بالشبكة يردد ببلاهة كأن حمى خبيثة قد أخضعت قواه العقلية لهذيان لا طائل تحته :

ـ موا .. نو ، موا ... نو ، موا ...

فنهض عبد القادر وصفعه بجماع كفه ، ثم ركله بقدمه فطرحه ارضا ، وضربه ... ضربه حتى أدماه ، وراح حسن يبكى كطفل :

ـ ماذا فعلت ؟ لماذا تضربنى ؟ . سأتكلم ، سأقول كل شيء ..

وكلما أمعن فى تهديده ، أوغل عبد القادر بضربه . جعل يصفعه بغضب ، يصفعه بكل ما فى نفسه من حقد أهاجه حتى صيره شرسا لا يعى ما يفعل .

ـ خذ ، خذ ، أحك ، دعهم يشنقونى ، دعهم يحرقونى أما أنت فستموت ، لن تعود الى الفر، لن ترى النور ، خذ ، خذ ، ياجبان يانذل ، يا عرص ...

وانحنى عليه يريد أن يخنقه ، فأنشب حسن أظافره فى قميص عبد القادر ومزقه ، ثم عضه فى يديه وصدره ووجهه ، وجرح كل مكان طالته أظافره ، وضرب عبد القادر راس حسن فى الأرض ، وانهال على صدره رفسا بقدميه ... ثم تعبا فتدحرجا على بلاط الغرفة .

ودوى فى جميع أرجاء المخفر ، صوت النفير مصحوبا بقعقعة السلاح ، وشرعت الحراب الى صدور الموقوفين ، وصاح صوت جهورى قاصف:

ـ ارفعوا أيديكم ...

ارتفعت الأيدى تسبح فى الهواء . وصاح عبـــد القادر ، وهو ينهض عن حسن حلاوة :

ــ يا ابن الفاعلة ، سترى ...

كان فارس يقف فى طرف الشبكة الحديدية مذعورا . فقدامه لأول مرة تنشب معركة من هـذا النوع ... لا شك انه رأى ثورة السجناء ذات يوم فى فيلم سينمائى ، وقد حسب أن القصة مبالغ فيها ، وها هو الآن ، على غير موعد ، يجد نفسه أمام مشهد مماثل .

لم يكن يدرى ما يفعل . انه خائف ، ولشدة خوفه التصق بالجدار حتى كاد يدخل فيه . والى أبعد ، كان سجين ممتقع الوجه ، وسجين آخر يقبع فى الزاوية ، وآخر أصاب ركبتيه شلل فجائى ، وفتح الحشاش عينيه وأغمضهما ... وراح يضرب رجليه بالأرض ليدفع عنه خدر الحشيش . انه يسمع كل ما يدور حوله ، وقد أخذ تحت وطأة المخدر ، ينشج دون دمع .. ويشهق شهيقا جافا ، كأن ثعبانا يفح فى صدره المشعر . ثم مد أصابعه المنتهية بأظافر قذرة الى شعره الطويل المسترسل على صدغيه ، وطفق يشده ويشهق ويتخبط تحت الأرجل .

وكانت المعركة تدور ... العصى تعلو وتهبط على راس عبد القادر ، وهو يتراجع تارة ويهجم أخرى ، ويقفز ويجأر ، والدماء ترعف من الجروح الكثيرة فى راسه ووجهه وساعديه ، واذ تمكن من امساك احدى العصى ، انهالت الضربات متتابعة على عقد أصابعه . فاضطر الى افلاتها ، ثم جاءته ضربة قوية على ساعده الأيمن أعقبها شلل عطل يده ، فاستند الى الجدار ، واحتمى بالشبكة كى لا ياتيه الضرب من وراء ...

ورفع الفرنسى كرباجه لتوجيه الضربة القاضية ، لكن يدا فتية أمسكت بالكرباج ونترته ووثب جسم لدن من الزاوية ، وا

يلبث ان سقط بقوة على الأرض تاركا صدى السقطة يتجاوب فى ارجاء المكان ...

صاح الفرنسى حانقا :

ــ لوفو (١ ... (النار)

فأزت رصاصات ، وصفرت ، ولمع برق أعقبه دخان ثم رائحة بارود ، وزئير شيطانى نش فى الآذان ، ومن السقف الذى اخترقته الرصاصات واستقر بعضها فيه ، تساقط التراب والحجارة ، وتساقط معها حطام مصباح أطارته شظية فى انطلاقها الى السقف ...

هرع العساكر من كل أطراف المخفر ، وفى الخارج تجمع الناس على أصوات الرصاص . وقد أوجز أبو رزوق ، الذى جاء الى المخفر ليطمئن عن فارس ويتفقد صقرا ومريم السودا ، ماحدث بكلمة :

ــ أعدموهم !

قال صقر مضطربا :

ــ ماذا ..؟

ــ أعدموهم ! ..

فزعقت مريم : يا ضياع شبابك يا فارس ...

وأعولت وركضت مسرعة باتجاه البيت ، يتبعها صقر وامه وابو رزوق حاملا صرة الطعام !

---

(١) Le Feu

١٢

كان ابو فارس وأمه واخوته على مائدة العشاء حين بلغهم النبأ الرهيب :

ـ مات فارس ...

قالتها مريم السـودا وهي تولول وتمزق ثيابها ، وزيادة في اظهار اللوعة والأسي أخذت حفنة من رمادالموقد وذرتها على شعرها، ولطخت بها خديها ، وانتصبت أم فارس واقفة ، وقد جمـدت لحظة ، ثم هوت كجذع شجرة بترته فأس حادة ، ووقف صقر وأبو رزوق في صحن الدار ، وركض نايف والجيران الآخرون ، وأسرعت امرأة فنزعت المرآة من مكانها وقلبتها على قفاها ،وانتصب ابو فارس واقفا ذاهلا ،مشتتا لا يدرى كيف يتصرف : أيبكى ؟ أيهـدىء الباكين ؟ أيسكت أولاده ويحملهم الى الجـيران ، أم يدع كل شيء ويركض الى المخفر ؟

كان يحس أن صدره صفيحة من صلب ، وعينيه ثقبـان في صخر أصم لا شعور فيه ، وكان يسـمع الجـيران يتحدثون عن الكفن ، والتابوت ولوازم الدفن .. فتنـاول علبـة التبـغ ليلف سيكارة ، لكن يديه المضطربتين لم تقويا على لفها ، فأشعل نايف له سيكارة ، وقدم له كرسيا فجلس ..

صاحت مريم بالرجال الذين تجمعوا في صحن الدار :

ـ تحركوا .. روحوا جيبوه .. آخ يا فارس .. آه ، يا ويلاه على هذه المصيبة .

وردت أمه وهى تقتل نفسها :

ـ يا ويلاه !

وفى هذه اللحظة فتح الباب ، فتح بعنف كأن اعصارا قد دفعه وأطل المختار صائحا :

ـ خذوا أكلا لفارس ..

وصاحت مريم ويداها فى شعرها :

ـ لفـــارس ؟

ـ أى نعم لفارس ..

ـ فارس ؟

ـ أى نعم .. ماذا جرى ..؟

وانصبت النظرات على مريم السودا من كل صوب . أما هى فكانت كقنفذة شعرت بالخطر فتقلصت ودخلت ببعضهـا ، ولم يستطع أبو فارس وهو يرى شوهتها أن يكتم ضحكة انطلقت من صدره كالقهقهة ، عصبية ، مجنونة ، لا يدرى أهى سورة غضب ، أم صيحة فرح ، أم صرخة ندامة تفجرت عنها ضلوعه ، هازئة به وبضعفه وبهذه المـأساة التى انقلب فصلها الأخير الى مهزلة .

تكلمت مريم أخيرا فقالت :

ـ اسألوا الصفتلى .. هو الذى قال ...

وصاح الصفتلى :

ـ يخرب بيتك يا مريم .. انا ؟

ـ أتكذب ؟ يا صقر ، يا أم صقر ، يا عالم ...

وصاح صقر فى وجه مريم ، وقد صح عـــزمه على تكذيب اذنيـــه :

ـ أنا لم أسمعه .

واستفسر الصفتلى وهو لايزال ممسكا بالصرة : أالذهب ؟ بينما امتدت يدان الى المرآة فأرجعتهـا الى الوضع الطبيعى ، وجلس المختار قائلا بأسف :

ـ أهذا لعب ؟ أخبار السوء لعب ؟ لا .. لا ..

ثم التفت الى أبى فارس وسأله مدلا عليه :

ـ وصدقت أنت ؟

ـ نعم صدقت .. الا ترى مريم ؟..

وقال أبو رزوق راغبا فى الهرب :

ـ أنا ذاهب .

... وخرج وأغلق الباب .

أما أبو فارس فظل يهز رأسه ، ويبتسم ، وظل المختار يسأله بين حين وحين ، متلذذا بهذا الضعف الذى نال من صلابته :

ـ أفاتت عليك يا ميخائيل ؟

وأجابه صريحا واثقا من نفسه :

ـ نعم فاتت .. وماذا فى ذلك ؟ ألست أبا ؟ ثم يجب أن تذكر أن موت ولدى ليس بالمسألة التى تستحق الاهتمام ، لـكن اعدامه موضوع آخر ، فى حالة كهذه لابد من الانتقام ..

كان منفعلا أشد الانفعال ، وقد غاضت أمائر الطيبـــة التى تلازم قسماته ، وكاد وجهه كله يغيب وراء ســـحابة الدخان المتصاعد من سيكارته ، لـكنه لم يشتم أبدا ، ولم يوجـــه أى تأنيب الى مريم أو الى صقر ، واعتبر الحادث منتهيا ، وجلس فوق حصيرة قبالة المختار ، وجلس بشارة القندلفت الذى وصل

لتوه قربه ، وقعد صقر القرفصاء ، والى جانبه جلس نايف مستندا الى الجدار ، وجلست أم صقر على العتبة متكئة بمرفقها الى الباب مستسلمة الى الرقاد .

ويبدو ان هول المفاجأة التى حملتها مريم السودا الى الدار ، وفرحة المباغتة التى أثارها ظهور المختار طالبا الطعام لفارس ، قد شغلا أهل البيت جميعا عن الضوء الذى تسرب الى الطريق فجاء الحارس يضرب بعصاه الباب :

ـ يا أهل الدار ...

وهتفت ام فارس مذعورة :

ـ الحارس ..!

وانزلت القنديل وحجبت ضوءه فى أسفل الجدار ، فيما استمر الحارس فى طرق الباب :

ـ يا أهل الدار .. الضوء يا اخوان .. الضوء ..

وصاح به صقر حانقا :

ـ فهمنا ! فهمنا !

وقال عازار الاسكافى موجها كلامه الى صقر :

ـ وطى صوتك والا صرت عند فارس ..

وفتحت أم صقر عينيها وسألت مبغوتة :

ـ ماذا جرى ؟

ـ لا شىء .. نامى ..

وعادت تسأل :

ـ ماذا جرى ؟..

قال صقر بصوت أكثر ارتفاعا وضيقا :

ـ قلنا لك لا شيء ، نامى ..

ثم التفت الى عازار وسأله :

ـ تحسبنى أخاف السجن ؟

وقال عازار :

السجن ما لعبة ..

وثنى المختار على هذا الرأى قائلا :

ـ صحيح .

حينئذ سكت صقر وهو يفتش عن عبارة لاظهار شجاعته ، وتساءل فى سره :

ـ ما بال ابى فارس لا يتكلم ؟ .. هل خاف على ابنه ؟

وهم بالكلام لولا أن طرق الباب وصاح صوت مرن :

ـ أبو فارس !

ـ تفضل

وحين دخل قال أبو فارس

ـ أنت ؟

وأجاب محمد الحلبى :

ـ ومن كنت تظن ؟ حسن حلاوة الفران ؟ سعيدة ...

ـ سعيدة مباركة .. كيف أسعار اللحم ؟

وأجابه محمد :

ـ جئنا نسألك عن فارس ، فتسألنا عن اللحم .. اى رجل أنت يا ميخائيل ؟

قال ميخائيل :

ـ اللحم وفارس سوا . لكل موضوع وقته .

فاحتد الحلبى :

ـ اذا كان الأمر كذلك فاليك الجواب : اللحم لن يباع غـدا أنا لن أفتح ، ولن أفتح السوق كله . اضراب ، كل الناس سيضربون وسنرتدى « البيجامات » تحت الثياب .

قال صقر بعد أن جلس على الأرض ومد رجليه :

ـ يقول المختار ان السجن ...

فقاطعه محمد دون أن ينتظر بقية الجملة :

ـ لا تصدقه .....

كان صقر يتحلى بكل سذاجة الفلاح وبكل ذكائه .. وقد سره أن يحرض محمد الحلبى على المختار ، وأن يتلذذ بتوريطه ، لكن المختار كان أسبق الى تحويل دفة الحديث باتجاه الريح . قال :

ـ ولك ابنى السجن صعب على النساء وليس على الرجال .

وأوقفت مريم السودا لف سيكارتها وقالت :

ـ يا مختارنا خيط بغير هالمسلة ...

عندئذ أمال الحلبى طربوشـه الى وراء ، حتى ليظن رائيـه أنه سيسقط ، وفتل شاربه حتى كاد يجدله ، وملأ فمه بالهواء ، شأنه حين يكتم غيظه ، وقال :

ـ السجن صعب وسهل .. كل شيء يتوقف على السبب ، وعلى اجابتك على هذا السؤال : لماذا دخلت السجن ؟

وعلا من طرف البيت نحيب امرأة ، فالتفت اليها الجميع واجمين :

كانت أم فارس تبكى ! وقد عجزت عن امساك دمعها .

صاح أبو فارس :

ــ قومى اغسلى وجهك ...

فاعترضت مريم :

ــ دعها تبكى ، الدمع يفرج الهم ...

ثم القت هذه العبارة بلهجة السؤال :

ــ لو كنت انت مكانها ؟

قال أبو فارس :

ــ اعرف شعورها ... لكن البكاء لا يفيد .

وقال محمد :

ــ صحيح ، لكن قلب الأم ، ماذا تفعل ؟

وفتح الباب الخارجى دون أن يطرق ، وعلت فى الدار وقع اقدام أبو رزوق وهو يقول :

ــ خذوا الصرة ، نقلوهم الى الثكنة ، رايتهم بعينى هذه المرة .

فتظاهر المختار بالأسى وفرك يديه وقال :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله .. أهذا وقتها ؟

ولما لم يجبه أحد أضاف :

ــ قابلت سيدنا وتحدثت معه فى الموضوع ..

ــ وماذا قال ؟ .

ــ من جهته اهتم بالموضوع .. لكن الظروف ..

واخفى صقر وجهه براحته .. واستمر المختار يقول :

ــ سنرى ما يحصل ، سأقابل غدا ..

فقاطعه محمد الحلبى بخشونة :

ــ لا تقابل أحدا .. لا نريد شفاعة ..

ــ لن اتشفع .. سيكون موقفى ..

فسأله صقر هازئا به ومنتقما لنفسه :

ــ .. مثل موقفك فى الاضراب الأخير ؟

واحمر المختار رغم اصفراره ، واتجه الى صقر الذى انتقم لنفسه وقال :

ــ اما انت فكن مؤدبا ، موقفى فى الاضراب لم يكن سيئا ، ولولا وساطتى لكان نصف شباب الحارة فى السجن .. الكلام شىء والفعل شىء آخر ... التمرد على السلطة (وهنا تبدلت لهجته) ليس لعبا يا ابنى .. ثم اننا نمثل السلطة .. العمى .. حكومة وتقود مظاهرة ضد نفسها ؟ تأملوا بالله عليكم !

وبعد وقفة قصيرة حاول خلالها ان يتلمس وقع كلامه فى من حوله ، اضاف متسائلا بلهجة الاستنكار :

ــ وماذا فعل المختار الشيخ ضاهر ومختار الكاملية ومختار الصليبية ؟

ــ لا تقيس بمختار الصليبة ، كان ينحنى الناس ويحرضهم علنا على التظاهر والاضراب ، وقد سمعته يقول : « الموت ولا فرنسا » ... وابنه كان أول المعتقلين ، فماذا تريد أكثر ؟

ــ مختار الصليبة مسنود .

ــ مختار الصليبة رجل ..

فصاح أبو فارس :

ــ ما لنا ولهذا الحديث .. لا نريد وساطة وكفى .. اذا كان الموت جزاء من يطالب بالخبز فدعهم يشنقونه ..

وفتح بشارة القندلفت جفنيه وأطبقهما بصعوبة .. وشعر المختار ان الجو قد توتر فنهض وهو يقول :

ـ ماذا قررتم ؟ ..

وأجابه محمد الحلبى وهو يشعل سيكارته بعصبية :

ـ غدا نبلغ حكومتك القرار ... انتظرونا فى الشارع .

ثم نهض واختفى كما ظهر تاركا وراءه صدى عبارته الأخيرة :

« غدا نبلغ حكومتك القرار »

١٣

اصبح اليوم التالى غائما منذرا بالشر . كانت السماء متلبدة بالغيوم ، وعلى صفحتها الدكناء يلتمع من حين لآخر ، وميض خاطف كالنذير ، ويكثر شيء ما متناهى الضخامة ، تلوح نيوبه الحادة من بين الغيوم ، ويقهقه الرعد هادرا كأنه يحطم بين يديه ، بقوة لا مثيل لها ، صفحة السماء ، وتنهمر الأمطار ، جامحة غضوبا ، كأن حباتها قد أزمعت ثقب وجه الأرض ، ومن صوب البحر المتصاعد جبالا من الأمواج الطاغية ذات الزبد ، تهب ريح عاتية ، تهز الأشجار لتقتلعها وتحملها الى بعيد .

ويبدو أن غضبة الطبيعة هذه قد ألهبت غضبة الناس ، لفحتها وتفاعلت معها ، فأنتجتا معا ضراما من اللهب يتنزى فى الوجوه ، ويتسعر اكرات من نار تتدحرج على الأرصفة ، ويشتعل حقدا فى العيون المطلة من المنعطفات وزوايا الشوارع .

كان هذا الانسجام الثورى بين الطبيعة والناس نذير انفجار مروع ، حبست له المدينة أنفاسها منذ المساء ، واستعدت له السلطة المحلية منذ الفجر ، فعززت قواها وشددت حراستها ، وسلحت جنودها ، ووزعتهم على نقاط متقاربة ، وسيرت دوريات متلاحقة فيما بين النقاط .

وتقدم النهار ..

تقدم ببطء شديد ، يسير ويتطلع خلفه متسائلا : هل أزفت الساعة ؟

كانت الأسواق مغلقة كلها ، والشوارع مقفرة الا من الجند ، والناس يجتازونها مسرعين ، فلا يظهرون حتى يختفون تاركين وراءهم نظرات التحدى تمعن فى تعذيب الجنود الذين يتوقعون أن يفاجئهم المتظاهرون فى كل لحظة .

وفى مطلع النهار داعب السلطة أمل ، ما لبث أن تبدد ، ذلك أن قلة من الأفران فتحت بعض مصاريعها بعض الوقت ، أما المقاهى والمطاعم فقد ظلت مقفلة ، وظهرت بقايا خضار على الأرصفة ثم تلاشت . ومرت جماعة من الطلاب هاتفة بسقوط الاستعمار ، وانهال صبية صغار بالحجارة على دكان حلاق لم يكن محكم الاغلاق ، واتجه الرجال صوب جامع القلعة ، ثم ، من بعيد ، أطلت رؤوس وتجمعت عند تقاطع أحد الشوارع ، ومرت زمرة من الأحداث صارخة ملوحة بالعصى ، فلاحقها العساكر ، لكنهم لم يدركوها ، وفى النقطة التى شغرت من الجند ظهر فريق من الطلاب والصبية هاتفين ، فوضع جاويش فرنسى يده على مسدسه وركض وراءهم يتبعه جنوده ، الا أن الطلاب غابوا فى المنعطف ، وظهر سواهم فى نقطة أخرى .. ثم فى نقطة ثانية ، فثالثة ، ثم دفعة ، فعقعت الحجارة على واجهات الحوانيت ، ورن حجر صلد

على خوذة فأطارها ، وهرع الجند فاحتموا بالجدران ، وجاءتهم من الزوايا والمنعطفات والأسطحة وقبب الحمامات والمآذن حجارة لا عد لها ، امتلأت بها أرض الشارع ، وتبرقشت ..

وفجأة علا الصياح أمام مقهى الشاروخ ، وهجم الناس لانقاذ شاب وقع فى أيدى الشرطة ، وعندئذ أمر الضابط الفرنسى باطلاق النار ، وتراجع الناس ، واحتموا بالأبنية وبوابات الدور ، وظل الشاب يقاوم حتى سقط أرضا ، فطفقوا يضربونه بأعقاب البنادق ويجرونه من رجليه ، تحت وابل من الحجارة ، وستار من الرصاص .

وفى عرض الشارع ، عند تقاطعه بالجادة المؤدية الى الجامع ، بدا محمد الحلبى يسير وحيدا ، منتعلا حذاءه المعقوف ، ولابسا سرواله ذا الألية ، عاصبا أذنيه بزناره الحريرى فوق طربوشه الخمرى اللون .

كان يمشى غير مبال . وحين تمرق بأذنيه ، كسهم منطلق ، رصاصة أو حجر ، يكتفى بتحريك رأسه ، ويمضى دون التفات . ولم يأبه العساكر له . فقط جندى واحد همس فى أذن رفيقه « محمد الحلبى ! » ، فغمزه هذا : أن اسكت .. وظل محمد يسير ، يداه وراء ظهره ، وشعرات شاربه بين أسنانه الحادة المصرة بعزم ، وهو ينظر نظرات جانبية محاذرة لئلا يباغته عسكرى بضربة مفاجئة .

أخيرا اجتاز منطقة الخطر ، وحين انعطف فى جادة الجامع ، حث الخطو ، وقفز عن الجدار ، فصاح الناس من الداخل وهم يرون رأسه المطل من فوق الجدار :

ــ جاء الحلبى !

وقال محمد منذ ان هبط الأرض :

ــ هاتوا البيارق ..

وارتفع بمثل اللمح ، علم كبير ركز محمد ساريته فى خاصرته وانتثرت أعلام أخرى حوله وبدأ النشيد :

« أنت سوريا يا بلادى ... »

وقال قائل :

ــ المصفحات حاصرت الجامع .

فصاح محمد الحلبى :

ــ افتحوا الأبواب الخلفية .

واستمر النشيد :

« فجر انوار الهدى »

« دمت يا مهد العروبة .. بسلام للمدى » ..

وتحرك الحلبى والجماهير خلفه ، وسار الجميع من صحن الجامع الى الشارع ، ولحقت بهم نسوة كن فى المؤخرة ، فصاح بهن الحلبى :

ــ اطلعوا قبلنا .. اصمدوا فقط حتى تخرج البيارق ..

وخرجت النساء مؤزرات وسافرات ، وتدافع وراءهن المتظاهرون ينشدون ، لكن الموجة البشرية التى انطلقت فى عزم ما عتمت أن ارتدت بعزم ، وداس الناس بعضهم وهم يتراجعون ،

وتعالت الزعقات :

ــ لا تخافوا !

وتحركت مصفحة وتقدمت ، وسار وراءها الجنود شاكى

السلاح ، ثم أخذت تطلق رصاص رشاشاتها فى الهواء ، فتراجع المتقدمون الى وراء فيما الحلبى يصيح :

ـ لا تتركوا النساء ، لا تخافوا ..

لـكن المتراجعين لم يعيروه التفاتا ، ظلوا يرتدون الى وراء والحلبى يصرخ كالمحموم :

ـ لا ترجعوا ، لا ترجعوا ، قلنا لا ترجعوا .. يلعن د ...

وصاح به شاب :

ـ لا تكفر ، شف الجرحى وراك ..

وقال محمد :

ـ الجرحى ؟ واذا كان جرحى ولك دوســـــوهم .. دو .. سو .. دو .. ..

وقال قائل :

ـ العساكر دخلت الجامع ..

فصاح رجل من المؤخرة :

ـ يا عزة محمد !

وقال آخر :

ـ اللهم أيدنا بنصرك !

وصاح ثالث :

ـ كبروا يا مؤمنين ..

وتعالت الأصوات من كل فج ، وبانطلاقة واحدة :

« الله أكبر .. الله اكبر » .

واعتصم الذين تراجعوا في باحة المسجد ، فأشار محمد الحلبى على من حوله :

ـ تسلقوا الحيطان ، هيا ، من الجهة الثانية ، اقلبوا ، اقلبوا ...

وترك العلم وتسلق الجدار ، لكن الية سرواله علقت بزجاجة مثبتة فى أعلى الحائط ، فدار على نفسه ووثب ، وسارت المظاهرة الصغيرة تتضخم فى كل خطوة ، وجاءت مظاهرة أخرى فرفدتها ، وشق المتظاهرون طريقهم حتى خرجوا الى الشارع ، فاضطر العساكر الى الانسحاب من امام باب الجامع ، وهكذا تيسر للمحاصرين أن يفلتوا ، فخفوا لمساعدة اخوانهم ، وجعلوا يتسلقون الجدران ويرمون الجند بالحجارة فيضطرونهم لاخلاء الطريق ، وتابعت المظاهرة سيرها والهتافات تجلجل فى الشارع العام ، وانتصب شاب رافعا يده فى الهواء فوق منكبى محمد الحلبى ، وصاح بالمتظاهرين :

ـ ليسقط ..

فرد المتظاهرون : الاستعمار ..

ـ الخبز ..

ـ الخبز ..

ومشت المظاهرة ، دعست الى امام ، واذ لاحظ الحلبى تفرقها صاح « رصوا » فتراصت الجموع ، واندفعت ، وازت رصاصة فوقها فانطرح الشاب هاويا على الأكتاف . وصاح الذين حوله :

ـ مات .. قتل ..

اذ ذاك اضطربت المظاهرة ، واختلت صفوفها ، وتراجع صف ، وتقدم صف ، واختلط الجمع ، واشتد الصياح ، وانثالت الحجارة ، ولعبت العصى ودارت رحى معركة لم يعد الناس يميزون فيها أين يضربون ، ولا من يضربون ، وصبت السماء حجارة ورصاصا ومطرا حقيقيا ، مطرا جلد وجه الأرض بسياط الماء .

بعد ساعة أمكن تفريق المظاهرة ، وتدفق السيل يغسل الدماء ويحملها حمراء قانية فى مسيره عبر الشارع الطويل من القلعة الى البحر .. أما المدينة فظلت مضربة ، بقيت مغلقة طوال خمسة أيام ، ثم فتحت الأسواق ، واستؤنفت الأعمال . وعاد محمد الحلبى الذى بقى متواريا أسبوعا كاملا ، ففتح دكانه واستأنف بيع اللحم ، وظلت الشرطة تراقبه ، وظل هو يعمل ويده الى زناده ..

كانت له قبضة لا تخطىء الضربة ، وخيزرانة ان طالتها يده لم يسأل عن عشرة رجال ، وفى زاوية دكانه ، عاد يجتمع أصحابه ، يفتلون شواربهم ، وينفخون الغضب فى وجه الفضاء . فينظر اليهم الحلبى ويضحك :

ــ هونوا على أنفسكم ، من يراكم يحسبكم نساء ، العمى ! لماذا الغضب ، اشربوا وتسلوا وعيشوا كرجال ..

وكان الجميع ، لا أصحاب الحلبى فقط ، يعيشون كرجال ..

ولئن عادوا عن الاضراب ، فقد نزلوا عند وعود تحقق بعضها ، ولم يتحقق البعض الآخر . وقد اضطرت السلطات خلال الأيام التى عقبت المظاهرة الى زيادة كميات الدقيق المعطاة للأفران ، ووعدت باطلاق سراح الموقوفين ، لكن ذلك لم يحدث .

١٤

ونقل فارس وعبد القادر والمعتقلون الجدد من اللاذقية الى حلب ، وعرف فارس خلال الأيام الأولى للتوقيف تجارب كثيرة مريرة لم يكن يتوقعها أبدا .

فحين أخذ عبد القادر الى قبو التعذيب ، ظل هو مقيدا الى الشبكة الحديدية ، وقد سمع بأذنيه ، طوال أربع ساعات ، كيف يعذب الرجل وكيف يصمدون .

وفي حوالى منتصف الليل ، أخرجوا جميعا من المخفر ، وساروا وسط صفين من الحراس الى السجن ..

كان فارس قد رسم من خلال الأقاصيص والحكايات التى سمعها ، صورة مخيفة للسجن ، وتخيله بناء كبيرا ، أشبه شيء بالقلعة ، له أقبية وسراديب ، وسلالم حجرية مظلمة ، وحوله سور كبير شاهق عليه أسلاك شائكة ، وفيه أبواب حديدية ذات ثقوب صغيرة لدخول الهواء .. وفى داخل هذا البناء رجال مخيفون : شواربهم كبيرة جدا ، وعيونهم حمر كالجمر ، وعلى رؤوسهم طاقيات كتلك التى شاهدها على رأس مشنوق ، وفى وجوههم وسواعدهم وشمات زرق ، وأرجلهم وأيديهم مصفدة بالحديد ، وأجسادهم تنز دما وقد فتحت فيها السياط قروحا هائلة .

وخلال سيره الى لقاء هؤلاء الناس كان يرتجف رغم تجلده ، ويتصور نفسه واحدا منهم ، انسانا راسفا فى القيود ، مطروحا

فى قعر قبو مظلم ، طال شعره ونبتت ذقنه وبات يتشهى رؤية الشمس ونسمة الهواء .

وفى كل خطوة كانت هذه المخاوف تتضاعف ، وخيل اليه انه لن يقوى على احتمال ذلك كله ، وانه سيبكى .. وهنا انتقل خوفه من السجن الى خوفه من الخوف ، فماذا يقول عنه والده وصقر ومحمد الحلبى وعبد القادر وكل الآخرين اذا سمعوا انه بكى .. ؟

كان الخوف من السجن ، الآن ، رأس الخوف بالنسبة اليه ، فقال فى نفسه :

ــ لو سجن الناس جميعا ، هل يبقى فى الدنيا مايخافونه ؟

وبعد مسير ساعة ، أو هكذا خيل اليه ، وصـــل الى حيث يقاد . كان شعوره قاتما ، وقد حجب الليل عينيه ، وحال دون افتضاح خوفه .

دخل الباب الحجرى الكبير ، وتقدم ببطء ، يداه مقيدتان ، وشرطى ضخم يمسك به من ذراعه ، وقدماه تطآن الأرض بصعوبة كأنهما تجران خلفهما سلاسل الحـديد ، وفى مسمعيه يضج صرير الاقفال ، وتساقط المزاليج وصوت انفتاح الأبواب .

كانت واجهة السجن الخارجية على خلاف ما تصور ، مستطيلة كواجهة بناء كلاسيكى بطابق واحد ، وفى الوسط باب حـديدى كبير وراءه حارس ، وعلي جانبيه غرف مستطيلة عرف فيما بعـد انها مهاجع الدرك ومكاتب ادارة السجن ، والى الداخل شـــبكة حديدية يقف فى احد طرفيها المساجين وفى الطرف الآخر ذووهم يومى الثلاثاء والجمعة من كل اسبوع ، وتجرى الأحاديث من وراء القضبان بحضور أحد الحراس .

دخل الباب الخارجى ثم توقف باشـــارة من الدركى حـــامل

المفاتيح ، وبعد أن نزع هذا القيد من يديه ، دفعه الى الداخل ، وقاده دركى آخر الى غرفة جانبية ، لاحظ وهو يغيب فى اعماقها أن باحة السجن ذات الأسوار لا تزال وراء هذا الصف من الغرف.

كان الظلام يغمر الحجرة ، وصمت كثيب يلف المكان ، يقطعه من حين الى حين وقع اقدام الدرك ، أو صفارة حارس مل الصمت فعمد الى ايناس وحشته ..

وقد ود فارس أن يسأل الدركى « متى سيفتح الباب ، وأين اقضى حاجة اذا عرضت ؟ وهل من جرعة ماء للشرب ؟ » لكن الدركى النزق الذى أزعجه هذا الزبون فى هذه الساعة ، أغلق الباب بشدة ، وابتعد تاركا صدى خطواته يرن رنينا مدويا فى اذنى فارس .

مضت ساعة ، ساعتان ، ثلاث ، وتعب فارس من الاستناد الى الجدار ، فجلس القرفصاء ، واضعا رأسه فوق ركبتيه ، واستسلم لنوم عاودته فيه هواجسه وتمثلت له احلاما متقطعة ، مضطربة ، مزعجة أشد الازعاج .

وفى الصباح التالى استيقظ على صخب وضوضاء . فرك عينيه والقى نظرة على ما حوله . كانت الغرفة ضيقة ، قذرة ، وفى احدى زواياها تنبعث رائحة بول ، وعلى جدرانها عبارات واشعار مكتوبة بالرصاص ، تركها الذين مروا قبله تذكارا لمن سيأتى بعدهم ، وقد استقرت نظراته على البيت التالى :

يا ظلام السجن خيم ... اننا نهوى الظلاما ...

والى اسفل قليلا ، وبخط آخر يختلف ، وجد بيتا ثانيا :

ليس بعد السجن الا نور فجر يتسامى

وفى الزاوية التى يجلس فيها كانت اعقاب سيكارات رخيصة ملقاة عند طرف الجدار .

لم يكن يحمل كبريتا ليشعل احد هذه الأعقاب ، وفتش فى جيوبه عن قلم ليقوم ويكتب كسواه فلم يجد ، عندئذ انصرف الى قراءة ما هو مكتوب .

كانت هناك عبارات كثيرة ، عنيفة ، وقرأ كلمة كبيرة مكتوبة بالدم :

« الحرية »

كانت اسماء كثيرة : صباح ، عزيز ، فجر ، طلعة ، عبد الله محمد ... وتواريخ متباينة منقوشة على الجدران .

فكر فارس بعد ان قرأها :

ــ لماذا يسجن الناس ؟

وكالأمنية الجميلة ، الجميلة اكثر من كل الأمانى ، مر براسه هذا الخاطر :

ــ ماذا لو هدمت كل السجون ؟

لكنه ما عتم ان سأل نفسه :

ــ ومن يهدمها ؟

ولا يدرى كيف ، ولماذا ، فكر بعبد القادر :

ــ حين تمتلىء المدينة بأمثاله ...

ثم قامت فى مخيلته هذه المقارنة :

ــ من أشجع : عبد القادر أم محمد الحلبى ؟

وقرر دون وجل :

ــ عبد القادر !

وعاد من جديد الى قراءة الكتابات على الجدران ، وقد أثاره هذا البيت :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

لم يفهم كلمة « مضرجة » فانتقل ببصره الى عبارة أخرى :

« المشنقة أرجوحة الأبطال » .

همس فى سره :

ـ هل كتبها انسان ما قبل ان يذهب الى المشنقة ؟

كانت أعصابه قد غدت أكثر صلابة ، وأحس برغبة لا تدفع الى اضافة كلمة ما الى هذه الكلمات المكتوبة . لم يكن لديه قلم ، ولا دمعه يسيل ، وهو بعد ، لا يعرف ماذا يكتب ، أية كلمة يمكن أن تشبه هذه الكلمات ؟ اى شعر من الاشعار المدرسية التى يحفظها يصلح للنقش على الجدران ؟ لاشك أن الذين مروا بهذه الغرفة يعرفون أشياء كثيرة ..

تمطى وانتصب واضعا يديه فى جيبى بنطلونه ، وجعل يدور فى الغرفة ساهما أسوانا . ولفت نظره بيت شعر فى مكان مرتفع من الجدار ، فلم يأبه له كثيرا ، رغم أنه اجتهد فى تذكر اين سمع الناس يرددون هذا الشعر .

وحوالى الظهر فتح الباب . كان جائعا جدا ، وحلقه جافا كأن الماء لم يرطبه منذ شهور ، وفوق وجنته اليسرى كدمة تنشر زرقة قاتمة تحيط بحدقته كاطار ... لم يكن يشتهى شيئا ، ولا يخاف ، شأنه فى السابق ، اذ لم يجد السجن كما توهم ، وحين ابصر المساجين الفاهم على غير ما تصور ، رجالا مثله ومثل عبد القادر ومحمد الحلبى ... بشرا كسائر البشر ، انما لبعضهم شوارب كبيرة واكثرهم فى اسمال ممزقة تظهر منها لحومهم :

وقد ازداد معرفة بهم حين انتهى التحقيق ، ففى القاووش الكبير الذى وضع فيه ، عاش حياة جديدة ، وقد قص ما جرى معه على عبد القادر ، فضحك وسأله :

ــ هكذا اذن ؟

ــ نعم ... هكذا ، كنت جبانا .

ــ والآن ؟

فرنا اليه باسما . كانت لعبد القادر نظرات صافية تنفذ الى الأعماق .

قال فارس وقد زايلته خيلاء الفخر .

ــ تحسنت .

ــ اما تخاف ؟

ــ لا .

ــ ابدا ؟

ــ ماذا تقصد ؟

ــ أقصد لا تخاف الموت ؟

ــ ولماذا ؟

فابتسم عبد القادر وقد اعتدل فى جلسته :

ــ لأن الموت هو المحك .

ثم أضاف :

ــ كن أقوى من الموت تكن اقوى من الخوف ..

قالها هادئا ، وتناول علبة التبغ ، وطفق يلف سيكارة ببطء ، دون أن يطرح اى سؤال آخر .

القاووش ضيق ومستطيل ، وعلى جوانبه تقوم فرش المساجين وفي عتبته أحذيتهم وقباقيبهم ، وعلى الجدران تنساب في تكاسل ولا مبالاة حشرات كثيرة : بق ، قمل ، براغيث ...

كان فارس وعبد القادر يجلسان على حصير عند طرف الجدار المواجه للباب ، وكانت عتمة تخيم على المكان رغم ضوء النهار .

قال فارس :

ـ واذا لم يكن المرء شجاعا ؟ ....

فقاطعه عبد القادر دون أن يرفع عينيه عن سيكارته :

ـ يتعلم ..

وبعد أن بلل ورقة السيكارة بريقه وصمغها وأشعلها ، اتكأ بظهره الى الجدار وأضاف :

ـ لا تصدق أن الانسان يولد شجاعا أو جبانا . الايمان .. هذا كل شيء ! انا مثلا كنت أخاف ، أما الآن ...

وسكت ...

سأل فارس :

ـ ماذا أنت ؟

ـ لا شيء ، يحسن الا يتكلم المرء عن نفسه .

قال فارس :

ـ ولكنك تضرب مثلا .

ـ صحيح ، الا انني لا احب حتى ضرب الأمثال على هـذا النحو . قلت انك رأيت كتابات على جدران الغرفة التي أوقفت فيها لأول مرة ، عال ، لقد رأيت أنا الآخر هذه الكتابات ، ورأيت

الذين كتبوها ، ويمكننا أن نضرب بهم الف مثل . فأحدهم عذب سبعة ايام متواليات ، قلعت أظافره ، دمى جسمه ، تمزقت رجلاه اما شفتاه فظلتا مطبقتين ..

كان فارس قد سمع أن عبد القادر قلعت أظافره ، سالت دماؤه بسبب تهمة سياسية وجهت اليه فى الماضى فسأل بلهجة الفرح والتأكيد :

ــ اذن أنت الذى كتبت الأشعار ؟

وابتسم عبد القادر :

ــ من قال ؟

ــ ألم تعذب وتقلع اظافرك ؟

ــ نعم ...

ــ اذن أنت هو .

وعاد عبد القادر يبتسم :

ــ لست ذلك الشخص .. صدقنى ، ولماذا تظن ذلك ؟ اكثر الناس شجعان ، الشجاعة اخت المروءة ، أخت الشـــهامة أسمعت ؟ هل أنت شهم ؟ اذن فأنت شجاع .

نهض عبد القادر وسار الى سجين آخر يقرأ فى الزاوية ، وظل فارس مكانه يفكر بما سمع .. ثم عاد اليه وقال :

ــ قم فاغسل الدماء عن وجهك ..

وتنبه فارس الى أن الدماء التى نزفت من انفه عند التعذيب قد يبست على ذقنه ، فقام لتوه وغسلها ، وسرح شعره ، وعاد الى مكانه فى القاووش ، فالفى عبد القادر ينظف المكان :

ـ الشهامة والقذارة لا تتفقان ... اذا كنا لا نستطيع القضاء على الأوساخ ، فيمكننا الاقلال منها ، خذ المسحة ، ارفع الحصير

وشرع المساجين برفع حصرهم ، وطفقوا يمسحون وينظفون ؛ وفارس يركض ويعمل ، وقد استبد به نشاط ومرح .

قال في نفسه :

ـ يمكن للانسان أن يحتمل السجن ، فان أحدا لا يموت ههنا

وفي صبيحة أول يوم من الاسبوع الجديد ، سيق مع عبد القادر وبعض المساجين الآخرين الى حلب ، وقد استطاعوا قبل سفرهم ، أن يرسلوا خبرا لذويهم وبلغ الخبر محمد الحلبي وهو أمام دكانه ، وكان الصفتلي يشرق بدمعه وهو ينقله اليه ، فانتهره صائحا :

ـ ماذا جرى ؟ اخذوه ؟ فليأخذوه ، لا بأس ، سأشرب كأسا على هذه الأخبار ، أما انت فلا خير فيك ، رجل ويبكي ؟ العمى !

واستدار الحلبي لا يلوي على الصفتلي ، ولا يسمع عباراته الأخيرة :

ـ لم يأخذوه وحده ... أخذوهم جميعا ... واطلقوا سراح حسن حلاوة الفران ...

الفصل الثانى

١

سنة ونصف السنة مرت على اليوم الذى اوقف فيه فارس سنة ونصف وبضعة ايام . انها مدة قصيرة فى حساب الزمن ، لـكنها لم تكن كذلك فى حساب الناس .

لعل ايام الشدائد ، ايام الحروب ، تبطىء فى السير . او لعل الناس فى ترقبهم الدائم للفرج ، يرون تلك الايام كذلك .

ومهما يكن من امر ، كانت هذه الايام طويلة ، عسيرة ، نقطت من ايدى الزمن قطرة قطرة ، وضاعت فى اوقيانوس الازلية ، وظل بذلك خيط الحياة مشدودا على وتيرة واحدة حتى ظن الأحيـاء أن الفلك تسمر وانه لا يدور .

وفى غمرة هذا الشعور بتسمر الحياة فى نقطة معينـة من دولاب التاريخ ، عاش الناس أياما شقية ، ممعنة فى الشقاء .

***

فى السجن عاش فارس فتى بين الرجال ، ثم صار رجـلا مثلهم .. أنضجه بسرعة ماراى وما سمع من شئون الحيـاة .. كان فى البدء ، يذكر أهله وحيه ويحس بمرارة لمـا هو فيه .. ثم تباعدت الذكرى ، وتحول القلق الى طمأنينة بحكم العادة ..

غلبه الشوق الى رنده ، واستيقظت غرائزه ، ففكر بالأرمل التى رآها فى دكان المختار ، وبسيدته زوج صاحب المتجر التى تلتمع عيناها الجميلتان .

ثم اشترك بمعركة تأييدا لعبد القـــادر .. وحين جروه الى الزنزانة لبط الباب من الداخل تحديا للذين وضعوه فيها ، ثم ضرب الجدار بقبضته ، فســـمع ضربات من الزنزانة الأخرى ، وأدرك انه ليس وحيدا ، وغنى ..

وكان سبب المعركة جرذ وجد فى جرن العدس ، فاحتفظ به عبد القادر ، وعرضه ، وقت التنفس ، على السجناء ، ليريهم أن ادارة السجن تقدم لهم ، بالتواطؤ مع متعهدى الارزاق ، الجرذان بدل اللحم .

وتشكل وفد للاحتجاج ، وكتب عبد القادر عريضة ، لـكن مدير السجن مزقها والقاها فى وجوه مقدميها ، وازاء ذلك بدأ يهيىء للاضراب .. صار يتغيب عن القاووش .. ينسّـــل الى القواويش الأخرى ، ويتحادث مع السجناء ، ويشرح لهم ضرورة المطالبة بحقوقهم .. ولمـــا رفضت الادارة هذه المطالب ، نفـــذ الاضراب عن الطعام ، وتسرب الخبر الى الصحافة ، فاضطرت الادارة الى التراجع وتحسين الطعام .

لـكن مدير السجن عمد الى الانتقام على طريقته .. صـــار يحمل كرباجه وينزل الى الباحة وقت التنفس ومن حوله رجاله . وأمام السجناء يستدعى واحـــدا من الذين حرضوا على الاضراب أو صمدوا فيه ، ويختلق ذريعة لشتمه وضربه .. وقد يضرب سجينا عجوزا ليرهب سجينا شابا ، أو ينتهر سجينا أعـــرج لأنه لا يمشى بشكل مستقيم ، وقال يوما لعبد القادر :

ــ انتبه ! انا أعرف من اين جئت وماذا تفعل !

ــ معرفتك متأخرة .. فى اضبارتى أكثر مما لديك ، فاذهب واطلع عليها .

ــ مجرم .. لم يبق سجن الا عرفك .

فقال عبد القادر :

ــ أن يسجن الانسان خير من أن يسرق طعام السجناء !

فصاح به مدير السجن :

ــ اخرس ! وغد .. لسوف تحال الى المحكمة العرفية .

وقال عبد القادر :

ــ لسوف أحال اليها لسبب وجيه .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ سأقول لك فى حينه .

فرفع مدير السجن كرباجه وانهال به على عبد القادر ، وأحاط الدرك به وبدأوا الضرب ، ثم جروه الى الزنزانة فبقى فيها خمسة أيام .

وقال فارس فى نفسه : : « عبد القادر ينام فى الزنزانة أكثر مما ينام فى القاووش ! » وتحدث السجناء بالقصة متألمين معجبين وقال واحد منهم :

ــ أنا أعرف عبد القادر .. كان عاملا فى الدباغة ، ثم سجن لأنهم ضبطوا عنده كتباً ممنوعة .

فسأل فارس :

ــ ولماذا هى ممنوعة ؟

قال الرجل :

ـ وما أدرانى ؟ انا لا اقرا أصلا .

وقال سجين آخر :

ـ لابد انها ضد الفرنسيين .

فقال الرجل :

ـ وضد المتنفذين .. هكذا قالوا ، والله أعلم .

واطفئت الأنوار ، ونام السجناء ، وظل فارس يفكر بعبد القادر : « لماذا يفعل ذلك ؟ وهل هو وحده أم معه آخرون ؟ وماذا فى تلك الكتب ! ؟ » .

ولما عاد عبد القادر الى القاووش ، سأله فارس :

ـ هل لديك واحد منها ؟

ـ من أى شيء ؟

ـ من تلك الكتب !

فابتسم ووعد ، لكنه لم يف بوعده .. لم يتسع الوقت لذلك ، لأن معركة نشبت بعد الظهر اختفى على أثرها من السجن .

كان مدير السجن فى الباحة .. كان وحيداً هذه المرة ، وتقدم منه عبد القادر وقال :

ـ الآن تستطيع احالتى الى المحكمة العرفية .

ودوت صفعة .. ثم صفعة ! ونشبت معركة وكتبت الصحف أن تمردا وقع فى السجن قمع لفوره ، وأحيل الذى ترأسه الى المحكمة العرفية ..

***

أما خارج السجن فقد تواترت الحياة الشقية فى ظل الحرب ، وواصل سكان حى القلق حياتهم السابقة الرتيبة .

وكان الصفتلى يجلس كل صباح على دكان عازار الاسكافى ، يدقق ، خلال ساعات طوال ، فى أنماط النـــاس •• يتفحصهم ، يعريهم من ثيابهم ، ويسخر من النساء سخرية قاسية لا رحمة فيها .

ـ فلانة ... آه لو كنت زوجها !

وصادف أن مرت يوما فتاة لعوب فنظر فى وجههـــا حتى دانته ، ثم نظر فى قفاها حتى غابت عنه ، وحينئـــذ التفت الى عازار الاسكافى وقال :

ـ اترى هذه ؟

ولمـــا لم يجبه عازار سأله :

ـ هل وعدوك بوظيفة قاض ؟

فتوقف عازار عن رقع الحذاء وقال :

ـ لو صرت قاضيا لاقترحت قص لسانك .

وابتسم الصفتلى بمكر :

ـ وأنا لو صرت موظفا لاقترحت قطع رج ...

ولم يكمل جملته حتى أحس بلطمة قوية على فوده الأيسر .. كان ذلك حذاء عتيقا مليئا بالمسامير ، قذفه به عازار وهو يصيح :

ـ يا عجوز الـــكلب .. قلت لك الف مرة لا تتعرض لرجلى .

وتناول الصفتلى الحذاء واعاده بنفس الطريقة الى صاحبـــه الاسكافى ، وتراكض اهل السوق ففصلوا بينهما ، ومنـــذ ذلك اليوم ترك الصفتلى الجلوس عند عازار الاسكافى ولفى على محمد الحلبى .

وقد حذره محمد من كثرة الـــكلام ، فنظر اليه وقال مداعبا :

ـ لا تعلق معى .. !

وضحك محمد وقال :

ـ واذا علقت ؟

كان الحلبى طيبا وعفيفا ، يكره ملاحقة النساء ، وينتهر الذين يتعرضون لهن بالغمز واللمز ، فيصيح :

ـ روحوا من وجهى ..

واذا رأى شبابا مخنثين يزجرهم باشمئزاز :

ـ احلقوا شواربكم .. !

وفيما عدا ذلك ، كانت له هو أيضا ، بعض المساوىء ، فبالاضافة الى ماضيه غير الصالح ، هذا الماضى الذى يجمعه بصلة (يقول عنها انها صلة الرأفة) بكل متشرد وخارج من السجن ، كان يسكر دائما ، وقد استطاع أن يقلع عن كل خصاله السيئة ، واقسم انه رمى الخنجر الذى تسبب له بالسجن فى البئر ، لكنه فيما يتعلق بالخمر ، وجد للموضوع وجها آخر ، الا أن أحدا ، لا فى الماضى ولا فى الحاضر ، لم يستطع أن يسكره .

كان يقول :

ـ اشربوا الخمر ولا تدعوها تشربكم ..

فيبتسم بائع الخمر ، أرتين ، ويقول :

ـ خوش محمد ..

وكان محمد من جهته ، يفرض شبه اتاوة على أرتين ، تلك أن يسقيه عرقا غير مغشوش .

ومنذ الصباح ، يضع كأسه وراء ميزان البيع ، وكلما انتهى من فرم اللحم لزبون تناول الكأس فجرع منها جرعة غير قليلة ، وصفق صائحا بأهل السوق :

ـ لحم يا بشر ..

فاذا لم يكن مشغولا وقف على باب الدكان ، وداعب جيرانه ، أو قفز خفيفا كسنجاب ، نشيطا كفتى صغير ، وطاف على الدكاكين يسأل عن أخبار السوق ، أو جلس فى زاوية دكانه حيث يلتقى عنده عادة بضعة رجال ، لا جامعة بينهم سوى جامعة التشرد ، ولا قرابة الا تلك التى تنشأ بين سجين وسجين .

وحين ينشب شجار ، ولو فى طرف الحى البعيد ، يترك ما بين يديه من عمل ، ويتوقف حتى عن فرم اللحم ، ويركض خفيفا ، تهتز الية سرواله وراءه ، ويطق فى رجليه حذاؤه المعقوف الكعب ، ويدخل فورا بين المتشاجرين ، فيفرق بينهم ، ويشرع فى تهدئتهم ، فاذا أعياه هذا الاصلاح ، وتعنت المتشاجرون ، تلبسته سورة من غضب ، وصر بأسنانه وزعق :

ــ خلصنا ، كفى ! لا تتسببوا فى عودتنا الى السجن .

فيجيب أصحابه الذين قد لحقوه :

ــ باطل أبو حميد ..

ويسحبونه جانبا ، ويسحبون المتشاجرين ، وغالبا كان الصلح سيد الاحكام . لكن هذا الصلح ، كان يكلف الحلبى دعوة المتشاجرين الى دكانه ، وتقديم القهوة والسكاير لهم ..

أما فى أيام الشتاء فكانت ناره لا تنقطع ، موقده تنكة فارغة يحشوها بالحطب ، ويشعلها فى وسط الدكان ، فيتعالى الدخان واللهب وتدمع عيناه وهو ينفخ فيها من هنا وينفخ فيها من هناك . فاذا اشتعلت وتضرمت ، وانبعث اللهب السنة حمراء تمتد من بين الدخان وتتصاعد فى عنفات واندلاعات متماوجة ، بسط كفيه فوقها ، وقطع اللهب براحتيه ، ورفع احدى قدميه ، ثم رفع الأخرى ، فاذا دب الدفء فى بدنه ، ترك النار ، وانصرف الى عمله ، وخلفه حولها الزبائن وبعض أهل السوق وأصحابه .

وفى الليالى العاصفات ، حين يرغم المطر والبرد الناس على السهر فى البيوت ، كان أبو رزوق الصفتلى يقرأ لأهل الحى قصة الزير ابى ليلى المهلهل .

ورغم أن الجميع يعرفون انه أمى ، وان ما ينشده من قصة الزير محفوظ ، فانه لا يرضى أن ينشد قبل أن يفتح الكتاب ، ويركز بعناية فائقة نظارته فوق أرنبة أنفه لافا خيط طرفيها حول أذنيه ، ثم يشرع وقد اتخذ سمات الوقار والزهو الفارغين بانشاد مفجع ، انشاد لا قاعدة له ولا لحن ، فيرفع عقيرته حتى لتظن انه يقاتل ، ويخفضها حتى لتخاله يهمس ، ويسرع حينا ، ويبطىء حينا آخر ، ماطا بعض الألفاظ مطا لا تستطيع وأنت تسمعه الا أن تغرب فى ضحك شديد . فاذا بلغ مقطعا فيه أن الزير اطار مائة رأس بضربة واحدة ، صاح أحد السامعين :

ــ خلط ، مائة رأس ؟ معقول ؟

ــ اى معقول ..

ــ الزير فارس ..

ــ ولكن مائة رأس ؟

ويضطر الصفتلى الى اغلاق الكتاب ريثما تنتهى المذاكرة ، ويغتنم الحاضرون فرصة توقف الانشاد ، فيمد كل منهم يده الى علبته ويلف سيكارة ، وسرعان ما ينعقد الدخان فى الجو فيحيل الرؤوس الى هالات نصف مرئية بينما تكون المناقشة محتدمة ، والخلاف واسع الشقة ، وكل يصيح محاولا التأثير بصياحه على من حوله ، لكن الغلبة فى النهاية تكون لأنصار الزير على أنصار جساس قاتل كليب ، أو للقائلين بأن الزير يحصد مائة رأس بضربة على الذين يشكون فى قدرته على فعل ذلك .

وبالمقابل كانت الشتائم تنهال على جساس ، أما الجليلة (وهذا لقب امراة الصفتلى ، أما ابنه فيسمونه الجرو وبنته اليمامة) فكانت تبكى منذ أن يقتل كليب ، ويعلو بكاؤها حين يطلب الى عبده أن يجره الى البلاطة كى يكتب بدمه الى أخيه الزير ، وثمة رجال تدمع عيونهم عندما يشرع الصفتلى بانشاد ابيات الوصية ، ولعل الصفتلى أيضا يبكى ، وتنقط دموعه مع تموجات صوته الذى يغدو شجيا عليه مسحة أسى ، واذ يصل الى هذا البيت من الوصية :

وسادس بيت قلت الزير خيى ..

يصيح الحلبى :

ــ لعينين خيك ..

ــ ويصر بأسنانه ، ويقضم شعر شاربه ، وتتقلص عضلات وجهه الضامر وتبرق عيناه السوداوان ، ويميل طربوشه الى وراء ، ويكرر الصفتلى الانشاد .

وسادس بيت قلت الزير خيى شديد البأس قهار العدا

فيصيح صقر :

ــ عليهم أبو ليلى ..

وتومض فى العيون اشراقة من عزم خبىء ، كما تشع النار اذ نفج عنها الرماد . لكن الصفتلى ما يكاد يصل الى هذا البيت ، وهو ختام الوصية ، حتى تذرف النساء دموعهن دون تحفظ :

وعاشر بيت توص باليتامى ودللهم كرامة لى أنا

حينئذ تأخذ الجميع رهبة ونقمة ، ويصمت أكثر الناس حبا بالثرثرة ، وتعود النفوس الى طبيعتها الكريمة ، ويستمر

الصفتلى فى انشاده ، والجميع واجمون ، حتى اذا وصل الزير لأخذ الثأر ، تعلو همهمتهم كالهدير ، وتتهلل وجوههم من قتامها ، وتنطلق عيونهم بفرح حقيقى ، وتبتسم النساء ، ويقول قائل من الحاضرين :

ــ اضرب ..

لكن الزير يقع ، دون حسبان ، فى حفرة حفرها له جساس ، واذ ذاك يعاود الوجوه أساها ، ولا يزايلها الا وقد خرج الزير منتصرا على خصمه !

***

أما أبو فارس فنادرا ما كان يسهر خارج البيت . ذلك أن قفير النحل ــ كما كان يسمى الدار ــ يطن من الصباح الى المساء ، وتشكل مخلوقاته عالما بذاته . وهو ــ المعمار ــ يعود منهكا من العمل ، فما يكاد يغتسل ويأكل حتى تمد الجاجة رأسها ، ويتبعها الفحل ، وأم صقر ، وصقر ، ويأتى الجيران ، وتبدأ السهرة بالحديث عن الشغل والحرب والذين فى سجن حلب .

واذ تذكر أم فارس ولدها تبكى ، أما أبو فارس فلا يبكى ولا يضحك ، ويكتفى بالتدخين وتلك سلوته الوحيدة .

ويشرب محمد الحلبى وينفخ ، ويشير الى الجنود ويبصق :

ــ كانت مصيبتنا بالفرنسيين ، فأصبحت بالفرنسيين والانكليز .. والاوستراليين أيضا .

وذات يوم عصفت بالحى عاصفة من غضب جموح ، حسبت لها السلطات حسابا بعيدا ، ذلك أن بنت مصطفى الصيداوى عادت الى البيت ممزقة الملاية ، لقد اعتدى عليها جندى انكليزى

ثمل ، فما كان من شقيقها الا أن سحب خنجره على خمارة فيها عشرة جنود ، فتصدى له الحلبى ومنعه . وقال وهو يرتجف :

ـ اتركهم ..

ونظر الشاب الى الحلبى نظرة عتاب وقال :

ـ انت ؟! .

واحس الحلبى الوخزة اليمة فى قلبه ، فانتفض من مجلسه واقفا لا يدرى ما يفعل .

كان بضعة رجال قد تجمعوا ، وخيل الى الجميع أن الحلبى سيصفع الشاب ، لكنه ما لبث أن هجم عليه وقبله :

ـ انا ؟! .

وبكى الحلبى ..

وتوترت أعصاب الناس من حوله وقال أحدهم :

ـ اتبكى ؟!

لكنه ظل يبكى .. وكان جسمه يرتعش وشفتاه الرقيقتان قد تقلصتا وانفرجتا عن أسنان حادة تصر فيسمع صوتها .

قال موجها كلامه الى الشاب :

ـ أنت أعزل وهم مسلحون .. فاذا هجمت عليهم قتلت ، واذا قتلت أنت فلن أبقى حيا أنا ، وسنذهب رخيصين .. وسيذهب كثيرون دون فائدة .. هدئوا أعصابكم الى الليل .. الى الليل فقط ..

لكن الليل ، وقد أتى ، لم يحمل الى الحى الثأر المنتظر ، بل على العكس اعتقل شقيق الفتاة ..

وفى اليوم التالى جاء رئيس البلدية والمختار وضابط

انكليزى فاعتذروا لوالد الفتاة ، وقال الضابط ان الشاب أوقف حتى لا يقع ما لا يحمد عقباه ..

فقال مصطفى :

ــ ما لنا عندكم دعوى ..

وذهبوا كما أتوا ، ونسى الحى الحادث أسبوعا ، ثم أفاق وقد ملأت شرطة الجيش الأجنبى الشوارع .

ــ ماذا ؟

ــ قتل جندى انكليزى ..

وظلت التحريات نهارا كاملا ، وأوقف شقيق الفتاة والحلبى ، وبضعة شبان آخرين ، ثم أطلق سراحهم لأن اثباتا واحدا لم يقم ضدهم ، ومع ذلك قال الجميع :

ــ هذه ضربة الحلبى ..

فنفى الحلبى الخبر .. لكنهم لم يصدقوا ، قالوا فى سهراتهم :

ــ ما باله ظل أسبوعا يقاتل الذبابة اذا أوقفت على وجهه ، ثم فجأة عاد هادئا مبسوطا ؟

وضحكوا من كل قلوبهم وهم يرددون :

ــ ياله من عظم أفعى ..

لكن « عظم الأفعى » أوقف فى نفس الأسبوع ، فانتشر الخبر فى الحى كالبرق ، وذهب وفد الى السراى محتجا ، وضع أحدهم خنجره على طاولة المحافظ دون أن يتكلم ..

كانت عادة وضع السلاح على مكتب صاحب النفوذ أو السلطة عادة قديمة ، لكنها متبعة ، معناها « ان الأمر لن يمر بسلام » .

وفهم المحافظ المقصود من ذلك ، الا أنه انتهر الشاب وهدده وعنفه وسعى حتى أفرج عن الحلبى ، فعاد الى دكانه .. وعادت فى الليالى التاليات ، الزجاجات الفارغة تتحطم على باب الخمارة .. وفهم صاحبها أنه هو المقصود هذه المرة .. فرفض بيع الخمور للأجانب .. ثم افتتح فرعا آخر فى حى « النصارى » وأرسل زجاجة عرق الى الحلبى فردها .. وقال له وهو يربت على كتفه :

ـ ما أردنا قطع رزقك ، لكننا لم نعد نحتمل .

فقال الرجل :

ـ فهمت عليك ..

وامتنع بعد ذلك عن بيع الخمر فى الحى الا لأهل الحى .. لكن اغلاق الخمارة ليلا لم يكن كافيا لمنع الجنود الأجانب من طواف أزقته والصياح كلما صادفوا امرأة :

ـ فطمه ! .

وقال الرجال « لنمنع نساءنا من الخروج ليلا » وامتنعت النساء ، وامتنع الرجال الذين لا يحبون المشاكل .. وظلت المدينة كمعسكر كبير .. ووقع قتيل آخر فى الحى ، ووقع قتلى آخرون من الجنود فى الأحياء الأخرى ، وأعدم رجل فى الساحة العامة للارهاب ، فانتشر الذعر ، وعم القلق ، وأصبح الرجل يخاف اخراج نسائه ، ويخشى على ماله وروحه ، ففى ظلمة الأزقة أخذ الجنود يتربصون ويعتدون ، ويسلبون المارة ، ويترنحون من السكر ، ويعربدون ، ويتضاربون ، ويقذفون الصبايا بزجاجات الخمر الفارغة حتى فى رائعة النهار ، ويزدحمون على الأرصفة ، ويغتصبون ما تطاله يدهم وهم يقهقهون ..

أما النساء اللواتي يقعن في أيديهم فكانوا يغادرونهن ، وقد زرعوا في أجسامهن امراضا لا حصر لها ، وفي أحشائهن أجنة لا تعرف أباها .

في حال كهذه ، ذات مساء ، وقفت سيارة في ساحة الشيخ ضاهر قادمة من حلب ، كانت مخلعة لا تكاد تتماسك ، وفي داخلها رص الركاب رصا كالطرود ، فلما فتحت أبوابها عات في داخلها ضوضاء مفاجئة ، ونزل منها عشرون أو ثلاثون رجلا وامرأة وولدا ثم تفرقوا ، حاملين أمتعتهم وأغراضهم ، ولم تلبث أن غيبتهم الشوارع والأزقة ..

كانت الظلمة قد ارخت سجوفها على المدينة ، وبقايا المطر قد تجمعت في حفر الطرق ، وفي أعماق الحوانيت تبص أنوار زرقاء خافتة ، يبدو الناس على اضوائها كالأشباح ، وعربات تجرى فتقرقع عجلاتها معلنة أن بشرا يتحركون في صدر الليل ، والمقاهي مغلقة ، وثمة حوانيت ، على أبوابها جنود سكارى . وعلى احد الأرصفة قعد جندي مخمور ، وتحلق حوله أصحابه يتضاحكون ، ثم شرعوا يركلونه بأقدامهم ، وتناول أحدهم ابريق ماء وصبه على يافوخه ..

استمر الذين نزلوا من السيارة في سيرهم حتى انتهوا الى مقاصدهم ، وصعد أحدهم ميمما شطر القلعة عبر الشارع

الكبير ، فلما بلغ أطراف الحى توقف وتفرس فيما حوله كشاعر يجوس خلل الأطلال ويستلهم ذكريات الأيام ، ثم تقدم ببطء ، يتطلع فى كل خطوة الى الأبنية المجـــاورة وواجهات الحوانيت والمصابيح الزرق .. ويرفع راسه كأنه يرصد التماعات النجوم ، ويمتص ملء رئتيه أنسام الليل .

أخيرا وقف أمام دار قديمة . كان قلبه يطرق طرقا عنيفا ، وعينــــاه معلقتان فى الباب ، وأبصــــاره قد سبقته ونفذت الى الداخل ، ولاحت له وجوه حبيبة الى قلبه .

رفع يده وطرق الباب ، وارتفعت فى أعماقه يد الغبطة تدق قلبه ، وطفقت كل ذرة فى كيانه تعزف نشيد الفرحة المقبلة ، فرحة اللقاء الوشيك ..

وفى اللحظة التى بلغ مسمعيه وقع أقدام فى الدار ســـمع صوتا يسأل بتأفف :

ــ من ؟

ــ فارس !

وهتفت دفعة واحدة أصوات كثيرة متعجبة ، ضاجة :

ــ فارس ؟!

وفتحت أبواب ثلاثة ، وتراكض الجميع فى صحن الدار . كان والده أول الواصلين ، وقد بدا حافيا دون ســـترة ، وفى أسمال غريبة لم يعهدها فيه من قبل ، كأن قوة خفية قد رفعته وقذفته خارج الباب . وحين أخذه بين ذراعيه ، وضمه وقبله ، جعل يمرغ ذقنه النابتة فى وجهه ويهمهم :

ــ يا حبيبى ، آه ، لقــد عدت ، أهلا .. قلت لأمك انك ستعود فلم تصدقنى ..

أما والدته فقد ضمته وبكت ، وقبلته حيثما اتفق لها ، فى عنقه ووجهه ورأسه ، وجعلت تمسح شعره بذقنها ، وتشد به اليهـا كأنها تخـاف أن تكون فى حلم لا يلبث أن يمر ، وتعلق اخوته بأطراف سترته ، وحضنه أصغرهم من رجليه ، ودخلوا به هكذا الى البيت ، يتقدمه شقيقه الصغير مشيرا الى صندوق الكتب :

ـ والله يا فارس ما فتحته ..

وصاح فارس :

ـ بل افتحه ، خذه ، خذوه ..

وقبلته مريم السودا ، ورقعت زغرودة طويلة ، وهى تدور حوله وتفرك يديها ولا تدرى ماذا تفعل ، وابتسمت أم صقر مرمضـة العينين ، وركض صقر ونايف الفحـل .. الا أن مريم ما ابصرته حتى صاحت به :

ـ هات بابور الكاز ..

فتحرك ومضى طائعا ، كان يلبس فسـتانا عتيقا معرقا ، فضحك فارس ، وقالت مريم السودا :

ـ مثل ما انت شايف .. لبس فستانى ..

وجلس أبو فارس على الحشية ، وجعل يربت على أخرى قربه ، داعيا ابنه الى الجلوس ، وملأت أم صقر التنكة ، ورفعتها على النار ، وتقدم صقر وهو ينظر الى فارس ويبتسم :

ـ اشتقنا .. يلعن السجن والذى كان سببه ..

وسأل نايف الذى تكور فى الزاوية :

ـ متى خرجت ؟ اليوم صباحا ؟ الحمـد لله على السلامة .. حدثنا عن السجن ، كيف وجدته ؟

قال فارس :

ـ اى منهما .. سجن حلب أم سجن اللاذقية ؟

وأجاب صقر :

ـ هل تختلف السجون ؟

وكانسان يعتقد أنه يعرف أكثر بكثير من سامعيه ، جعل فارس يقص أخبار السجن ، وهو يرمق والده ليرى وقع كلامه فيه : « السجن ؟ ماذا أقول لكم ؟ تصوروا حفرة عميقة ، بئرا سد فمها ، وفتحت فى جوانبها العليا ، عند حوافيها كوى صغيرة مشبكة بالحديد ، وتصوروا بعد هذا انفسكم داخل هذه البئر ، تحسدون غيركم على نسمة الهواء وخصلة الشمس » .

قال نايف الفحل غير مصدق :

ـ بئر ؟

ـ تقريبا ..

ـ وأنتم فى داخلها ؟

ـ نعم !

ـ وماذا تصنعون ؟

ـ ماذا تظن ؟

قال صقر :

ـ يبكون أو يضحكون .. ويغنون اذا شاءوا .

فاحتج فارس :

ـ اما الضحك والغناء فصحيح .. لكن البكاء لا .. !

ثم استدرك :

ـ فى الحقيقة ، سمعت مرة سجينا يبكى ، كان فتى فى مثل سنى ، سمع نبأ وفاة والدته فأخذ يضرب رأسه بالجدار ليقتل نفسه ويلحق بها ، وجعل المساجين يواسونه حتى تعزى وهدأ ، ثم أقلع عن بكائه ونسى أحزانه مع الأيام ..

ـ والآخرون ؟

ـ من ؟

ـ المساجين ! ..

ـ لا يبكون ..

وسأله والده جادا ، كمن يعلق اهميـــة خاصة على جواب سؤاله :

ـ وانت ؟!

واحتقن وجه فارس :

ـ أنا ؟!

صاح صقر :

ـ باطل ! .

لكن فارسا ما لبث أن اعترف بالحقيقة :

ـ نعم خفت ، لماذا الكذب ؟ خفت فى الأيام الأولى ، ثم اعتدت وتعلمت .

وبدت فى هذه اللحظة مريم السودا على العتبـــة ، صائحة بفارس :

ـ سخن الماء ..

فقام ومضى ليغتسل ، وقد شيعه والده بنظرة حنان والتفت الى صقر ونايف قائلا بشيء من فخر واعتزاز :

ـ لكم تغير !

وأمنا على كلامه بهزتين من رأسيهما ، وتطلعا صوب البـاب وقد تخطاه فارس فى ذهابه الى المطبخ ، الذى هو حمـام فى الوقت نفسه .

لقد تغير فعلا ، ونقلته حياة السجن من طور الى طور ، فصلب عوده ، واكتملت فتوته ، ونبت شاربه ، وأصبح يدخن !

وقد لاحظ والده كل هذه الأشياء الا التدخين ، ولاحظت مريم السودا انه لم يقبل يدها بعد الاغتسال ، فقالت :

ـ هل نسيت ؟

وضحكت واضافت :

ـ لقد كبرت ، الغربة صيرتك رجلا .

ونظر نايف اليها نظرة عتاب وقال :

ـ فارس لحق والده ..

كاد يضيف : ونحن ؟ الا انه أمسك لسانه فى حلقه بصعوبة .

فقالت مريم وهى أشد منه حزنا :

ـ لا تعترض على حكم الرب !

وقالت أم صقر :

ـ الولد حلو ومر ..

وابتسم أبو فارس وقد أدرك مغزى حوار مريم وزوجها ، ثم غير دفة الحديث فقال :

ـ سنتعشى مع بعضنا اليوم ، هاتوا الأكل ..

وجاءت أم فارس بطبق من قش عليه خبز وكبة وزيتون ، ونهض صقر وخرج ، ولم يلبث أن عاد بعلبة الدبس قائلا :

ـ سنشرب قهوة ايضا ..

وعلى المائدة قلب فارس أرغفة الخبز ، واقراص الكبة ، فارتسمت على محياه انفعالات متباينة ، وتقلصت عضلات وجهه بفعل ما اعتمل فى أعماقه من أسف .

سأله والده :

ـ لماذا لا تأكل ؟

وخجل فارس :

ـ أنا ؟ .. هه .. (وتناول خبزا وكبة وراح يمضغهما) .

وتابع والده تناول طعامه صامتا ، وأخذت أمه تقسم الكبة ، وتضعها أمامه ، واذ لاحظت انه يأكل بغير شهية سألته :

ـ الا تحب الطعام ؟

ـ بلى ..

ورفع والده رأسه وأجاب :

ـ يحب ؟ أى ولد لا يحب طعام أمه .. لكنه كان ينتظر طعاما اشهى ، كان ، بعد هذه الأيام التى قضاها فى السجن ، يتوقع أن يجد غير خبز الشعير وكبة الذرة ..

قال فارس مغتما :

ـ تغيرت الحال الى هذه الدرجة ؟

فأشعل والده عود ثقاب إنار كفيه اللذين كورهما حوله ، واضاء غضون جبينه ذى الأخاديد الطويلة المنحنية ، وجبهته العريضة المتعالية فى ترفع ووقار ، وأضاف كمن يتحدث عن وقائع لا تحتاج الى جهد لاثباتها :

ـ غدا ترى بعينيك كل شيء ..

وسكت راغبا عن الحديث فى هذا الموضوع ، وسكت الذين حوله دون أن يعوا سبب سكوتهم ، ورانت على الجو سكينة لا تطيقها أم فارس ، سكينة ثقيلة ، تفرض نفسها ، فلا يعمل الأب على تبديدها ، ولا يعرف الأبناء ولا الجوار الى ذلك سبيلا .

٣

فى الغد وجد فارس ما أخبره به والده صحيحا ..

قال فى نفسه : « لم يعد ثمة قابلية للعيش عند الناس » .

لكن الناس كانوا يعيشون ، ومنذ الصباح الباكر ، فى نحو الساعة الرابعة ، تبدت له الحياة البشرية بتجددها الخلاق الذى لا ينتهى ..

كانت بقايا الليل لاتزال تغلف حواشى الفضاء ، والمدينة التى لفها الظلام أخذت تتعرى من مئزرها الفحمى ، والناس يستيقظون بالتتابع : الخبازون والجزارون وخدم المقاهى والمطاعم أولا ، والصيادون فيما بعد ، والشغيلة وبقية الناس بعد ذلك .

كان فارس يستدل على ذلك من الأصوات التى تبلغه من الشارع ، أو من سابق تصوراته عن حياة الحى والسوق ، وحين سمع أجراس الجمال تدق كالنواقيس الصغيرة ، مارة فى الشارع ، أصغى اليها بكثير من السرور والاهتمام .

أما والدته ، فقد غادرت الفراش منذ وقع فى سمعها رنين المنبه ، وكان والده قد سبقها فغسل وجهه وصلى وابتهل ابتهالات تصاعدت حارة من أعماقه . ولم يدر هو أهى عادة السجن أم هو المنبه الذى أيقظه باكرا على هذه الصورة . على انه رغم استيقاظه ، ظل مستلقيا يفكر ويحلم . كان ذهنه يعمل بكثير من الصفاء ويستعرض بلمحات خاطفة كل ما مر معه منذ أن غادر البيت فى ذلك الصباح الذى انتهى به الى السجن .

فكر فى تلك الحياة التى عاشها ، وتذكر السجناء وقسوة الحياة وراء القضبان وفى الزنزانات وقال :

— ليس لعبا ان يظل المرء اثنتى عشرة ساعة متوالية ضمن أربعة جدران ..

لكنه ما لبث أن قال :

— ومع ذلك هناك من قضى عليهم أن يظلوا أعواما على هذه الحال ، فظلوا ولم يموتوا .

وبعد فترة من محاسبة وجدانية اضاف :

— ليتنى لم اخف ..

وراح من ثم يتذكر السجناء . تصورهم وقد تحلقوا يتحدثون ، ونظراتهم الحالمة الفرحة ، تخترق ، كأسياخ ثاقبة ، جدران السجن وهم يتعللون بهذا الأمل :

— لابد أن يصدر عفو عام ..

ثم يتخيلون ما سوف يحدث : ذات صباح ، دون أن يكون لهم علم سابق ، يفتح دركى باب القاووش ، ويصيح :

— يا مصطفى ، يا سليمان ، يا خضر .. هيا اذهبوا .. جاء العفو ..

وعندئذ يهرعون بسرعة قبل أن يبدل الدركى رايه ، أو يأتيه قرار معاكس ، وفى اسراعهم الى بيوتهم سيعبون كثيرا من الهواء ، ويحاولون أن يقبضوا أشعة الشمس ، وسيقبلون زوجاتهم واخواتهم وأولادهم ثم يقولون :

ــ خلصنا ، عدنا مثلكم ..

وبانتظار العفو الذى هو حلم كل سجين ، حتى الذاهب فى الصبيحة التالية الى المشنقة ، يعرفون كيف يعطون للحلم نصيبه من الحلم ، ويعملون جيدا بهذا الشعار :

« لا تفكير بما هو فى الخارج » .

ويقول المحكوم مدة طويلة منهم :

ــ لا يقهر السجن الا الرجال » .

وقال فارس فى نفسه : « عبد القادر من هؤلاء الرجال ! »

ثم رفع فارس راسه عن الوسادة وهتف بوالديه :

ــ صباح الخير .

ورد والداه معا :

ــ صباح النور .

واضافت أمه :

ــ افقت باكرا يا عين أمك ؟

فقال فارس وهو ينهض :

ــ اشتقت اليكم والى الحارة والسوق .. ثم لابد من تدبير عمل ، ألم يكفنى ما تعطلت ؟

وثرثر بأشياء كثيرة ، فاصغى اليه والده دون أن يقول شيئا ، وشرعت والدته باعداد الطعام ، وازداد دبيب الحياة

فى الخارج ، وتجلت شارات النهار فى صفحة السماء ، خيوطا أرجوانية وحليبية ، وتوهجا من شعاع الشروق المقبل .

وفجأة وقفت رنده بالباب وألقت تحية الصباح .. فقالت أمه :

ــ عاد فارس يا رنده !

الحمد لله على السلامة يافارس .

وتمتم هذا ببضع كلمات وهو ينظر الى فتاته التى نضجت .. لاحظ أن صدرها ، الآن ، أجمل من صدر زوج صاحب المتجر والأرمل .. ورأى ابتسامة على شفتيها واحمرارا على محياها فأدرك ، من ارتباكه ، انها مثله .

وقالت أمه :

ــ رنده تشتغل فى الريجى .. وقد كسرت شوكة رشيد أفندى .

فابتسمت رنده وأكملت الأم :

ــ حاول أن يشتمها .. فقذفته بخيط التبغ !

قال فارس :

ــ برافو !

وراح ينظر اليها بافتتان ووالده يراقبه ويسر فى نفسه :

ــ فارس لم يعد طفلا !

والتقت عينا فارس ورنده خلسة ، ونبض قلباهما ، وتمتمت الشفاه كلمات غير مسموعة ، لكنها مفهومة من الاثنين .

بعد دقائق خرج والده الى شغله وخرجت أمه أيضا تتبعها رنده ، وظل فارس يراقبهما حتى غابتا ثم انكفأ الى المرآة ،

فأسف ، وربما لأول مرة فى حياته ، لأن مظهره لم يكن افضل مما هو عليه . كان شعره حليقا . وهذه العلامة الفارقة هى الوحيدة الباقية فيه من علامات السجن . وذقنه نابتة ، ففكر فى حلاقتها وشرع بذلك فورا . مستشعرا نشاطا وفرحا يفعمان كيانه كله . وفجأة راح يدندن أغنية بلدية شائعة ، ويرتدى ثيابه على عجـل ، وقد استحال الوجوم فى ذاته غبطـة ، وبدت الصبيحة على خلاف ما توقع ، متألقة ، جميلة . وعلى الجدران شرعت ترتسم خطوط افقية ودائرية ، وجعلت هذه الخطوات تتقارب وتتشابك حتى تجلت صورة ابتسم لها من كل قلبه ، وتأملها بكل جارحة فيه ، وقد ساعده فى هذا التصور خيال مجنح لفتى مراهق .

وطفى شعور ممزوج برعشة لذيذة فخدر حواسه وجعله يتذكر كيف التقت عيناه بعينيها . وكيف حيتـه (الحمد لله على السـلامة) ، وابتسمت له واتكأت متثنيـة الخصر على مصراع الباب تختلس النظر الى الداخل خافضة بصرها .

ــ « على كل حال » قال ذلك وهو يفرك يديه ، ثم تساءل :

ــ ماذا ؟

كان مغتبطا الى درجة لا يستطيع معها تركيز أفكاره فى موضوع معين ، وقد وجد مشـقة فى اعادة الهدوء الى عالمه الداخلى . وحين انتهى من ارتداء ثيابه ، خـرج متمهـلا الى السوق ، ينظر فيما حوله نظرات فاحصة ، حنونة ، مفعمة بعاطفة الود القديم .

وجد السوق كعهده به : مقهى الشاروخ ذاته ، ودكان عازار الاسكافى ذاتها ، ومطعم الجبلاوى بطناجره المصفوفة على الدكة ، وكراسيه المخلعة ، واللوحة المعلقة فى الصدر « هذا من فضل

ربى » ، وقد سود الهباب اطارها ، ودكان حكمت الحلاق ، وارتين بائع العرق . كل شيء كما كان ، حتى الوجوه لم تتغير ، سوى أن الضجة المعتادة قد خفتت ، وناخ شيء ما ثقيل على الصدور .

تقدم وهو يطأ الأرض وطئا خفيفا ، وراح يسلم على معارفه وأصحابه . وقد كان الشاروخ يجلس فوق طاولة عند الباب ، فلما رآه صاح مداعبا :

ــ اهلا ، متى خرجت يا أزعر ؟

ومط ابو رزوق الصفتلى راسه من بين كتفيه ، كسلحفاة قد أمنت الخطر ، فلما أبصره وقف وهتف :

ــ فارس ! يا أهلا ..

وركض نحوه فتصافحا . بل ان الصفتلى قبله وضمه الى صدره ، ثم جاء الجبلاوى بأسنانه النخرة القذرة ، كأن صلصالا قد تراكم عليها ، ومن آخر السوق شوهد محمد الحلبى يهرول ، وركض أجير حكمت الحلاق ليخبر حسن حلاوة الفران . أما جريس المختار فكان يقف فى صدر دكانه يحاور امرأة حمراء الشعر ، بارزة عروق الرقبة ، يملأ النمش وجهها ويديها . كانت المرأة تصيح فى وجهه :

ــ انت ما عندك عدل !

ــ كفى شرك يا حرمة .

وصاحت الحرمة :

ــ شرى ؟

فنفخ المختار واستعاذ بالله .

ـ اكفينا الشر يا مستورة .

ـ شرى ؟ شرى انا ؟ أين بطاقة الخبز ؟

- قلنا كفى شرك وقولى يا صبح .

فعوت المستورة :

- دبر البطاقة من تحت الأرض ، ما عدت صدقك ، أنا أفقر من الكل .

فصاح محمد الحلبى وهو يجتاز الشارع :

ـ اعط المستورة بطاقتها .

الا أن المختار تظاهر انه لم يسمع . وتوقف ارتين الخمار عن غسل الكؤوس وقال بلغة عربية محطمة :

ـ يا هو فارس « محبوسية » خلاص ؟ .

وقاطعه الحلبى كأن له ثأرا معه من أمس ، وانتهره بنفس لغته المحطمة :

ـ محبوسة خلاص ، هات عرق ..

اجاب أرتين متظاهرا بالكياسة :

ـ على راسى .. على رأسى ، بس ..

والتفت حواليه ، واذ وجد الشارع مقفرا من الشرطة أسرع فملأ كأسا وضعها فى طربوشه وحملها الى دكان الحلبى التى كان فارس قد وصل اليها ، يحيط به الشاروخ وحكمت الحلاق وابو رزوق الصفتلى وأجير حسن حلاوة الفران ، الذى أوفده معلمه ليسترق له الأخبار .

سحب الحلبى السكين وقطع بها بعض اللحم وهو يقول :

ـ هذا لك .

وجعل فارس يعتذر . ويتلفت حواليه ويتســـاءل « ماذا فعلت ؟ لم كل هذا الاحتفال ؟ » واقترب منه أبو رزوق الصفتلى فلكزه فى ظهره وهمس :

ــ كل ، لا تستح ، أكل اللحم طيب ، يوم كنت فى البرازيل .

ثم تكور وقعد على عتبة الدكان ، ومضى فارس يقص على اهل السوق ما جرى له فى السجن ، وأجير حسن حلاوة الفران يصغى بانتباه ويده فى جيبه تعبث بقطعة صغيرة من النقود ..

واخيرا سأل فارس عن العمل فقال الصفتلى :

ــ لا تتعب .. رؤية النجم فى الظهر اسهل !

وقال الحلبى :

ــ لو كانت بيدك صنعة !

وأرهف أجير حسن حلاوة الفران أذنيه ، وتابع عبثه بقطعة النقود فى جيبه .

***

أما فى مستودع التبغ ، فقد جلست أم فارس الى عملهـــا سعيدة هذا اليوم . كانت غضون جبينها تكاد تضىء بما يلتمع فى أعماقها من فرحة حلوة بخلاص ابنها . وقد أبلغت النبأ الى كل من لقيته فى طريقها . حتى بائع الحليب ، القت عليه تحية الصباح وقالت :

ــ هل سمعت ؟ فارس طلع من السجن !

فسألها البائع بغير اكتراث :

ــ ومن هو فارس ؟

فابتسمت فى شىء من عتب :

ـ فارس ؟ اما ضرب حسن حلاوة الفران ؟

ـ ولماذا ضربه ؟

ـ لأجل الخبز .

ـ هم ..

وزم الحلاب شفتيه زمة خفيفـــة ، واذ فطن الى موجبات اللياقة ، نطق بهذه العبارة وهو يرفع تنكة الحليب عن الأرض :

ـ الحمد لله على سلامته .

ولم تسمع أم فارس آخر العبارة لأنها تحولت الى خليل النجار تزف اليه النبأ :

ـ أسمعت ؟ فارس طلع من السجن !

وحين انتبهت الى أن رنده تنتظرها ، تابعت السير وأوسعت خطاها قليلا ، لكنها ما عتمت أن توقفت من جديد ، ثم ســـارت وتوقفت ، وكلما لقيت احدا تعرفه بادرته بتحية الصباح وقالت :

ـ هل سمعت ؟ فارس طلع من السجن !

كانت رنده تتململ خوف التأخر عن الشغل ، لكن لذة لا تدرك مأتاها كانت تمازج هذا التململ وتحيله الى سرور ورضى . وبعد أن وزعت أم فارس نبأها المفرح على جميع من لقيتهم ، واصلت سيرها حتى بلغت مستودع التبغ ، فدفعت الفتاة أمامها ، وتوقفت هي عند الباب .

ـ هل سمعتم ؟ فارس طلع من السجن !

وقال عامل طاعن فى السن :

ـ وهل هذا كل شيء ، من ير فرحتك يحسب أن الحرب انتهت ..

وقال عامل آخر :

ــ كلاهما خبر سار ..

وهز راسه صامتا ، معلنا عجزه عن التعبير ، بينما تابعت ام فارس طوافها على الحاضرين :

ــ هل سمعتم ؟ فارس ، ابنى ...

ضج رشيد افندى وصاح مقاطعا :

ــ سمعنا ، فارس طلع من السجن ، تفضلى الى شغلك .

وتفضلت ام فارس وهى تبتسم ، كأن سخرية رشيد افندى لم تلامس سمعها قط . وظلت ، طوال ساعات ، تصف همسا تارة ولغطا تارة أخرى ، كيف وصـــل فارس وكيف فتحت له الباب ، وكيف عانقته وبكت ..

وكانت رنده الجالســـة الى يمينها تتـــابع كلامها باصغاء تام ، مرهفة الأذنين ، تستجد الألفاظ فى ســـمعها كأن أحرفها قد استحالت الى أنغـــام .. شيء واحد كان ينغص عليهـــا فرحها الداخلى ، ذاك هو شعورها أن العاملات حولها يتغامزون عليها ويفكرون فى علاقتها بأم فارس . أما العاملات فكن منصرفات الى ما بين أيديهن من تبغ ، لأن علاقة رنده بأم فارس لم تكن حديثة ولا غريبة ، الا أن الغرابة كانت ذاتية محضة ، تحسها فى قرارة نفسها وتتدبرها فى خاطرها وهى تطـــرح على نفســـها أسئلة مثيرة « كيف ؟ ومتى ؟ ولماذا نظر الى وابتسم ؟ » واذ تهتدى الى ردود ايجابية مقنعة يتلألأ جذل سحرى فى عينيها وتتنضر وجنتاها كحمرة براعم الورد .

٤

بعـد أن طعم فارس عند محمد الحلبى ، وقص على أهل السوق قصته فى السجن ، توجه الى الست برباره فى النادى الذهبى ..

كان النادى يتوسط شارع « فرنسا » بين البحر والقلعة . وعلى مقربة من تقاطع الطرق حيث ينتصب ، كشـجرة حور صغيرة يحرك الهواء غصنيها ، شرطى السـير يعطى شـارات المرور .

وقد شرع فارس ، الذى اعتاد معاونة الست بربارة بتقشير البطاطا وتكنيس النادى وغسل الصحون ، يفكـر فيها طوال الطريق ويتذكر انفها الكبير المحدب ، وجبهتها العريضة الناتئة ، يعلوها شعرها الكثيف المستدير ، بكل بياضه وتجعداته ، ويحيط برأسها ، فوق جسمها الطويل الضامر ، فيبدو كقبة من قش فوق مشجب خشبى غير مستقيم .

كانت هذه الصورة الطريفة مضحكة الى درجة خشى معها أن يغرب فى الضحك وهو يرى معلمتـه القديمة ، لكنه تذكر وجهها الصارم فعاد اليه جـده ، ومضى اليها آملا أن تدبر له اى عمل .

وحين بلغ الموضع الذى يعرف أن النادى يقوم فيه ، توقف لحظة قبل أن يدخل ، اذ وجد على باب المبنى جنديا مسلحا ولوحة كبيرة مكتوبة بلغة اجنبية .

سأل أحد المارة :

ـ ماذا هنا ؟

وتطلع فيه المار ولم يجب ، فمضى الى دكان قريب وسأل :

ـ أين الست برباره ؟

ـ رحلت !

فتابع طريقه وقد صدمه هذا الخبر غير السار .

الشارع الطويل المستقيم يفضى الى البحر ، ومن بعيد ، فى المنحدر المنتهى بالساحل ، تبدو الأمواج الزرق ، ويطل اليم مقفرا من السفن ، تحوم فوقه طيور بيضاء ، ترتفع وتنخفض ، ثم تحوم وتذهب الى بعيد . وعلى الرصيف ، قرب مبنى المصرف الكبير ، يضطجع عجوز أعمى ، ملتصقا بالجدار ، وابنه الصغير وقد انفلت منه ، يلاحق شيئا ما على الجدار ، لعله نملة تدب بين الشقوق . وعند تقاطع الشارع قبالة المصرف ، يدق بائع الحلوى بمقطعه على حافة الطبق النحاسى مناديا بصوت جهورى ، ومن بعيد يسير بضعة أشخاص مطرقين ، يلاحقون أفكارهم الدارجة أمامهم على الرصيف .

فكر فارس « أين أذهب ؟! » ودون سبب واضح اسود مزاجه وتلبسه شعور يائس فقال فى نفسه « لن أجد عملا » .

كان الوقت الذى قضاه بين خروجه من السجن وساعته تلك قصيرا بسيطا ، ومع ذلك أحس أنه سيشقى ويبقى فى العاطلين ، وعزز هذه السوداوية فى نفسه ما سمعه من والده وأهل السوق ، وزاد فيها أنه عرف هذا الصباح لونا جديدا من الاحساس يحتاج الى لون جديد من الحياة ، لا يتأمن بدون عمل .

فى هذه اللحظات المتخمرة بالقنوط ، عاودته ذكريات السجن . ومن عجب انه لم يذهب فى استنكارها ما كان يذهب قبل الآن . قال فى ذاته :

« السجن أفضل ، هناك لم أكن أفكر بالعمل على الأقل .. كنت مرتاحا من هذا العذاب » .

وبعد ان انقطع كل رجاء فى نفسه قامت فى ذهنه هذه المقارنة :

« أيهما أقسى .. السجن أم البطالة ؟ » .

أعترف أولا ان « البطالة أقسى » وما لبث أن غير رأيه فقال « بل السجن أقسى » ، وبعد أن طغى يأسه شتم البطالة والسجن والوجود دفعة واحدة ، وتابع سيره الى البحر ، وقد تبدت له على الشاطىء « نقطة » عسكرية فى الموضع الذى اعتاد أن يستحم فيه مع أترابه . واذ مر بمستودع للتبغ تذكر رانده فالتمع فى ذهنه خاطر مفرح ، لكنه ما عتم أن عاد الى شأنه ، محاولا نسيان هذه « الزهرة » التى نبتت فى غير أوانها ، خادعا نفسه بالفكرة التالية : « لا يليق بالفقير أن يحب ويتزوج » . ولما بلغ الشاطىء اعتلى صخرة كبيرة تمتد كرأس تمساح فى الماء ، والأمواج تلطم قاعدتها لطما عنيفا ، والرذاذ المتطاير يرش ما حولها ، والماء يغمر الصخور فيغسلها ، وينحسر عند جزر الموج فتبدو قاعدة الصخرة معشوشبة متآكلة ، واذ يعاود البحر مده ، تثب الأمواج غضبى الى الساحل ، فتتحطم وتعود مزقا تاركة بقايا الزبد على حوافى الصخور .

خيل اليه أن الصخرة تنشج نشيجا فيه نواح وبكاء ، وأن الرياح والأمواج والسماء تشترك جميعها فى هذا النشيج ،

وتذكر ماضيات الأيام ، يوم كانت الصخرة مجلس السمار فى ليالى الأقمار ، فحسبها تبكى صباها ، وتعدد ذكريات ماضيها ، وانصت بكثير من الذهول الى صفير الريح فى شقوق الصخور ، وتطلع الى جبال الأمواج القادمة تتدافع من بعيد ، والى الخضم الصاخب وقد استحالت زرقته الى اغبرار ، وخرجت أعماقه الى اديمه . وحملت ذوائب الأمواج أسراره الى الشاطىء لتذيعها حكايات حكايات على الناس .

وفى الأبعاد استبان شيئا ما أسود يضطرب بين الأمواج ، فخطرت له خاطرة السوء هذه « قد يكون هذا الشىء جمجمة ملاح حطمت زورقه العاصفة . أو رأس صياد قلبت الرياح قاربه » . وتصور فى لمحة ذهنية خاطفة ، نساء هؤلاء الصيادين والملاحين . ينتظرن على عتبات البيوت . وأطفالهم يطلون من النوافذ محدقين عبثا فى الطريق ، مترقبين عودة آبائهم حاملين اليهم السمك والطعام .

تراجع عن الصخر . وطفق يمشى على امتداد الساحل وعيناه تتابعان الشىء الأسود المضطرب بين الأمواج ، وفى أذنيه ترن أغنية حزينة . خيل اليه أن امرأة تنشدها فى مكان ما هذه الساعة :

« يا بحر هد الموج فيك حبابنا »

لكن الموج كان يعنف . والبحر يشتد ، وهو يسير ، وأصداء الأغنية تسحب وراءه خطا طويلا من الأفكار .

٥

بعد الظهر قصد بيت معلمه صاحب المتجر فرن الجرس ، واصلح ياقة قميصه فطواها تحت قبة جاكتته الخلقة .

سألته الخادم حين فتحت له الباب :

ـ ماذا تريد ؟

ـ الست !

ـ الست ؟

ـ نعم .

فكرت الخادم قليلا ، دون أن يبـــدو عليها انها تذكرته ، وكادت تغلق الباب دونه لولا أن خطا الى الداخـــل قاطعا عليها الطريق ، فانصرفت هى الى مناداة معلمتها ، وراح هو يجيل ناظريه فى ردهة البيت .

كانت تقوم فى صدر القاعة صور فوتوغرافية كبيرة لمعلمه ، تطل من اطار خشبى كبير محلى بماء الذهب ، وترف على محياها ابتسامة اسوانة ، والى جانبها صورة كبيرة أخرى ، وســط اطار من نفس الحجم والشكل ، عرف فيها رسم معلمته الشابة ، ولأمر ما كانت الصورة ترنو الى الجدار المقابل ، مفسحة للناظر اليها ان يتأمل جانب الوجه البيضوى الجميل ، والأنف الدقيق ، والشعر المنسدل على الكتفين ، يغطى جانبا من الرقبة .

وعلى الجدران علقت لوحات أخرى مختلفة الأحجام ، يمثل بعضها جيوشا تقتتل ، وجنودا بشوارب كبيرة يشهرون أسلحة من القرون الوسطى ، ويعتلون صهوات الخيول ، ويمثل بعضها الآخر طائرات ومدمرات ، وقادة عسكريين يتحلقون حول خريطة يرسم احدهم عليها سهما منطلقا الى هدف .

اعادت هذه اللوحات الى مخيلته ذكرى معلمه الذى ذهب الى الحرب ولم يعد ، وكان جو الردهة الموشحة جوانبها بالسواد يوحى اليه أن روح المرحوم لاتزال تحوم فى الفضاء ، وان اصص الزهر ذات الأوراق الخضراء الطويلة ، تتنهد وتزفر بصمت ، والكتب المصفوفة فى المكتبة تترقب عبثـا يدا تمتـد اليها فى مداعبة حنون ، وقد كساها شعور باليتم فقبعت واجمة ، تاركة للعنكبوت أن ينسج حولها خيوط النسيان . اما المقاعد الجلدية فقد غطيت بأقمشة قاتمة كأن أحدا لم يجلس عليهـا منذ زمن بعيد ، وعبق ثقيل تنفثه الأرض والزوايا والسقف فيغطى وينساح غامرا كل شيء .

كان هذا الجو كله ، مضافا الى ما فى صدره من كمد لا مبرر له سوى الشعور بالضيق ، قمينا بأن يجعله يفتح الباب ويفر ، لكن الخادم عادت بعد قليل وطلبت منه أن ينتظر ، واشارت الى احد المقاعد قائلة :

ـ تفضل ..

جلس فارس دون كلام ، وجعل بعد ذلك يحدق فى صورة معلمه مستعيدا ما تبقى فى ذاكرته من معالم تلك الصبيحة التى رآه فيها لآخر مرة . كانت عيناه حمراوين كأنهما لم تغمضـا ليـلا بكامله ، وفى نظراته شرود وقلق ، وفى حركاته برود ولا مبالاة ،

ومن كل كيانه ينضح جزع غريب ، جزع انســان يتوقع حــدثا لا يرتاح اليه .

وفى اللحظة التى انتقل فيها فارس الى التفكـير بمعلمته ، هفت عليه رائحة عطرة انبأته بقدومها ، وحين خطت على عتبــة الباب مائسة بالسواد ، نهض واقفا مرتبكا ، حائرا بين أن يقبل يدها او يبسط راحته على صـــدره وينحنى فيحييها . ولم تطل حيرته تلك اذا انقذته منها معلمته حين ردت تحيته من بعيــد ، وسألته ، باختصار ، عما يريد .

قال :

ــ لا شيء ، جئت لأراكم :

فتفرست فيه وقــد تردد فى خاطرها ســؤال مبهم ، فيه استنكار وفضول ، واذ خطرت لفارس انها لم تعرفه ، عاد فكرر عليها اسمه ، واذ ذاك هتفت الارملة :

ــ انت ! ؟

ــ نعم ، أنا !

وقص عليها ، وهو مطرق الى الأرض ، ما حدث له بعد أن اغلق المتجر ، وتحدث ، طبعا عن السجن ، ثم ذكر معلمه بالخير وترحم عليه ، وسألها عن الصغير .

ــ اما الصغير فهو بخير ، اعنى بصحة جيدة ، لــكنه يتيم !

قالت ذلك ، وراحت تقص عليه بلهجة مؤثرة كيف جاءهــا النبأ الأليم : « ذات يوم ، بعد سفر زوجى بســـنة ، طرق على الباب ، وطلب منى جندى ان اذهب فورا الى الثكنة . سألت : « ماذا جرى ؟ » فاحمر الجندى وسكت ، وعنـــدئذ احسست بالـكارثة فتعلقت به وصحت « هل مات » ؟ وقال وهــو يجاهد

أعصابه : « نعم مات ! » .

ذهبت الى الثكنة لا أكاد أتبين طريقي . كنت في شك مما سمعت ، ولكم رجوت أن يكون النبأ مغلوطا ، ولكم تساءلت وأنا أسرع ، « أيمكن ذلك ؟ هل مات ؟ هل مات حقا ؟ » .

وقالوا لى فى الثكنة ببساطة :

ــ بلى ، مات !.

هكذا ... لفظوها ببرودة ، كأنما كلمة الموت قد اصبحت عادية جدا لديهم . « مات !؟ »

ماذا !؟ أهو نعجة ؟ دجاجة ؟ شيء لا قيمة له ؟ « مات ؟ » واذن فلن أراه ؟

نصحنى ضابط كبير :

ــ لا تقتلى نفسك حزنا عليه ، فليس المصاب مصابك فقط.. الحرب !

سألها فارس مقاطعا :

ــ وكيف مات ؟.

قالت بعد أن زفرت وتنهدت :

ــ مزقته قنبلة ، هذا ما أخبرنى به ضابط كان معه فى خندق واحد . وقد وصف لى كيف تطاير جسمه مزقا . آه‌ياربى، لا يمكننى أن أستعيد ذكرى تلك الساعات .

لاحظ فارس ان معلمته لا تبكى . قال فى نفسه : « الأغنياء لا يبكون » ثم تذكر ان زوجها أجنبى فقال « لعلها عادة الأجانب ». الا انه ما لبث أن أبصر دمعة تتدحرج على صفحة خدها ، فالتقطتها بمنديلها الحريرى وشرقت بالدمع وراحت فى بكاء اخرس .

كان جسمها لدنا رخصا ، وقد اكتنز بسمنة خفيفة جعلته اكثر استثارة للنفس ، وعيناها ذابلتين ، وشعرها مضفورا بشكل يعطي وجهها الخمرى مجالا لابراز استدارته الجميلة ، وخصرها ضامرا يحيط به زنار ينتهى طرفاه بشرابتين ، وشفتها السفلى تبدو لامعة ابدا كأن عليها رحيقا نديا ، ونظراتها عاودت الابتسام من بين الدمع ، وصدرها ، ذاك ، لا يزال جميلا كما كان .

ـ ماذا تشتغل ؟

قالتها بنبرة فيها ملاطفة وفيها استدراج ، فقص عليها فارس ـ وقد شجعته ـ قصته كاملة ، وأوضح لها انه يلوب منذ الصباح على عمل .

قالت :

ـ ساسعى لأجلك .

وبعد توقف اضافت :

ـ عد غدا ، أو بعد غد . لا تنس !... أمحتاج الى شيء ؟

ـ لا ، شكرا .

اصر فارس على قولته هذه ، متمسكا بكبريائه التى تأبى لها ان تجرح ، ومن ثم شكر وانصرف وهو يفكر بنظرات معامته ، وبدعوته للعودة بهذا الالحاح .

وحين اغلق الباب وراءه ، رفع كفه وشمها فافعمت خيشومه رائحة عطرة ، وقد تمنى صادقا لو جلس الى معلمته ساعة أخرى ... طويلة !.

٦

في عصر ذلك اليوم ، وكان فارس خالى الذهن من مشاغل قلبه كلها ، وجد نفسه بغتة امام رنده .

كانت تسير في الشارع الكبير ، على الرصيف المحاذى لسينما امبير ، وقد ابتسمت له في شيء من ارتباك ، وتجاوز كل منهما الآخر وهو يود لو توقف . ولما ابتعدا قليلا التفتا معا الى وراء ، والتقت عيون اربع في نظرة خاطفة ، ثم تابعا المسير .

غبطة لا حد لها غمرت كيانه كله ،وفرح عظيم أفعم قلبه ، فتوقف بغير ارادة منه ، ودق قلبه دقات سمعها في اذنيه ، ثم وجد نفسه يندفع في الاتجاه المعاكس ، مسوقا برغبة جامحة الى اللحاق بها ، رغبة لم تدع له مجالا ليتساءل «لم أفعل ذلك ؟ وبأى حق ؟» .

أسرع ينحدر صوب البحر ،وقرص الشمس كالورس ، قانيا مدنفا يغطس أكثر فأكثر في البحر ، ومن القباب المجاورة تتصاعد الى الاعالى تكبيرات المؤذنين داعية الى الصلاة .

اصطدم خلال سيره بطفل قفز الى الرصيف فجأة . كان يجب أن يرفع الطفل الذى القته الصدمة أرضا ، لكنه تابع السير مشفقا أن تغيب رنده عن ناظريه . اما هي فقد أحست بغريزة المرأة انه تابعها ولابد ، فاستأنت في مشيتها حين انعطفت الى اليسار ،وسر هو بانعطافها فأسرع ، وظل يلاحقها حتى لم يبق بينه وبينها الا

خطوات ، فأحست هى بوقع خطواته واسرعت امعانا فى الدلال ، واسرع حتى داناها فصاح متلعثما :

ـ رنده !

ادارت راسها نصف دورة وابتسمت :

ـ ماذا ؟

ـ الى أين ؟

ـ ولماذا تسأل ؟

سكت لا يدرى ما يقول ، واذ لاحظت انها قست عليه ، مدت يدها فرفعت خصلة الشعر المتهدلة على جبينها وقالت :

ـ الى بيت خالتي !

ولم يقل شيئا كأنه لا يملك او لا يعرف ماذا يقول . اكتفى بالسير الى جانبها ، وباستراق النظر اليها ، وساد الصمت بينهما حلوا شاعريا ينطق بما لا يستطيعه لسانهما .

قال فارس أخيرا :

ـ هل تمرين علينا كل صباح ؟

ـ كنت أمر .

ـ والآن ؟

ـ كيف تريد ؟

كان شعرها الأسود المتحلق فى استدارة متماوجة على كتفيها المستقيمين ، يكسب قامتها الفارعة مزيدا من الاناقة ، ويجعل

وجهها شبيها بوجه مريم المجدلية ، التى راى صـــورتها يوما فى احد الأديرة .

فكر فى أن يقول لها :

ـ اريد أن تمرى .

لكنه أحس ان هذا الجواب سيجعلها تكتشف كل خبيئـــة نفسه ، فآثر الصمت ، ولما بلغا نهاية الزقاق ، رجته أن يسبقها أو يتأخر عنها .

سألها برجاء :

ـ الن اراك غدا ؟

ـ ربما !

واختفت فى الزقاق الضيق ، فاتبعها ناظـــريه حتى غابت نهائيا ، فعاد ادراجه فرحا بما دار من حديث قصير بينهما . لكنه ما لبث ان امتعض ولام نفسه لأنه لم يقل لها « احبك » واذ تمثلها تضحك ، ليس من الكلمة ، بل من شكل ادائها ، وفى أول لقاء ، هتف فى نفسه :

ـ الحمد لله اننى لم أفعل .

... وأكمل طريقه بعد ذلك الى البيت وهـــو يحـــلم ، فى اليقظة ، احلاما لا يأتى بمثلها الرقاد .

٧

فى السهرة قص فارس على والده كل شيء : تحـــــدث عن تطوافه فى الأسواق ، وحفاوة اهل الحى به ،وفطوره عند محمد الحلبى ، ورحيل الست برباره الى حيث لا يدرى ، واخفــاقه فى الحصول على عمل ، وزيارته لمعلمته القديمة ووعدها بتدبير عمل ما له ...

... فقط رنده استثناها من الحديث ، ولو سأل نفيســـه عن السبب لأعياه الجواب .

كان والده يصغى اليه صامتا ، ولا يدرى احد أكان معنيا بما يسمع أم لا . اما والدته فكانت تبتسم وهى تنظر اليه ولا تشبع . قالت :

ــ اذن هكذا ... رايت محمد الحلبى ومعلمتك والصـــــفتلى والجميع ؟

ــ نعم الجميع !

ــ قبلت يد عمك الصفتلى ؟

ولما أجابها بالنفى لامته بغير قسوة :

ــ كان عليك أن تفعل .

ثم اضافت :

ــ محمد الحلبى مشى على راس المظاهرة يوم سجنت . كنت

انا على السطح ورايت كل شيء . ضرب عمـــال الريجى ، وقامت المدينة وقعدت .. اما بشارة القندلفت فقد ترك أبواب الكنيســة مفتوحة كى يدخلها المتظـــاهرون اذا حوصروا بعد خروجهم من الجامع .

ولأمر ما ، لم يجب فارس بشيء ، فأضافت موضحة :

ـ العساكر لا يدخلون بيوت الله بأسلحتهم .

ـ بل يدخلون ..

فهز ابو فارس رأسه وقد أسند مرفقيه على ركبتيه المنفرجتين ، وأرسل يده يمسح براحتها شاربيه ، ثم أشعل لفافته وراح ينفث دخانها صامتا مهيبا وهو يصغى الى ابنه يتكلم بما يشبه اليأس عن سوء الحالة ووقوف الأعمال .

ـ ابدا لم أكن أعرف ان الحرب تفعل هذا ، حتى لقد فكرت اليوم بالعودة الى السجن .

وأضاف مؤكدا رجولته التى صفر شأنها أمام نظـرات والده الهادئة :

ـ باستطاعتى أن أهجم على أى فرن وأنتزع منه كيســـا من طحين ، أو رطلا من خبز وليفعلوا بى بعد ذلك ما يفعلون .

ـ لن يشنقوك طبعا .

قالها والده دون أن يخرج عن هدوئه المعتاد . ثم أضاف :

ـ اما كيس الطحين فانهم يعيـــدونه الى الفرن ، واما انت فيرسلونك ، بكل بساطة الى السجن .

وساد الصمت لحظة ، قطعته أم فارس بهذا السؤال :

ـ انت تفعل ذلك يا فارس ؟

ـ قلت استطيع ولم أقل سأفعل . فكرت فى ذلك اليـــوم

وسألت نفسى « اذا لم تجد عملا فماذا انت صـــانع ؟ » السجن لا يخيفنى ، ومن حقى كما يقول عبد القادر ، ان آكل كغيرى .

استفهم ابو فارس :

ــ ومن عبد القادر هذا ؟

وهتف فارس :

ــ هل نسيته ، اما حدثتكم عن افعاله فى السجن ؟

وسحب ابو فارس نفسا غير عادى ، بدت فيه اثار نقمة على ذاكرته وسأل :

ــ اذن لماذا لم تفعل ؟

ــ افعل ماذا ؟

ــ لماذا لم تستول على كيس الطحين ؟

ــ أيرضيك أن أفعل ؟

ــ وما دخل رضاى فى الموضوع ؟

ــ وسمعتك ؟

ــ واذا كنت لا اهتم بسمعتى ؟

تطلع فارس الى ابيه دهشا ، وقد استبدت به حيرة ممايسمع « امكن هذا ؟ »

وحذر أبوه ما ينتابه من تفكير قلق فقال :

ــ بين سرقة الرغيف وانتزاعه عنوة فرق بسيط ، الا انه فرق خطير ، فمن ينتزع رغيفا ليس كمن يسرقه ، ولو قلنا للجـــائع لا تسرق أو لا تنتزع رغيفك لبدت فضيلتنا مضحكة بالنسبة اليه ، لكن المسألة لا تحل بانتزاع رغيف . المســـألة ؟ كيف أقول ؟ انا أيضا صادفت فى حياتى أمثال عبد القادر الذى تتحدث عنه ، لقد مر الطيبون فى حينا أيضا يا فارس .

قال فارس وقد استثارت اهتمامه اشارة والده الأخيرة :

ـ من هم « الطيبون » الذين مروا بحينا ؟

فاعتدل والده في جلسته وقال :

ـ أنا شخصيا لا اعرفهم ، وقد سمعت بهم ، كان لنا جار يسكن غير بعيد من بيتنا ، وقد تحدثت معه مرة أو مرتين ، ثم ماذا ؟ لا شيء ، نصحونى الا اذكر اسمه ، وقيل انهم فتشوا بيته وسجنوه . الخلاصة ان هذا الجار كان يحدثنى يوما عن الخبز فقال : « الصدقة ، الرغيف المسروق ، الرغيف الذى يلقى لنا به صاحبه من النافذة ، هذا الرغيف لا نريده ، لأنه ليس الرغيف الدائم الذى نفتش عنه » ، اما السمعة التى تخاف عليها فهى شيء جدير بالاعتبار ، ليس فقط أمام الناس بل أمام ذواتنا أيضا . أريدك الا تسرق لا لأننى أخاف على سمعتى ، بل لأن السرقة عمل مشين فى حد ذاته ، وسطوك على كيس طحين ، رغم ان فيه ـ كما قلت ـ تعبيرا عن فهمك لحقك ، وثورة ـ كما قال عبد القادر ـ لانتزاع هذا الحق ، فهو عمل زرى لا يحل المشكلة .

قال فارس معتذرا :

ـ ولكنه مجرد تفكير .

فأجاب والده :

ـ لا عمل بلا تفكير ...

وبدا التأثر على المحيا الوقور ، وأشعل سيكارة ثانية ، سيكارة خيل الى فارس ان والده سيمتصها بنفسين فقط ، ثم قال نصوحا شفوقا :

ـ انت صغير ، فتى ، شاب ، قل ما شئت ، أنت رجل ولا تجارب لديك فما النفع ؟ لقد وجدت نفسك فى وضع صعب : حرب ، معركة مع الفران ، سجن ، بطالة ، يأس ، استخفاف بكل

شيء ، ثم ماذا ؟ السجن لا يخيف الرجال ، لكن لماذا نسجن ؟

قال فارس محاولا الدفاع عن نفسه :

ـ أنا ...

فقاطعه والده باشارة من يده وقال :

ـ اصغ اولا الى ما اقوله : اللقمة ليست هدفا ، والانجيل يقول « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » . ثم ، الكلب يجدلقمته أيضا ، لكنه يجدها فى الفضلات . اما الانسان الشريف فيسعى الى اللقمة والكرامة معا .

استفادت الأم من توقف زوجها عن الكلام فقالت معاتبة :

ـ لماذا لا تأخذ فارس الى الكنيسة ! دعه يسمع الانجيل .

وقال الأب ، مستأنفا كلامه كأنه لم يسمع ما قالته زوجه :

ـ انت بلا عمل ، اذن فأنت يائس ، تتساءل بالحاح : متى تنتهى الحرب ؟ متى ينتهى هذا البلاء ؟ وانا لا استطيع الجواب على هذا التساؤل ، فالحرب هى الحرب ، قد تطول سنة وقد تطول عشر سنوات ، الحريق سهل والاطفاء صعب ، الا اننى ، رغم ذلك أستطيع أن لا أيأس ، لقد قرات المزامير ، واستوقفنى مزمور داود « رجاء البائسين لا يخيب الى الأبد » . فالبائسون أيضا ، ينهضون ، وقد اشتركت مع الحلبى وأهل الحى فى مظاهرة الخبز ورايت كل شيء ، وكنت اقول فى نفسى « هؤلاء يفعلون هذا ؟ »

نعم ، فعلوا ، ومريم ، اتصدق ؟ مريم ما غيرها ، ترفع البيرق وتمضى وقد استقامت رجلاها واحالتها الحماسة إمرأة سوية ، والناس يتدافعون ، يتدافعون ويصيحون ، وأمك تركض خلفى صائحة «لا تخاطر بروحك يا ميخائيل» وأنا لا أبالى بصياحها ، وكيف ابالى ؟ كان محمد الحلبى فى المقدمة ، وكنت أريد ان اسير

وراءه مباشرة ، لكن الشباب ـ بارك الله فى الشـــباب ـ كانوا يسبقونى ، فذكرتك وقلت « لو كان فارس معنا ؟ واقتـــرب منى الصفتلى وقال : يا ابو فارس خذ عصاى ، فرددتها اليه «استعملها انت » ماذا تريد ؟ العصا سلاحه الوحيد ، فهل أتركه بلا سلاح ؟ المهم انى لم اتراجع ، كانت قوة خفية تحركنا جميعا ، وقد مات وجرح بعض المتظاهرين ، لكن الخبز تأمن فى اليوم التالى ،واصبح انقى وارخص .

قال فارس :

ـ اما الفرنسيون فلم يطلعوا !

وسأله والده :

ـ أتظنهم باقين ؟

واضاف دون أن ينتظر الجواب :

ـ لن يبقوا ، نحن نكـــرههم ، واذا قلت لك اخرج من بيتى فمعنى هذا انك ستخرج . انا أقوى ، لأننى أنا صـــاحب البيت ، لا احد يستطيع البقاء فى أرض برغم أهلها . ما رأيك ؟

ـ صحيح ، ولكن اذا لم يخرجوا ؟

ـ نحاربهم !

ـ حسبتك تكره الحرب .

ـ اكرهها ولا اكرهها .. اكرهها اذا لم تكن لى علاقة بها .. اذا كانت لأجل الآخرين .. اما لأجل تحرير الوطن .. الثـــورة السورية مثلا .

ـ اشتركت فيها ؟

ـ لا ، لم أتمكن .. لم أحارب فى ذلك الوقت .

ـ وتحارب الآن .. اذا لم يخرج الفرنسيون ؟

ـ طبعا أحارب ، ولكن البركة فيك .. انت الذى ستفعل ذلك الآن .. افعل ولا تخف .. افعل اذا دعت الضرورة .

وسكت أبو فارس ريثما جرع كأسا من ماء ، وعاد يمسح شاربه براحته ويقول :

ـ لا أحد يعرف نهاية العمر ، قد أموت اليوم أو غدا أو بعد غد . وقد أعمر طويلا ، المهم اننى عشت الحياة دون خوف، عشتها رجلا ، الرجولة ! هذه وصيتى اليك ، أتبكين ؟

وأجابت أم فارس وهى تمسح دموعها :

ـ لماذا تذكر الموت ؟

ـ وماذا فى الموت ؟ كلنا سنموت . لقد واجهت الموت ثلاث مرات ، وثلاث مرات نجوت ، وها انا اعيش ، امسحى دموعك ، امسحيها . اما انت (والتفت الى فارس) فاذهب الى معلمتك غدا ، فلابد أن تقع لك على شغل .

قالت أم فارس :

ـ اذا اشتغلت فسأخطب لك .

وضحك والده :

ـ خطب قبل أن يشتغل .

ثم صفق ونادى :

ـ يا صقر ، يا نايف ، يا مريم ، ... أين ... أينكم .

وأتاه صوت مريم :

ـ يا الله ...

ـ تعالى .

ـ ما أقدر .

ـ قلنا تعالى .

وجاءت مريم ملفوفة باللحاف .

ـ ما هذا ؟

ـ نايف لبس سترتى .

واغرب فارس فى ضحك معافى وهو يفسح حيزا لمريم .

قالت وهى تجلس :

ـ البرد سبب كل علة . انا لا احتمل البرد .

ـ وحين كنت صبية ؟

ـ لا تسألوا ... نايف هدنى .

ـ قولى الحقيقة .

ـ الحقيقة ...

وأرسلت يدها تبحث عن علبة التبغ . ثم فجأة قطعت حديثها وصاحت :

ـ اسمعوا !

وجاء صوت بشارة القندلفت من الخارج :

ـ أبو فارس .

ـ تفضل ...

ودلف القندلفت وهو ينفخ ، وشرع ، مذ وصل ، يتناول من زجاجة العرق الصغيرة الملازمة له جرعة جرعة ، ويقذف ، دونان يضيع الهدف مرة ، حبات البزر والحمص فى فمه ، ويمسح ما علق براحته من آثار الملح فى ذقنه وخديه .

كان من عادته اذا دخل بيتا أن يسرع فى تقديم نشرة أخبار الكنيسة ، وفى هذه النشرة ينبش الأسرار ويرويها ، حتى لكأن أخبار المدينة قد تقطرت وتجمعت كلها فى بطنه وأذنيه.

ـ الرجل (قالها مطبق الجفنين متمتما ، يتلمظ بالكلمات ويهوم) الرجل لا قيمة له . لو خلقت ديكالعرفت شغلى،الدجاجات بحاجة الى ديك لا الى رجل .

وفى هذه اللحظة رفع ابو فارس كفه الى ما وراء اذنه وقال :

ـ اسمعوا .

ومن الخارج جاء صوت المختار :

ـ أينك أبو فارس !

ـ تفضل ...

أطلقها ممطوطة جدا ، حتى ليحار المرء أهى صيحة سخرية أم ترحيب .

ودخل المختار ، ودخل الصفتلى ، ثم صقر،وانعقدت السهرة، وانسجم فارس مع الجو ، ناسيا كل سوداويته التى لازمته هذا الصباح.

عبارة واحدة فقط شغلته أكثر من سواها ، تلك قولة أمه : « سأخطب لك اذا اشتغلت » .

قال فى نفسه :

ـ اتمزح ؟

واذ تصور هذا الحلم وقد تحقق ، شعر بغبطة لا حد لها ، ونام وهو يحلم بالشغل والخطوبة معا .

٨

.. ونامت رنده وهى تحلم بما صادفته فى يومهـا ذاك : أم فارس وفارس واللقاء .

احست ان صلة جديدة تربطها بهذه الأم ، وان فى حديثهـا لهجة ذات مدلول خفى ، لكنه واضح بالنسبة اليها :

ـ لقد نظرت وابتسمت ... ماذا يعنى ذلك !؟

من المؤكد ان أم فارس نظرت اليها كما تنظر كل يوم ، الا ان رنده وجدت فى هذه النظرة معنى خاصا ، مفرحا ، جعلهاتتقلب فى فراشها مسرورة ، يمتنع عليها الرقاد .

وفى الصباح البـاكر ، افاقت على الذكرى الجميلة ، كانت نشيطة ، مرحة ، تكاد تطير . وقفت امام المرآة طويلا ، فاعتنت بتصفيف شعرها وابراز صدرها ، وعقد الزنار حول خصرها كى يجاذب الصدر أفيتكور النهد .

شىء واحد أسفت له كل الأسف . انها لا تستطيع ، وهى فى طريقها الى العمل ، أن تضع الأحمر على شفتيها كما تفعل سـائر البنات . لاشك انها لو فعلت لبدت أكثر فتنة وجمالا . على انذلك لم يمنعهما من السرور ، ولم يحل بينها وبين الرضى عن ملاحتها ، وهكذا حملت زوادتها وخرجت الى بيت أم فارس .

كان فارس ينتظر على نار . أفاق باكرا جدا ، وغادر فراشه

مع إشراقة الفجر الأولى فغسل وجهه ، وسرح شعره ، وارتدى احدث ما لديه من ثياب .

وراح والده ، جالسا على طراحته في الزاوية ، يراقب ادوار هذه المسرحية الغرامية ، من خلال الدخان المتصاعد من سيكارته، مستعيدا ما سمع عن العشاق مفكرا بتجاربه الخاصة فى هـــذا المجال .

وحـــين اطلت رنده اشرق شيء ما فى عالم الابن الداخلى ، واستخفه طرب مباغت ، فأجهد نفسه كى لا يقول شيئا او يأتى بحركة تفضحه ، واكتفى بالنظر اليها واقفة على الباب ، يطـوف بمحياها ظل ابتسامة ، وتشيع حمرة خفيفة ، ويلتمع شيء ماسائل براق فى السواد من عينيها .

صعد الأب نظرة فى وجه الفتاة وفكر « أهذه ليلى التى جن بها ابننا ؟ » ولم يلبث أن اعترف « انها ليلى حقا » ، ولم يلبث ان حمل علبة التبغ وانتعل حذاءه وخرج ، تاركا « للمجنـــون » أن ينظم حبه قصيدة بالطريقة التى يختارها .

واذ انتهت امه من ارتداء ثيابها ، قالت مشيرة اليه :

ــ لم يأكل أمس .

احسبت رنده دفقة من حبور فى صدرها . كانت قد سمعت ان العاشق لا يأكل ، وها هو قارس لا يأكل ، اذن .. ياللفرحة !

تمنت الا تأكل هى الأخرى ، لكن من يخبره بانها لم تأكل ؟

« أمه مشغولة بفرحتها » .

قالتها عاتبة وهى تنظر اليه نظرة جانبية ، ثم اعتـــزمت أن تتصرف كفتاة عاقلة ، وان تخفى فى الأعماق من قلبها كل مايمكن ان يكشف حقيقتها ، فالبنت الطائشة ــ كما تقول امها ــ هى التى تتسرع فى اعلان حبها ، وبما انها عاقلة ، فمن الخطأ أن تبوح أو

تأتى بحركة تنم عن هذا الحب . « يجب أن يحتـــرق هو أولا » ولا شك أن النـــار قد بدأت تشتعل فيه انها تراها فى عينيـه وتحسها فى قلبها .

تفرست فيه مليا ، والتقت عيونهما فى نظرة جديدة ، خاطفة، واختلجت فى مكانها ، وابتسمت فى أعماقها دون أن تفطن الى أن هذه البسمة برقت فى عينيها ، وأن هاتين نافذتان أمينتـــان ، ومطلتان راسا على القلب!

ود فارس أن يجيب أمه « وماذا آكل ؟ » لقد عاف خبز الذرة والشعير ، بيد انه سكت ، صارفا ذهنه فى الاتجاه الآخر .

وبينا الأم تعد زادها شرع قلب الابن يأكل زاده ، نظـــرات يختلسها من هنا وهنا ، من الوجنتين ، والعنق ، والشــــعر ، والشفتين . وكلما اسرعت امه فى الاستعداد للخروج ، كلمـــا وضح الشوق النهم فى نظراته وحركاته ،وازداد حقدا على الوقت « لماذا يسرع هكذا ؟! »

وأسرع الوقت ، كعادته ، وغادرت الأم ورنده البيت ، فوقف على باب الدار ، ولاحقهما ببصره حتى غابتا فى الشارع ، لـكن الفتاة التفتت ، قبل ان تتوارى ، الى وراء ، وكان فارس يراهن على حياته انها ستلتفت ! وقد سره ذلك كأن الحياة قد منحته منحـــة كبرى لا يدرى لشدة فرحه كيف يتقبلها .

بعد ذلك شعر بوحشة لمجرد ان اختفت عن عينيه . جعـــل يتمثلها تمثلا أقرب الى الوضوح منه أمس ، وكلما ران القتوم حوله، شعت التفاتتها اليه فبددت القتوم .

على انه ، بعد قليل ، استطاع ان يقنع نفسه ان ما حصـــل عليه اليوم يكفى ، انه نعمة ، وهو انسان عاقل ، يعـــرف كيف يحتفظ بمثل هذه النعم ، لذلك انصرف مسرورا الى الســـوق ، ومضى يطوف سائلا منقبا عن عمل .

٩

جلس ، بعد طواف قصير ، عند مكسور المبيض .

كانت الدكان واطئة قليلا عن مستوى الشارع ، وقد هبط عدة درجات حتى دخلها ، فلما شاهده مكسور ، نهض واقفا ، ورحب به ترحيبا حارا يليق برجولته التى شهد له بها الجميع ، حتى محمد الحلبى ..

اهنن (أهلا) وسهنن ... اهنن ... اهنن .

وجعل مكسور ينقل يده ، مبسوطة الراحة ، بين راسه وصدره ، ثم قدم له برميلا فارغا ، مقلوبا على قفاه ، ووضع فوقه كيسا عتيقا جلس عليه فارس فرحا بهذا اللقاء.

كانت الفوضى سائدة من حواليه بشكل خيل الى فارس انه لا سبيل الى مقاومتها . وقد عززت هذا الاعتقاد فى نفسه جلسة مكسور المفعمة باللامبالاة ، كأنه حاول اصلاح الأمور طويلا فاستعصت عليه حتى يئس منها ومل . فمن حواليه ، وباهمال تام ، تترامى خرق قذرة ، وقصاصات من تنك صدىء ، وفخارات عتيقة متكسرة ، ويقوم فى احدى الزوايا مستنقع صغير ، اسود الماء لزجة ، كصلصال سائل ، بينا يقوم فى الزاوية المقابلة مستنقع آخر ، أقل قذارة ، لكنه مشابه له فى الوضع والشكل .

وفى زاوية الدكان قرب المستنقع اللزج يتكور منفاخ جلدى متوسط الحجم ، يمتد منه ، كخرطوم غضروفى مستقيم ، انبوب يذهب مسافة فى الأرض ، ويظهر طرفه فى فوهة صغيرة يتأرث

فوقها لهب الفحم المشتعل . ووراء المنفاخ ، اقعى طفل صغير ، قميء ، اصفر ، تخاله قزما لن ينمو عظمه ولن يشب قط .

كان الطفل ، ابن مكسور ، قد شرع منذ دخل فارس الدكان يهتز ويضطرب ، ومكسور يصرخ فيه بغير رفق :

ــ انفخ يا سالم !

ولم تكن صيحات مكسور لتزيد في حماسة سالم أو سرعته. كان ينفخ ، ممسكا بجناحي المنفاخ المنتهيين بعصوين صغيرين ، ويدفع ساعديه النحيلين الى أمام والى وراء ، فينفتح الجلدالمتكور ويمتلىء بالهواء ، ثم ينطبق فيقذف بما في جوفه عبر الانبوب الى حفرة الفحم ، وبحركة توافق ايقاعية ، ينفتح فم سالم وينطبق باستمرار .

وحين يسأم عمله الرتيب الممل أو يتعب منه ، تتراخى ذراعاه، فاذا استسلم الى اغفاءة من اغفاءات الطفولة تساقط الذراعان على الجانبين ، وافترت الشفتان الرقيقتان عن اسنان دقيقة محددة كأنها اسنان فأرة ، وعندئذ يتوقف هدير المنفاخ ، ويخبو تألق النار ، ويصيح مكسور بابنه :

ــ انفخ ، قلت لك انفخ !

ويهب سالم مذعورا فينفخ ، ويدفع ، بحركة خائفة ، جناحي المنفاخ ، ثم يمضي ، ناعسا ، بتحريك ذراعيه ، ويشرع جفناه الوسنان في مجاهدة النوم ، ويداه في مجاهدة المنفاخ ، ولايلبث أن يغمض عينيه ، ثم يفتحهما . وبعد أن تتكرر هذه العملية عدة مرات ، يلتوي رأسه الصغير ذو الشعر الأصهب على كتفه الأيسر، وتتراخى قبضتاه عن عصوي المنفاخ ، ويهدأ كل شيء ، الا قرقرة نركيلة المعلم مكسور ، الذي اعتاد أن يتوقف في مثل هذه الحالة، صائحا وهو يفرك يديه :

ـ الولد نام ، لا حول ولا قوة الا بالله ... طفـل ! يا اخى طفل ، ماذا تفعل معه ؟

واذ يكون جالسا على نار ــ كما يقول ــ والشغل مستعجل ، يروح يتحايل على سالم ، بمغريات تافهة :

ـ هيه ، سالم ، اسمع !

ويفتح سالم عينيه بجهد .

ـ سأشترى لك كعكة هذا المساء ...

ـ وتعطينى قرشا ؟...

ـ وقرشا فوقها ...

ـ وتصرفنى قبل غياب الشمس ؟

ـ قبل غياب الشمس .

فيروح سالم ، مدفوعا بهذه الوعود « السخية » يحرك يديه ، ويشد جفنيه ، ويركز انتباهه ، وترتسم على تقاطيع وجهه المستطيل امائر الجهد والجد ، لكنه لا يلبث ان يسقط فى هذا الامتحان القاسى ، ويستسلم مرغما للنعاس ، فتتخذ سحنة مكسور سمة الصرامة والاصرار ، ويرفع ملقط النار مهددا ، ملوحا به فى وجه سالم وهو يصيح :

ـ انفخ ، العمى ، انلعب ؟

فيستعيد سالم وعيه ، ويطرد ، الى حين ، النعاس المرين على جفنيه ، ويدفع بحركة رتيبة ومملة عصوى المنفاخ ، شاعرا ، رغم صغر سنه ، انه مضطر الى النفخ هكذا الى ماشاء الله .

هذه المساجلة بين مكسور وابنه ، وبين ابنه والنعاس ، كان يعرفها فارس قبل أن يسجن ، وقد شهدها اليوم ، فكانت كعهده بها قبل اليوم ، وقد لفت نظره أن فى المستنقع النزج ، الملىء بالماء

الأسود ومسحوق الفخار ، ينتصب بيرم المجذوب ، كمعتوه حقيقى ، واضعا قدميه فى طنجرة نحاسية ، ممسكا بالجدارين اللذين يشكلان زاوية حادة وراءه ، دائرا نصف دورة الى اليمين ، واخرى الى اليسار .

كانت دورات بيرم واهتزازاته التى تأخذ شكل رقص بدائى ، تتوافق وحركات سالم ، وتتناسق مع هدير المنفاخ ، فاذا اسرعا أسرع ، واذا أبطئا ابطأ ، وقد صادف أن توقف سالم عن النفخ ، فظل بيرم يدور ويدور ، ويهتز ويرقص ، ذاهلا عما حوله ، حتى صاح به مكسور نزقا :

ــ هيه ... بخشت الطنجرة .

ولم يزد بيرم على أن ضحك ضحكة غبية لا معنى لها ، وغسل الطنجرة ودفعها الى مكسور ، الجالس أمام فوهة المنفاخ يعض نربيش نركيلته باسنانه ، ويحرك وعاء نحاسيا محمى بملقط حديدى طويل ، ويلقى فوقه النشادر الذى يحترق وينشر دخانا كريها حادا يخرش الصدر .

وحين انتهى مكسور من تبييض الوعاء ، راح يرحب بفارس دون أن يرفع النربيش من بين أسنانه ، مما أعطى كلماته لثغة مضاعفة :

ــ أهنن وسهنن ، اهنن ، اهنن ...

وبعد وقفة قصيرة ، أمسك بالنربيش وانتزعه من فمه ، ثم اقبل يتحدث الى فارس وفى حركاته تعبير مؤداه « العمر يخلص والشغل لا يخلص »!

قال :

ــ النيرة (الليرة) لم تعد نيرة . بيرم وسالم وانا ، تأمل ،

لا نشبع بنيرة ، والنيرة لا تاتى ، كيف اقول ؟ شكا بيرم من اهتراء اظافررجليه فقلت له ساشترى لك اظافر حمار ، وقد سره ذلك ، وها هو يأتى ويطالبنى كل يوم :

ـ اين الأظافر يا معلمى ؟

اما سالم (وغمز بعينه نحوه) فله كمكة لم يذق مثلها منذ بدأت الحرب ...

ضحك بيرم نفس ضحكته الغبية ، وازداد دورانا وهزا ، وتحمس سالم وجعل ينفخ بسرعة اطارات النار من الموقد ، فترك مكسور النربيش يسقط من بين اسنانه وصاح صيحة ممطوطة :

ـ ب ... س ...

ـ توقف النفخ ، وهدأ الدوران ، وصمتت الموسيقى ، وأرسل مكسور يده تبحث بين التراب والأقذار عن النربيش ، والتفت الى فارس مكملا حديثه :

ـ النيرة ...

وقاطعه بيرم:

ـ يا معلمى ...

ـ النيرة ...

وصاح بيرم :

ـ يا معلمى !

وتوقف مكسور عن الحديث وقفة من تضايق ، وهم بأن يقذف شتيمة مقذعة ، الا أنه ما عتم أن صرف النظر عنها ، وعاد الى الموضوع الأول :

ـ النيرة ...

وعاد بيرم يصيح :

ـ يا معلمى ! زوجنى !

وضحك ضحكته الغبية ذاتها ، بينما حدق مكسور فيه تحديقا أعطى سحنته طابع النرفزة والتكشير ، حتى خيل الى فارس انه سينقض عليه ليمسح بيده الخشنة بسمته الباهتة ، أو انه سيضربه بالملقط الحديدى ، أو يبصق فى وجهه ، أو يرفسه أو يفعل أى شىء ... بيد ان مكسورا لم يفعل شيئا من هذا، وبانقلات نفسى مباغت ، تحللت أساريره ، وطرف برموشه ، وتنهد مستغفرا ربه ، وأجاب بجد ولطف :

ـ طيب ، سأزوجك .

واستدار الى فارس وقال :

ـ تأمل هذا الحيوان ، كل همه أن يتزوج ، فأية كلبة ترضى به زوجا ؟

وسأل فارس :

صحيح يا بيرم ؟

فجاء الجواب أبتسامة مماثلة لسابقاتها ، تحرك بعدها بيرم وخرج فاقعى أمام الدكان وراح يلاحق النساء بنظرات شرود ، ومكسور يهمس فى اذن فارس مشيرا الى بيرم :

ـ يتيم ومعتوه ، لا خير فيه ، وفى رأيى انه يصلح للفلاحة جيدا ، ومع ذلك يحلم ليلا ونهارا بالزواج ، وأنا أعده طوال الوقت، فى الربيع أقول له « سأزوجك فى الصيف » ، وفى الصيف أمنيه بالزواج فى الخريف ، وفى الخريف أحيله أنى الشتاء ، ثم أعود

به الى الربيع ، وهكذا تمضى الأيام ، وهو يحلم نفس الحلم ، وانا اكذب نفس الكذبة ».

ثم سحب نفسا طويلا من نركيلته ، وتهلل وجهه ، وأشرقت تقاطيعه ، وقال مرحبا بفارس من جديد :

ــ اهنن وسهنن ، اهنن ، اهنن ...

وهرش براسه وضحك كمن تذكر حادثا بعيدا ، وقال :

ــ تعرف ؟ بعد أن ضربت حسن حلاوة الفران ...

وقاطعه فارس :

ــ طلعت مظاهرة ... اى ؟

ــ نعم طلعت .

ــ وطلعت معها ؟

ــ انا ؟ في أول الأمر نعم ، لكننى ما لبثت ان عدت الى دكانى فأغلقت بابها وقلت فى نفسى « اشتغل بثمن الخبزات يامكسور». ولما سمعت ان الفرنسيين هجموا ، سحبت الملقط وقلت لبيرم الحقنى ، طاب الموت ...

قال فارس :

ــ اذن فعلت ؟

ــ وماذا تظن ؟

قالها بغضب ظاهر ، وقد اعتدل فى جلسته ، واستقام ظهره، وسال من عينيه شعور اعتزاز بما صنع ، وشاعت فى قسمات وجهه الترابى مسحة من الاعتداد الشرس ، وأضاف متسائلا :

ــ المظاهرة سياسة ؟ ما رايك ؟ أنا ، من جهتى ، لا اشتغل بالسياسة ، لكن الخبز والفرنسيين ، هذه مسألة أخرى ، اى ؟

فرنسا اعطت اللواء للأتراك ، والخبز لا يؤكل . لقد أصبحنا ، عدم المؤاخذة ، نشتهى ريحة الخبز الأبيض ، اما الكبة المحشوة بالدهن ، وكنا نعض عليها فيسيل دهنها ويملأ فمنا ، اما الكبة ، ماذا اقول ؟ ما نفع الكلام ؟ كنت اوصى العيال بها دائما :

ـ اكثروا من الدهن ... لا تنسوا .

وكانوا يفعلون ، فانا ، ولا مؤاخذة ، احب الدهن ، بيرم يحب الزواج ، وسالم يحب الكعك ، اما انا فهوايتى الدهن ، الدهن ولا شيء سواه ، ابعد عنى زوجتى شهرا ، شهرين ، اصبر ، اما الدهن ؟ يقولون انه يضر المعدة ، هذا كذب ، اسألنى انا،الدهن !

وتلمظ وهو يسحب نفسا خفيفا ، وتابع حديثه مشوقا اليه ، كأن فى صدره كلاما حبيسا يعذبه :

ـ الخلاصة اننى تظاهرت ، وضربت بملقطى هذا (ورفع الملقط الحديدى الطويل وفتله فى الهواء) ثم سقط منى فجأة ،فانحنيت لالتقطه فدفعتنى الأقدام عنه ، وهكذا ضاع الملقط ، ضاع ...وفى اى لحظة ؟ أسفت عليه جدا ، ولما عدت الى الدكان وجدت هذا الخبيث (واشار الى بيرم) قد سبقنى اليها والملقط فى يده . ماذا ؟ ـ صحت به فرحا ـ قال « انا الذى اخذته ، وضربت به كم ضربة » .

فاحتج بيرم الذى دخل الدكان فى هذه اللحظة وتكور قرب معلمه :

ـ كم ضربة ؟

قال مكسور مصححا .

ـ لا ... ضرب اكثر ...

فابتسم بيرم ولم يزد ، بينا صاح سالم :

ـ وانا ؟

ـ انت ؟

ـ ما ضربت ؟

ـ شف ...

قالها مكسور هازئا مسرورا « شف هذا الدورى أيضـــا ! لا باس ، انت ايضا ضربت ، يجب ان نعترف بذلك . ضربت حجرا أو حجرين ، ثم هربت كقط صغير ... اللواء ، آه ، اللواء ... متى يعود اللواء ؟ »

كان مكسور من اولئك الذين يربطون الأفكار بشكل عجيب ، ثم يقفزون من حديث الى آخر بسرعة ، قفز الصور فى مخيلاتهم من شريط الى شريط ، وكان يزفر ويتنهد بعمق ، ويهز رأسه ، ويصر باسنانه ، وقد راح ، خلال وقت غير قصير ، يتحدث عن اللواء وانطاكية حديثا حارا ، متصلا ، وعيناه الصغيرتان فى وجهه الضامر الباهت ، ترسلان نورا فوسفوريا ، والحماسة تهز جسمه ، وذكرياته تعطى كل كيانه نوعا من الاحتراق الذى يخيل اليك انه لن ينطفىء قط .

قال ، وقد جلس على الأرض ، وباعد بين قدميه الحافيتين ، وامال طاقيته الى وراء :

ـ اللواء ليس لعبة ، وانطاكية ، هل تعرفها ؟ طيب ، تصـــور انها أجمل من كل ما رأيت فى حياتك من مدن ، وفكر بعد ذلك بخسارتها . يقولون ان الانسان يحب بلده كما يحب الكلب صاحبه ، وهذا ، فيما ارى ، صحيح . انا مثلا ، احب انطاكية كما تحب انت اللاذقية ، وكثيرا ما اجرب ان اتعزى فأفتح عينى على ما حولى : جمال ، ما شاء الله ، جمال ، اللاذقية جميلة ، عروس ، لكنهـــا

ليست كانطاكية ، بلدنا تختلف ، فيها العـاصى والشـلالات ، والبساتين وجميع الأولياء ، كما يقول احد اصحابى ، وفيها ، فوق ذلك ، بيتى وحقلى وقبر ابنى !..

كان فارس يصغى الى هذا الغزل الملتهب بانطاكية ويفـكر : « انه يكذب ، امعقول ؟ انطاكية اجمل من اللاذقية ، ابدا ، هذا غير ممكن » . ومع شدة تأثره بما يسمع ، فان دافعا انانيا ، ينبع من حبه لبلده هو الآخر ، كان يدفعه الى المعارضة ، وقد هم ، اكثر من مرة ، بمقاطعة مكسور ، لكن هذا لم يدع له مجـالا ، وطفق يتدفع من حديثه ، ويتماوج صوته دافئا حنونا مبللا بالدمع ، وسالم الذى ارتسم البيت الحبيب لعينيه الطفلتين يتابع كلمات ابيه ، فاغر الفم ، شارد اللب ، وبيرم ، الضاحك بغباء ، يسند رأسـه براحتيه ، جاعلا من ذراعيه وتدين مستقيمين ، يرتكز مرفقاهما على ركبتيه ، ومكسور يتكلم بلا انقطاع :

ــ انطاكية ، نعم ، كانت وراحت ، اخذوها مع اننا الأكثرية .

وسأل فارس :

ــ من اخذها ؟

ــ من ؟ الأتراك ... اخذوها ، الفرنسيون سـلموها ... مؤامرة ، نعم مؤامرة ، مؤامرة ...

خيل الى فارس ان المعلم مكسور على وشك أن يبكى ، او أنه قد جن ، ولم يعد يدرى كيف يتصرف ، وظل حائرا صـامتا ، ومكسور ينهمر فى حديثه :

ــ اخذوها وداسوا على قبورنا ... داسوها باحتقار ، وقد جرى ذلك بكل بساطة ، ذات صباح ، وكان غائما ممطرا ، وبعـد ليال من القلق والرعب قالوا : الأتراك دخلوا ! ركضنا الى مدخل

المدينة ورجعنا باكين ، وبكت السماء فأمطرت ، لقد دخلوا ، وصادروا الخانات والمدارس ، ولم يعد العاصى لنا ولا الشلالات ولا حقول الخضار والفواكه ، وحزن كل شيء ، الأرض والسماء والشمس ، انت لا تصدق ؟ نعم حدث ذلك ، الشمس بدت صفراء ، وبدأ الناس يهاجرون ، وشرعت قوافل المهاجرين تملأ الطرقات ، الحوائج على الظهور ، والأطفال على الصدور ، والعربات مجرورة بما تبقى من دواب ، والجيران يقبلون بعضهم بعضا ويبكون :

ـ الى أين ؟

ـ من يدرى ...

نعم من يدرى ! الناس يهربون ، ونحن أيضا هربنا فجئناالى هنا ، ومازلنا ننتظر ان نعود .

وقطع مكسور حديثه وسأل :

ـ اترانا نعود ؟

كان صوته مفعما برجاء حار ، لكن فارسا قال بكل برودة :

ـ من يدرى ؟

فامتعض مكسور جدا ، واستوى جالسا وقال :

ـ بلى ، سنعود ... انت لا تعرف .

واذا تذكر عمله اقبل عليه بعصبية ظاهرة ، وسحب ملقطه فحرك الأوانى وصاح بسالم :

ـ انفخ .

ونفخ سالم ، ودار بيرم ، وعزفت موسيقى المنفاخ : طف ، طف ، طف ، وراح فارس كئيبا متأثرا يراقب هؤلاء الثلاثة يعملون ويحامون :

اولهم بكعكة فى المساء .

ثانيهم بامرأة تعينه على وحشة الحياة .

وثالثهم ببلده وبيته وحقله وقبر ابنه .

وحين تطلع الى سقف الدكان راعه ان خشبة من اخشابه مدلاة فوقه حتى لتكاد أن تسقط ، وقد سوده الدخان وتراكم عليه الهباب حتى غدا كمدخنة يحترق فيها حطب أخضر ، وعلى طول الجدران ، عند نهاياتها الملاصقة للسقف ، وبين الأخشاب السود النخرة ، عشش عنكبوت كثير ، نسج من خيوطه التى أصبحت مصيدة للهوام والحشرات ، شباكا لم تمتد اليها يد التنظيف منذ سنوات .

ولما مل هذا التأمل الذى استثار سخطه وغيظه ، نهض ناقما ، ومضى يحلم ، هو الآخر ، بعمل ، أى عمل !

١٠

قالت له الخادم :

ــ تفضل انتظر .

وغادرته فى الصالون ، فجعل يتلهف بالنظر الى الصور حتى استوقفه مكان فارغ فى الجدار ، فتذكر أن صورة كبيرة لمعلمة كانت ههنا ، وتساءل : « أين ذهبت الصورة ! ؟ » .

وعادت الخادم تدعوه الى الدخول فسألها :

ــ الى أين ! ؟

وقالت الخادم :

ــ الست فى فراشها .. فاذهب اليها .

وسحبت الصغير معها الى المطبخ ، بعد أن أشارت له الى المجاز المؤدى الى غرفة النوم ، وحين بلغها طرق الباب فجاء صوت السيدة من الداخل :

ــ تفضل !

ودخل وتوقف مرتبكا على العتبة .. فقد رفعت زوج صاحب المتجر الشرشف الى ما فوق عنقها ، فقال فى نفسه : « هل هى عارية فى الفراش ؟ ولماذا طلبتنى الى غرفتها ؟ أتكون مريضة ؟ »

وقال « صباح الخير » وأطرق مفسحا لها المجال كى تضع شيئا على كتفيها ، فسمع صوتها يجيب : « صباح الخير » ، ثم سألته :

ــ ألا تزال بدون شغل ؟

وقال : «نعم» ، وأسرع بالاطراق ثانية ، لأن الغطاء كان منشمرا الآن ، وقد رأى ساعديها العاريين وصدرها وقميصها الداخلى الأسود المخرم .

وساد صمت قصير .. وانشق الباب عن الخادم تحمل القهوة ، فأمرتها السيدة :

ــ ضعى الصينية على الكومودينة .

فامتثلت الخادم وخرجت ، وقال فارس فى نفسه وهو يشرب قهوته ويتظاهر بالنظر الى الأثاث فى الجانب الآخر من الغرفة : « كيف تتناول قهوتها وهى نائمة ؟ ؟ وكيف تجلس وهى شبه عارية ؟ وهل على أن أنسحب ريثما ترتدى ثيابها ؟ » .

وتحركت السيدة فى سريرها ، فقال فى نفسه : « انهـــا تنهض ! » .

وعوى شيء ما داخله ، فود أن يلتفت ويختلس نظرة قبل أن تغيب المفاتن تحت الثياب .

وقالت السيدة :

ـ وجدت لك عملا .

وأدار وجهه اليها برغبة لا تقاوم هذه المرة . كانت قد انقلبت على جنبها ، وفيما هى تتكىء على زندها العارى ، كانت اليـد الأخرى تتناول القهوة ، والغطاء قد سقط حتى جذر النهدين . وقال فارس مضطربا :

ـ شـــكرا .

ـ العمل فى مصلحة الدفاع السلبى .. مناظر على العمال .

ـ شكرا .. متى أبدأ ؟

ـ سأعطيك رسالة .. وفى المصلحة يخبرونك .

ـ شكرا .. لن أنسى معروفك .

وعاد الصمت مرة أخرى .. وتساءل فارس فى ذاته : «هل على أن أذهب ؟ » وتطلع نحوها فوجدها قد تحركت حتى صار جذعها الأعلى شبه عار ، فازداد العواء داخل الجرو الصغير ، وقال فى نفسه : « لـــماذا تفعل ذلك ؟ أتعتبرنى طفلا أم تستخف بى ! ؟ » وسمع صوتها يقول :

ـ الا تدخن ؟

واعتذر فقالت :

ـ لا تخجل .. انت شاب الآن .. خذ سيكارة .

ونهض ليأخذ سيكارة ، فرفعت الغطاء وسترت صدرها وفى عينيها بدا ذبول مثير ، واحمرت الشرايين فى زوايا عينيها ، وتهدج صوتها وهى تقول :

ـ لماذا انت خجول بهذا المقدار ؟ وكيف عشت فى السجن اذن ؟

فقال وقد سره أن بابا للحديث فتح :

ـ هناك لم أكن خجولا .. اضطرتنى الظروف أن أكون مثل المساجين .

ـ وكيف هم المساجين ؟

ـ مساكين .. كنت أحسبهم من طينة مختلفة ، وقد وجدتهم بشراً مثلنا .

ـ ليسوا مثلنا .. المجرمون ليسوا مثلنا .. وأنت لست مثلهم .. أنا أعرفك .. أنت شجاع ولكنك لست مثلهم ، وحين سمعت بالنبأ قلت : مستحيل أن يكون فارس من هؤلاء .. انه لا يقتل .

ـ ولكنى قتلت .. اقصد ضربت .

ـ ضربت فقط .. وكنت مخطئا .. قل انك كنت مخطئا .. لا تسمع لما يقوله الناس عن الفرنسيين .. ليسوا السبب .. وقد شرحت قضيتك لمدير الدفاع السلبى ، وهو فرنسى ، واقنعته بتشغيلك .. قلت له انك نشيط وذكى ..

ونظرت فى عينيه وسألت :

ـ أم انا مخطئة ؟

واحتار فى الجواب .. وأخيرا قال :

ـ سأبذل جهدى لارضاء المدير .

ـ ارضاء المدير فقط ؟

وعادت النظرة المكهربة تلتمع وسط البيـاض الزجاجى فى الحدقتين الناعستين ، فقال فارس متملقا :

ـ وارضائك أيضا .

فابتسمت لكلامه وقالت :

ـ تعال مساء لأخذ الرسالة اذن .

ـ فى أى ساعة ؟

ـ فى أى ساعة تشاء .

ثم استدركت :

ـ تأخر قليلا .. أخاف أن تأتى ولا تكون الرسالة جاهزة .

١١

جلس الصفتلى فى بيته الذى يشبه المغارة يصلح عدة الصيد وفى أعلى فتحة المنور بدت بقعة من الشمس على الجدار ، فقال لزوجه :

ـ انظرى .. قلت لك ان بيتنا تدخله الشمس .

فقالت زوجه التى تشكو الروماتيزم :

ـ ضع يدك على الجدار والمس الرطوبة .

ـ أنا لا أناقشك فى الرطوبة .. قلت بيتنا لا تدخله الشمس وها هى الشمس .. انظرى !

ـ أين هى ؟

ـ فى أعلى المنور .

ـ لا أراها .

ـ ألا ترين بقعة الشمس .. هناك ؟

ـ وهذه شمس ! ؟

ـ أتكفرين بالنعمة ! ؟

ـ أكفر بالرطوبة ..

ـ كله كفر .. على الانسان أن يصبر . الزير قال : «يا باطنى كونى وسيعة تنالى المنى » .

ـ ولكن زيرك لم يسكن فى جب مثلنا .

ـ أما بقى سبعة أيام داخل الصندوق فى البحر ؟

ـ وبعد سبعة أيام أخرجوه .. أما نحن ! ؟

سكت الصفتلى فقالت زوجه :

ـ لو بحثت عن شغل غير الصيد والصنارة .

ـ لايوجد شغل .. فارس شاب يلوى الحديد ، ومنذ أسبوع وهو يدور على عمل دون فائدة .

تأوهت المرأة وفركت ساقها ، فقال الصفتلى وهو ينهض :

ـ أنا ذاهب الى النهر .. مريم قالت لى : « خذ الفحل معك » فماذا أفعل بهذا الفحل المخصى ؟

ـ علمه الصيد !

فتوقف الصفتلى وحدج زوجه مغضبا وقال :

ـ قلت لك لا تكفرى بالنعمة !

ـ أنا لا أكفر ولكنى أموت .. سمعت ؟ أنا أموت . اصبحت نصف مشلولة فى هذه المغارة .. زيرك أخرجوه بعد سبعة أيام ، وأنا هنا منذ سنوات .. فمتى تخرجنى ؟

وقال الصفتلى :

ـ لا تكفرى .. أنا لا أجد عملا بسبب كفرك .

وتركها وخرج الى السوق وقصبته على كتفه .. وحين صار أمام دكان محمد الحلبى وجد شقة الخروف ملفوفة بقماشة بيضاء لدرء الذباب والغبار ، والحلبى يغط فى النوم على دكة خشبية فى قاع الدكان ، فقال الصفتلى فى نفسه : « هنيئا لك يا محمد ! لا بيت ولا حيط ولا زوجة أو ولد .. خفيف نظيف ! »

وقال لعازار الاسكافى :

ـ كيف الشغل ؟ يدك لم تهدأ من الصباح .

قال عازار :

ـ قضيت نهارى برقع هذا الحذاء الميت .. انظر ! هذه هى الرقعة الثامنة .. وقد قلت لصاحبه : « امش حافيا أفضل » . فقال : « أصلحه للمناسبات ! » .

قال الصفتلى :

ـ فى بونس ايرس لا يلبسون الأحذية المرقعة فى المناسبات !

ونظر فى رجل عازار الاسكافى المقطوعة وتابع :

ـ ولا يأتون الى المناسبات برجل مقطوعة أيضا !

فقال عازار محنقا :

ـ شيبة كلب ..!

وضحك الصفتلى لأنه اغاظ عازار .. ومضى مسرعا الى نايف الفحل ، فلما دخل الدار ، كانت مريم السودا وزوجها مركونين فى غرفتهما المعتمة ، صامتين عابسين ، وقد فرغا لتوهما من عراكهما الثانى لهذا اليوم ، وكان ظاهرا أن الفحل قد ضرب الدجاجة ، وأن هذه خرمشت وجهه ، ولولا وجود صقر لأدمى أحدهما الآخر .

ومط الصفتلى رأسه من الباب وقال :

ـ لا أسمع صوتا .. أتصليان ؟

فقالت مريم :

ـ انتهينا من الصلاة .. نتغازل !

ـ على الساكت ! ؟

وقال صقر الذى لحق بالصفتلى :

ـ مريم ونايف يتغازلان على الساكت !

فقال نايف وهو يزفر :

ـ الله يطعمك يا صقر !

وقال الصفتلى :

ـ قم يا نايف .. توكل .. حسبت حسابك فى المطعم

ـ لن أذهب ولن أجيىء .

ـ قالت مريم :

ـ لا يستطيع أن يقوم .. يبرد البيض .

وقال الصفتلى :

ـ اخز الشيطان وقم .

فقالت مريم :

ـ واذا برد البيض ! ؟

قال صقر :

ـ نايف لم يتوفق اليوم .

فقال نايف :

ـ الناس لا تجد ما تأكل .. فكيف تجد ما تصبغ به أحذيتها ؟

وقالت مريم :

ـ هذه عبارتك من يوم تزوجنا !

صاح نايف :

ـ ليتنا تجنزنا !

وصاحت مريم ويدها على القبقاب :

ـ يا ليت !

ونهض الفحل ليضربها ، فسحبه صقر الى الخارج ، ومضى به الصفتلى الى الصيد ، وعندئذ غادرت مريم غرفتها وراحت تخمع فى الدار كأنها تبحث عن شىء ، ثم ذهبت الى بيت أبى فارس وصاحت بفارس وهى تمد راسها من النافذة :

ـ ضبطتك يا أزعر .. متى رجعت الى البيت ؟

قال فارس وقد أجفل :

ـ عندما كنت تقذفين الفحل بالقبقاب !

ـ ولماذا لم تخلصنا ؟

ـ أنا مشغول .. لدى موعد .. غدا أو بعده أتسلم الشغل . وسأسعى لأجل نايف أيضا .

فنظرت اليه بارتياب وقالت :

ــ وكيف دبرت الشغل ؟ الفحل لم يستفتح .. ونحن بدون طعام .

ولم يجب فارس الذى كان يحلق ذقنه ، فصاحت به :

ــ قلت لك نحن بدون طعام !

فقام الى الصندوق ، وجاءها برغيف وهو يقول :

ــ بعد الحلاقة سأمسح حذائى .. لا تتحركى من البيت .

ــ أنا أمسح لك الحذاء اذا اشتريت لى أربع سيكارات .

ــ خذى الحذاء اذن .

فتناولته وقالت :

ــ لن أمد يدى عليه قبل حضور السيكارات .

ــ وهل اذهب حافيا ؟

ــ البس قبقابى .

ــ قبقابك ؟ وأقول لك عندى موعد !

فقالت مريم دون أن تلتفت :

ــ مرحبا موعد .. الذين مثلك يسيرون حفايا يا أزعر !

١٢

أشعلت مريم سيكارة هى الأولى هذا اليوم .. فضلتها على الرغيف الذى استعارته من بيت أبى فارس ، وبعد أن اعتدل مزاجها راحت تمسح حذاء فارس وتغنى :

ان كنت بدك تعشـــق تاجر بالحرير
والعشق صعب يا ماما بده فلوس كتير

فقال فارس :

ـ سيصير معى فلوس يا مريم .. غـــدا ســـأشتغل .. اصبرى على .

ـ وماذا يهمني انا ؟ انت لســـت زوجي .. انت جرو .. وسأرى الـكلبة التى تحب جرواً مثلك .

فقال فارس :

ـ لو تعلمين يا مريم ! الليلة ! الليلة سآخذ الرسالة وغـــدا أشتغل ، وسأسعى لأجل الفحل أيضا .

فقالت مريم :

ـ لا تذكرنى بهذا المخصى وشـــغله .. اذا راح الى البحر نشفه .. وانا خائفة الليلة على النهر .. اذهب انت وخذ الرسالة ولـكن لا تقلل أدبك مع الأوادم .. لا تحسب النـــاس كلهم مثل حسن حلاوة الفران !

***

وذهب فارس فى نحو الساعة التاسعة ليلا وطرق البـــاب ، ففتحت له معلمته بنفسها . قال معتذرا :

ـ تأخرت ! .. خفت أن يكون المكتوب غير جاهز بعد .

وقال فى سره : « كنت أريد أن أتأخر أكثر ولـكن لم استطع الانتظار .. أريد ان اعرف ماوراء هذه الحركات ، ولمـــاذا الموعد فى الليل ، وفى وقت متأخر ! » .

قالت سيدته :

ـ لم أكتب المكتوب بعد .. هل أنت مستعجل ؟

ـ وماذا ورائى ؟ انتظر أو أذهب ثم أعود .

ـ لا تذهب .. انتظر .

وقالت فى نفسها « بهيم أم يتدلل ؟ » ثم نظرت فى وجهه واسرت : « يا للفتوة ! لن تخرج من هذا البيت الليلة ! » . وتذكرت المستخدم السابق عند المرحوم وقالت : « فارس أجمل وأقوى » وجاءته بعلبة السكاير وقالت :

ـ دخن .. وانتظرنى حتى أخرج من الحمام .. الماء جاهز !

اشعل سيكارة وراح يتصور أوضاع سيدته فى الحمام .. كان يخشى أن يتأخر عن البيت ، ويفكر برنده قائلا : « ماذا لو علمت اننى أتملق هذه المراة النصف .. أنا الذى كنت أقسم لها اننى لن أحب سواها ؟ » ثم استسلم خياله للمراة التى فى الحمام بصورة نهائية .. لم تعد فى دنياه صدور ثلاثة .. صدر واحد الآن ، وليس من خوف أو حب ، بل شهوة معربدة وقدرة على اقتحام الحمام ولو أدى ذلك الى حرمانه من المكتوب والعمل

وقالت المراة فى الحمام : « سأهيجه كما يفعلون مع الثور ، وسأحرمه النوم حتى الصباح .. اذا كان رجلا فليذهب . ولكنه لن يذهب ، المراهقون لا يذهبون .. والرجال لا يذهبون .. فى بلدنا لا يذهبون .. النساء فى بلدنا سيدات الموقف .. المراة عندنا عظمة دسمة بالنسبة للكلاب المحرومة ! » .

ومضت تغتسل وهى تفكر بالجرو المربوط الى وتد الحرمان منذ ما استيقظت شهوته الى اللحم ، وتتخيل بلذة مفسودة كيف ستكون حاله حين تطلقه من رباطه بعد اهاجته الى هذا الحد .

وخرجت من الحمام ونادته الى غرفتها :

ـ أمستعجل انت ؟

فأكد بشكل جازم :

ـ أبدا .. سأبقى فى الصالون حتى تكتبى المكتوب .

ـ ولمـاذا فى الصالون .. أتخجل وأنت الذى تطلب عملا ؟

« يا نسل حواء ! أنا لا أخجل .. أنا لا أخجل ولكنى لا أعرف كيف أبدأ .. أنا لم أحب سوى رنده ، وهذه لا أزال احلم فى ان أمسك يدها .. أما انت ! وكل هذه المفاتن ! وهذا الصدر الذى فكرت فيه وعريته وداعبته فى خيالى عشرات المرات ! أيمكن ان أمد يدى وأقطف ؟ أم اننى أحلم ؟ اتضحكين على ! ؟ » .

وقال لها :

ـ ليس من عادتى أن أخجل ، ولـكنى .. كيف أقول ؟

ـ لا تقل شيئا .. لمـاذا تنظر الى هكذا ؟

« وضح الأمر الآن .. انها تحرضنى ، فهل أنا بحاجـة الى هذا التحريض ؟ كيف أفعل ؟ كيف يفعل الناس فى مثل هـذا الموقف ؟ مريم قالت لى : « لا تقلل أدبك مع الأوادم . لا تحسب كل الناس مثل حسن حلاوة الفران » ولـكن مريم لا ترى هـذا الجسم .. ونايف لم ير مثله ، وصقر لم يحلم به .. أنا وحدى أرى ، وأرتجف ، فماذا لو هجمت عليها وضربت بنصـيحة مريم عرض الحائط ؟ » .

وقال لها :

ـ أنا لا أنظر اليك بسوء .. اعذرينى !

فضحكت بقهقهة ونهضت ، تاركة لفتحة «الروب دى شامبر» أن تكشف عن استدارة فخذها .. ومضت وهى تقول :

ـ انتظر .. سآتيك بالمكتوب فورا .

وبدلا من المكتوب جاءته بزجاجة خمر وقدحين ، وقالت له :

ـ اشرب !

وابتسمت له باغراء واضافت :

ـ ولكن لا تنظر الى هكذا .. أنت تخيفنى !

وانقضت عليه ..

واطبقت شفتيها على شفتيه بقبلة مسعورة !

١٣

فى اليوم التالى رجع فارس الى البيت فى الضحى وهو بحاجة شديدة الى النوم . وقد تسكع فى الشوارع حتى هذا الوقت ليضمن ذهاب والده الى الشغل .

وصاحت به مريم السودا :

ـ اين كنت ليلة أمس ؟

فأراها المكتوب ودخل البيت توآ واغلق الباب .. فمدت راسها من النافذة وقالت :

ـ اين كنت ؟ والدتك بحثت عنك فى كل مكان .. سألت بيت الصفتلى والقندلفت وعازار الاسكافى ، وسأل صقر فى دكان محمد الحلبى ومقهى الشاروخ ، وكنا نريد أن نسأل المختار فمنعنا والدك .

ــ وماذا قال والدى ؟

ــ والدك لا يتكلم والحمد لله .. قال فارس الذى تعـرفونه انتهى ، صار رجلا .. ثم قلب الحديث . وفى نهاية السهرة قال لوالدتك : «قومى نامى ، حين يعود فارس نعرف ما جرى له » . فبكت والدتك وقالت : « واذا حدث له حادث ؟ » فقال والدك : « سنعرف ايضا ! » .

وتفرست فيه وقالت :

ــ أين كنت ؟ لمـاذا لا تقول ؟

ومضت فى تفرسها باحثة عن فارس الصغير ، الصبى ، غير الدنس ، فلم تجده .. كبر الآن .. كبر فى ليلة ، جعلها تعترف انه كبر ، فقالت فى نفسها : « الجرو صار كلبا ! » وقالت له :

ــ صباح اليوم دقت أمك الباب وقالت : « فارس لم يرجع حتى الآن يا مريم ! » فقلت لها : « لا تخافى .. عنده موعد .. رأيته يحلق ويتغاوى أمس ، وسيحصل على شغل ، ويسعى لأجل نايف .. ابنك عاشق يا أم فارس !

ــ وماذا قالت ؟

ــ انتظرت حتى راح والدك الى الشغل وعادت تبكى ، فأعدت عليها الحديث ، وكانت رندة موجودة .

صاح فارس مبغوتا :

ــ رندة ؟ !

فتنبهت مريم بسرعة واستدركت :

ــ لا .. كانت رندة بعيدة !

ثم قالت :

ــ اذا سألك والدك أين كنت فلا تقل له كنت عندها .

ـ عند من ؟

ـ عند معلمتك .. أما قلت لى انك زرتها قبل أيام ! ؟ أنا لا أنسى ، وهذا المكتوب ، اتحسب مريم على البركة مثل ام صقر ؟

ولم يقل فارس شيئا . كان يريد أن يخلو بنفسه ، وكان دوار فى رأسه ، وبقايا ذكريات على شفتيه ، وعالمه الداخلى قد اعتكر بفعل حجر اللذة الذى ألقى فيه . وكان يود أن يهرب من البيت فلا يرى والديه ولا رندة ، ولم تكن به رغبة فى الكلام أو الكذب ، وتمنى لو أن الآخرين يعفونه من ذلك .. ليقولوا ما شاءوا ، ولكن دون أن يطلبوا منه ايضاحا .

وبدون أن يخلع ثيابه انطرح على الفراش ، وتصورها للحظة الى جانبه ، بعريها ، ورائحتها ، وكلماتها ، وتصور نفسه مخمورا وعاريا .. وتراءت له رندة عاتبة ، غاضبة ، حزينة ، ووالده صارما مهوبا يصيح به بغير كلام « يا زانى ! » وتداخلت الصور وغامت .. وغط فى نوم عميق .

وتركته مريم وراحت تخمع الى مستودع الريجى غير مبالية بنظرات أبى رشيد . كانت تشعر بكره له ، لأنه رفض تشغيلها . فضل رندة عليها ، فقالت بصوت مسموع : « أنا لا أصلح للشغل لأنى لا أهز له ردفى ولا أرقص صدرى ! » وصاحت وهى تعود الى بيتها خائبة : « نذل ! » فقال أبو رشيد : « لن تدخلى الريجى ما دمت حيا يامريم ! » فأجابته : « لتأكل رأسك ! »

وقد دخلتها اليوم متحدية مستثارة . ولم يتعرض لها أبو رشيد طالما انها لا تأتى للشغل ، لكنه ضرب الطاولة بخيزرانته وصاح :

ـ جردا اجردوا .. ذهب ..

فقالت مريم وهى تخمع بقبقابها بين أكياس التبغ :

ـ ليجردك عزرائيل ويذهب بك !

وسارت الى أم فارس قائلة :

ـ هاتى البشارة ! فارس رجع كاسبا غانما . معه مكتوب توصية للشغل !

ـ أى شغل ؟ ومن أعطاه المكتوب ؟

وقالت مريم السودا وقد استفاق كيد الأفاعى فى بطنها فجأة :

ـ من يعطى مكاتيب توصية غير النساء ؟ ابنك فروين يا أم فارس ؟ !

ـ يا ويلاه ! لا تقولى هذا الكلام يا مريم . فارس طفل !

ـ طفل ! ؟ أى نعم ، ولكن الأطفال يعشقون اليوم .. والعشق خلق لهم .. للرجال لا للنساء !

وتطلعت صوب رندة وأضافت :

ـ نام فى حضن امرأة مثل البدر ..؟ كان يتقلب على حرير ونحن نتقلب على شوك .. والمهم انه بخير .. دبر نفسه وسيدبر نايف أيضا .

قالتها وانصرفت شاعرة بسرور لأنها تحدت أبا رشيد وقهرت رندة وردت للناس بعض كيدهم . وقد أضمرت أن تتحدث عن ليلة فارس الى الصفتلى وعازار الاسكافى والقندلفت ، وستخترع حكاية عن ليلة لم يسمع بمثلها الا فى الكتب ، لكى تجعلهم يموتون غيظا وحسداً .

توقعت أن تكون الليلة حامية فى بيت أبى فارس ، فحرصت على شهودها .. ستقوم بدور المصلح ، وتفهم الجميع ان كل

الناس يتقاتلون كما تفعل هى والنحل .. وما ان هبط الليل حتى قالت لزوجها :

ــ « تعش والحقنى ! » .

وذهبت فتكورت على الحصير قرب أبى فارس ، ولم يلبث الصفتلى أن شم رائحة الفضيحة فأقبل ، وكذلك فعل عازار الاسكافى ، وجاء القندلفت متأخرا نصف سكران ، واقعى صقر على العتبة والى جانبه أمه ، واندس فارس فى الزاوية يقرأ فى مجلة « ألف ليلة وليلة » ويخفى وجهه أكثر مايستطيع .

وجربت مريم ، بعد أن نفد صبرها ، أن تصب المـاء فى طاحونة فارس ، فقالت لصقر :

ــ انت لا تترك البيت . لم أسمع مرة انك نمت خارج البيت .. اسهر ليلة فى الخارج على الأقل .

قال صقر ببرود :

ــ وأين أسهر ؟ فى التاترو ! ؟

فقال الصفتلى مصححا :

ــ التياترو .. اسمها التياترو .. وفى البرازيل ..

فقاطعته مريم :

ــ فارس شخ(١) على برازيلك يا أبو رزوق .. لا تتحدث عن لياليك الكاذبة بعد ليلة فارس الحقيقية .

فابتسم أبو فارس بين شواربه وقد أدرك قصدها ، ولم يتدخل فى الحديث ، وعادت هى تقول :

---

(١) شخ : بال .

ـ خذ نايف معك يا فارس . علمه على السهر لأستريح من دمه الخفيف !

فقال أبو فارس :

ـ الذى عنده ست حسن مثلك لايسهر فى الخارج يامريم .

والتفت الى فارس وقال :

ـ لا سهر خارج البيت بعد اليوم .. سمعت ! ؟

وانقضت السهرة دون أن يقول كلمة أخرى فى الموضوع .. ولم يقل شيئا فى الصباح ..

ولم تمر رنده على أم فارس فى الصباح أيضا .

١٤

فى مطلع الأسبوع ، تسلم فارس عملا فى مصلحة الدفاع السلبى وقد حسب ذلك فاتحة خير ، فكان الفرح، فى اليوم الأول، يغمر كيانه كله . وحين عاد فى المساء ، اغتسل وارتدى ثيابه النظيفة وخرج الى السوق فجلس أمام دكان عازار الابيكافى ، وابلغ النبأ الى كل أهل السوق . قال :

ـ اشتغلنا أخيرا .

فسأل الجبلاوى صاحب المطعم :

ـ وما هو الشغل ؟

ـ حفر ملاجىء.

فلاحظ الاسكافى دون ان يرفع عينه السليمة عن الحذاء :

ــ يعنى حفر قبور !

واحتج فارس :

ــ بل ملاجىء !

عندئذ توقف الاسكافى عن رقع الحذاء وقال :

ــ ولك ابنى ، الملجأ والقبر شىء واحد .

وشعر فارس أن فرحته تكاد تتبدد ، وانه لابد من الدفاع بأى شكل عن العمل الذى يحمل شرف تمثيله . قال :

ــ هذا غير صحيح ، وانا ملاحظ على كل حال .

وحسم عازار الموضوع قائلا :

ــ المهم انك اشتغلت .

***

تدرج فارس نحو البيت ، آملا أن يرى رندة خارجه فيكلمها ويشرح لها وضعه . لقد أصدر والده حكمه فيما يتعلق بالسهر ، وكان هو ، على افتنانه بسيدته القديمة ، يشعر عقب خروجه من عندها بالفراغ والندم . كان يتساءل : « الا تذكر زوجها الذى مات فى الحرب ؟ وهل كانت تخونه وهو حى مع جميع الفتيان الذين عملوا فى متجره ؟ ولماذا الفتيان دائما ؟ » .

واشتد به الشوق الى رندة ، وكانت سيدته تلاحظ بروده معها فتسأله : « بمن تفكر ؟ » وكلما حاول ارضاءها طلبت المزيد حتى صار ينفر منها ، ويهرب باكرا متذرعا باضطراره الى النهوض باكرا ..

وذات مساء شاهد رندة خارجة من الحى فتبعها ، وعند السراى لحق بها وكلمها ، ولم يلاحظ أن سيدته كانت تمر وقد شاهدته ، فلما عاد اليها مساء سألته :

ـ منَ هى الفتاة التى كانت معك ؟

واخترع كذبة لم تنطل عليها .. كما لم تنطل أكاذيبه على رندة ، فقالت له :

ـ اما تلك المرأة .. واما أنا ..

وقال فارس :

ـ أنا مضطر الى عدم الانقطاع عنها لأجل العمل .

فقالت رندة :

ـ اذهب اليها ودعنى .. لا اريد أن تفقد عملك لأجلى .

وادارت له ظهرها ومضت رافضة أن تلتفت اليه .

***

واحتار فارس فى أمره ، وبدأ فتوره يثير سيدته ، فقالت له:

ـ اذا كنت لا تقضى الليل كله عندى فلا ترجع الى ..

ولم يرجع لأنه لا يستطيع مخالفة والده ، ولأن حبه لرندة كان يملك عليه نفسه .. صار لا يبرح البيت منذ يعود من الشغل وكان يعرف أن رندة تراقبه وتراه ، وكان هو يريد أن يثبت لها انه يحبها وحدها .. وخدها من دون سائر النساء ..

لكنه فوجىء ، بعد أيام ، ان مصلحة الدفاع السلبى تطلب منه أن يشتغل كعامل ، وأن يحفر بيديه كسائر العمال . أدرك أن هذه ضربة معلمته ، وتذكر مايقوله والده عن كيد النساء .. لكنه لم يبال .. قبل أن يشتغل عاملا على أن يعود الى سيدته وقالت له مريم السودا :

ـ وعد الحر دين يا فارس ! اين سعيك لأجل نايف ؟

فازور عنها مغضبا ، وقال لها فى المساء :

ـ سعيت لأجل نايف فلم يقبلوه .. أنا نفسي صرت عاملا بعد أن كنت ملاحظا .. حفر الملاجيء أوشك على الانتهاء .

قالت مريم :

ـ كنت على يقين أن المصلحة كلها ستلغى مادام نايف ينوى العمل فيها .

والتفتت الى زوجها وأضافت :

ـ لماذا لا تذهب الى الحرب ؟ كانت تنتهى منذ تمسك البارودة !

قال أبو فارس :

ـ اذا كان هذا تقديرك يا مريم .. فنحن مستعدون لتكتيف نايف وحمله الى الثكنة .

وقال فارس فى نفسه : « آه من هذه الحرب .. مصائبى فيها أكثر من مصائب كل الناس ! » .

وجعل ينفخ فى يديه ويدارى تعبه بشىء من عزاء ، لأنه رأى رندة وابتسمت له ، أو هكذا خيل اليه . لقد أصبح عمله صعبا الآن ، ولم يشأ أن يتركه لكى يثبت انه رجل ، ويتحدى تلك المرأة .. كان يضرب الأرض بفأسه من الصباح الى المساء ، هو الذى لم يعتد ذلك ، ويغوص فى الخندق حتى منتصفه ، ضاربا بكل ما فيه من قوة ، والفأس تئن بين يديه ، ومقبضها يكشط جلد راحتيه ، فيحس لذع النار فيهما ، ويظل جذعه فى حركة دائمة من استقامة وانحناء ، حركة متوافقة مع الفأس فى صعودها وهبوطها ، بينما التراب يرتفع من على جانبى الخندق باستمرار ، وتعلو ، من كل جهة ، ضربات الفؤوس عنيفة غضبى ، كأن لها ثأرا مع الأرض التى انبتت المحرومين . وصمت مرهق يفترس الجو ، وسحابة كثيفة من غبار تلطخ الوجوه .

كان فارس قد رأى منظرا كهذا فى فيلم سينمائى ذات يوم ، رأى المساجين يفتحون طريقا جبليا والحديد فى أرجلهم والعرق يتفصـــــد من وجوههم ، وهم يلهثون ، وحين ذكر ذلك صرف بأسنانه وقال :

ــ ها نحن نعانى نفس المصير !

لكنه سرعان ما قارن بين الطرقات والملاجىء ، وقفزت الى ذهنه كلمات الاسكافى :

ــ هذه قبور .

واذ ذاك تمثل نفسه فى قاع قبر كهذا ، والتراب قد أطبق عليه ، وجثم كصـــخر على صـــدره ، فسحق جمجمته وكسر أضلاعه ، فلم يتمالك نفســـه من الرعب ، ورفع رأســـه ونظـــر حواليه ، ثم تنفس الصعداء كأنه خارج لتوه من تحت الأنقاض .

***

وذات صباح ، حين أذنت فرصة الفطور ، خرج العمال من خنادقهم ليتناولوا فطورهم ويستريحوا .

كانوا حمر الوجوه ، ومن أعناقهم ، وعلى امتداد سواعدهم تنفر شرايين زرق ، محتقنة ، وعلى جفونهم التى استحالت بيضاء كالطحين ، طبقة سميكة من غبار ، والعرق يسيل من أفوادهم ذات الشعور الكثة الطويلة الملتصقة بالاصـــداغ ، ويتصبب فى ذقونهم ، شاقا أخاديد فى التراب المتراكم عليها ، وعيونهم تطرف فى تثاقل ، تطل من أحداقها نظرات يابسة ، فيها حقد ، وفيها اعتداد ، ومن أوساطهم فوق الجاكيتات الخلقة الممزقة ، تتدلى حبال أو سيور جلدية ، معقودة عند صـــدورهم لتمسك عليهم ثيابهم ، وتتدلى السنة ابواطهم العسكرية المفتوحة ، وهم يخبون بها خبا .

جلس الجميع فوق تلال التراب ، وجعلوا يأكلون فى مضغ عنيف فتصر أسنانهم وهى تقطع الخبز وتطبق على بعضها فى جوع ونهم ، ويتضاحكون بصخب أو يتشاتمون باقذاع .

واستلقى فارس قربهم ، والتصق بالأرض ، وحين هم برفع يديه الى ما فوق رأسه ، ليجعل من راحتيهما وسادة ، شعر بوجع شديد ، كأن جسمه قد رضه ضرب مبرح .

أدار ناظريه الى فوق ، وطفق يحدق فى الفضاء . كانت السماء صافية ، بلورية الزرقة ، والشمس حارة مشعة ، كشمس مدن الساحل ، ومزق من سحب رقاق تتسارع الى الجنوب ، مسوقة بعصا الريح .

بعد ثوان سأله عامل فتى :

ـ لماذا لا تأكل ؟

فالتفت اليه وقال :

ـ لا شهية لى .

ـ تحس بتعب ؟

ـ ...

ـ أنا أحس .

قالها العامل الفتى بسبب من بساطة ورغبة فى تخفيف آلام الغير ، وحدق فى فارس وسأله :

ـ أبوك صياد ؟

ـ ولماذا ؟

ـ هكذا !

وارسل نظرات شرود ، تحمل تساؤلات غامضة متلاحقة ، فى محاولة فاشلة لادراك طيف ضبابى لا تكاد تستجمع خيوطه الذاكرة حتى يبعثرها النسيان .

عاد يتفحص وجه فارس ، ويسترق اليه النظر ، ثم ينكت الأرض بين ساقيه المنفرجتين ، وكلما هم بقول شيء ما ، ضاع منه ، فعاد ذهنه الى النقطة التى توفز منها .

قال وهو يعصر جبهته شاحذا ذاكرته المتبلدة :

ـ أذكر انى رأيتك .

ـ أين ؟

ـ لا أدرى .

ورفع فارس راسه وصوب بصره الى العامل . كان الوجه معروفا لديه ، لكن أين رآه ، ومتى ؟

سأله :

ـ ما اسمك ؟

ـ نجوم .

وفكر فارس وقد استوى جالسا ، ثم استدار وهتف :

ـ على النهر ؟

وصاح نجوم :

ـ أى والله .

وعادا يتطلعان الواحد الى الآخر ، وقد استراحا الى هــذا اللقاء غير المنتظر . قال فارس :

ـ لماذا تركت الضيعة ؟

ـ وماذا أفعل فيها ؟ كرهت رعى الأبقار ..

ـ ومتى تركتها ؟

ـ منذ سنتين .

ـ وما تعمل ؟

ـ لا تسأل ، اول عمل كان نقل الحصى على الحمير ، وآخر عمل لا أعرف ..

ـ نقل الحصى أهون من حفر الأرض ؟

ـ لا ..

واستدرك :

ـ اذا أردت الحقيقة فلست راضيا عن الاثنين .

بعد ذلك اشعل نجوم سيكارة ، وراح يعب دخانها ويفكر :

ـ وانت ؟

ـ انا ؟

ـ مبسوط ؟

ـ لا ..

قالها جازما ، وقد سره أن يجد من يفضي اليه بدخيلة نفسه بغير خجل . فالتفت اليه نجوم وقال جادا :

ـ اذن فلماذا نبقى هنا ؟

ـ أين نذهب ؟

ـ الى ليبيا ..

كان هذا الاسم يمثل في ذهن فارس بلدا بعيدا ، يجهل موقعه ، لكنه سمع به في الأيام الأخيرة ، لذلك استفسر :

ـ وماذا في ليبيا ؟

ـ وماذا تظن انت ؟

فقلب فارس شفتيه ومطهما ، ولاحت في قسمات وجهه مسحة من عدم الرضا والجراة عن صاحبه بسبب تخلفه في الفهم والجراة عن صاحبه نجوم .

قال هذا :

ـ لا شيء فى ليبيا سوى الحرب . أما أن تقتل أو تقتل ، والنتيجة واحدة . لقد عفت نقل الحصى وحفر الملاجىء والنوم على الأرصفة . ثم ان لى حبيبة أريد الزواج بها ، فما تفعل بى اذا لم أوفر لها المال ؟ ولماذا نحب اذا لم نفكر بالزواج ؟

وأنشأ يثرثر ، هكذا ، خلال دقائق ، وفارس يصغى اليه ويفكر مستسلما :

ـ هذا صحيح .. المال ، والزواج .. ورنده ؟

استفهم :

ـ كم يدفعون هناك ؟

ـ كم تظن .. فكر .. أتذهب ؟

ـ وأنت ؟

ـ أنا ، وما يمنعنى من الذهاب ، أتريد الحقيقة ، حفر الملاجىء أقسى من الحرب ، سأذهب .. أكملت الثامنة عشرة منذ أيام ، وسأكون بعد أسبوع أو اسبوعين جنديا ، لى ثيابى وطعامى ومعاشى ، ولى ، أيضا ، راحة بالى من هموم الشغل .

كان نجوم ، القروى الصغير ،ممن اذا تكلموا اقنعوا .له اسلوب فى الحديث يغرى السامع بالاصغاء حتى النهاية ، وكان فارس مأخوذا بهذا الحديث باطنا ، كارها له ظاهرا ، وقد احس فى لحظة انه أحق من صاحبه بهذا المنطق لعدة اسباب ، اولا انه دخل السجن ، وثانيا انه ابن مدينة ونجوم ابن قرية ،وثالثا هو من اصحاب السوابق ممن يرفضهم اصحاب الاعمال،ومع هذا لا يملك الجراة ، لا يفكر بان يغامر كصاحبه الذى يعتزم الذهاب بعيدا جدا ليعود بالمال فيرضى حبيبته ويتزوج .

قال نجوم مكملا حديثه :

ـ بعد أيام سأتطوع ، واطلب الالتحاق بالجيوش المحاربة في ليبيا . هناك الطعام موفور ، والمعاش مضاعف ، والكساء جيد ، والموت ، بعد ، سهل ، مرة واحدة ... اما هنا ! ؟

وقذف عقب سيكارته بعيدا ، ونخر ، ثم نهض وقفز الى الضفة الاخرى ، واستلقى فارس على التراب ، وراح ، كعادته يحدق في السماء

مزق من الغيوم تتسارع كأنها في سباق أرصد جائزته المطر يسفها الريح ويندفها كقطن ، وحمامات تقطع الجو باجنحتها البيض ، وعصافير صغيرة ، تزقزق مرحة ، وهي تذهب وتجيء وتختبىء في اعشاشها القائمة عند حوافي الاسطحة، بين السقوف والآجر ، ثم لا تلبث أن تنتقل كأنها تتبادل الزيارات في عيد من أعياد الصحو والدفء .

***

فيما تبقى من وقت ، لم يتبادل فارس ونجوم أية كلمة . وقد جرب فارس أن ينسى ما سمع ، فجعل يفكر بحبيبته ، لكنه ما لبث أن اعترف أن الشيطان أقوى منه ، وانه مضطر الى التفكير بما قاله نجوم . لقد كانت هاته الكلمات : المعاش والطعام والنساء تحفر في ذهنه حفرا عميقا .

وحين عاد مساء الى البيت ، كان قد دخل في حلقة نفسية سيئة ، وفي تلافيف دماغه أسئلة كثيرة تفرض ذاتها فرضا : هل كل الذين يحاربون يموتون ؟ وهل يتعذب الموتى ؟ وكم يدوم هذا العذاب ؟

خيل اليه ، وهو يستشعر برودة حجرية اذ طرح هذه الأسئلة على نفسه ، انه جبان أكثر من كل الرجال ، وخليق بأن

يصفع ويهان ، وأن نجوم أكثر منه رجولة واقداما ، واكثر بأسا ولامبالاة بالحياة ، ولا يدرى كيف أو لماذا ندت منه هـذه العبارة المنطوية على الحسد :

ـ هذا الفلاح !

ومن ثم ، جعل فارس يغتسل ، واذ انتهى وارتدى ثيـابه حاول التسرية بالحديث مع والدته التى عادت لتوها من الشغل ، لكنه وجد صـعوبة فى اكمال الحديث ، فقطعـه بعد عبـارة أو عبارتين .

كان الملل يزهق روحه ، يفترسها كوحش ، والقلق يقرض أعصابه كخلد خبيث ، فتداعى فوق مقعد خشبى قرب النافذة ، ومضى يراقب أمه وهى ترفو ثياب والده ، واخوته وهم يلعبون ويتصاءون ، وقد بدوا له فى لهوهم كخرفان صغار ، فهتف فى ذاته :

« لماذا كبرت ؟ »

ورفت ذبالة القنديل فتحرك ظلها على الجدار ، وقد كانت هى الوحيدة التى أجابت على تساؤله الأصم ، وتتابعت تموجاتها الواهنة بعد ذلك ، وتابع هو مراقبة انعكاساتها على ما حوله من أثاث .

كان الفقر يطل من كل ناحية فى البيت ، وعبثـا جهـدت والدته لاخفائه . فمن طربوش والده العتيق ، المعلق على مسمار صدىء ، تتدلى شرابته دون حراك ، ومن الشرشف الكبير الناصل اللون ، تطـل ثقوب كأحداق فارغة فى جماجم عظميـة ، ومن الحيطان التى اصفر بياضها بسبب من الدخان ، من كل ذلك تتبدى حالة من العسر لحظتها رنده ولابد ، ولئن وجدتها حالا

طبيعية تعهدها فى بيتها وبيوت الآخرين ، فلا يصح ، أو انها لا ترضى ، أن تكون هذه حالهما بعد الزواج ، فيما اذا عرض عليها الزواج !

ـ نجوم على حق !

قالها وهو يمعن النظر فى ثقوب الشرشف ، ثم نهض يلوب فى فناء البيت ، تعذبه أفكاره التى بعثها نجوم بغير قصد هذا الصباح .

كان بحاجة الى البوح ، لكن من يصغى اليه ، ويفهم مراده ؟ فكر فى والده أولا ، ثم عدل خوف المعارضة ، ولما ضاق ذرعا فر هاربا من البيت ..

الظلمة تغمر الشارع ، والمصابيح الزرق اتشحت بالضباب فبانت كفوانيس الحفر ، وريح الخريف تتناوح فى مكان ما ، وقد حدثته نفسه بالذهاب الى معلمته ، ليشرب وينام وينسى ، لكنه لم يملك الجراة بعد هذا الانقطاع ، وكانت رنده تملأ خياله ، وقد توصل الى استرضائها ، وأصبحت تمر بهم كل صباح ، لترافق والدته الى الشغل ، فينظر اليها ، ويتغامزان ، ويمضى كل منهما الى عمله وفى نفسه اهتياج أشد من السابق . كان يتحرق الى الانفراد بها ، ليضمها الى صدره ، ويضغط على ظهرها ، ويقبل شفتيها ووجهها وعنقها .. لم يعد يقنع بلمس اليد .. فملامسة الجسد الحار فى أحضان تلك المرأة ذهبت بخياله النقى الى غير رجعة ، وبات يحلم برنده على نحو آخر ، اكثر دنسا ولكن أكثر تشويقا .. ولكى يهرب من أفكاره هذه اتجه صوب دكان محمد الحلبى فى أعلى السوق ، وسار فى عرض الشارع ، وسط الحوانيت المجوفة كالمغائر ، وفى صدرها فوانيس ناعسة تلقى ضوءا باهتا على بضائعها الناحلة . أما

الشارع فلا يبدو منه الا امتداده الذى يضيع فى الظلمة بعد أمتار ، ومن على الرصيفين المحاذيين للطريق ، يعلو وقع أقدام المارة فى هرولة متعاكسة الاتجاهات . وقد وجد ، بعد أن خب فى الظلمة قليلا ، ان دكان الحلبى مغلقة ، وحين اقترب منها رأى نورا يبص من شقوق الباب ، فطرقه طرقا خفيفا ، وسمع حالا صوت الحلبى جهوريا من الداخل :

ـ من ؟

ـ فارس !

ـ أهلا .

وفتحت ضلفة الباب وصاح الحلبى :

ـ اسرع ، الحارس يرانا .

فرد صوت مخمور من الزاوية :

ـ فشر ! .

وقال آخر :

ـ لسنا نساء ولا لقمة كنافة ..

قال الحلبى :

ـ الحارس عبد مأمور .

فعلا الصوت المخمور متعتعا :

ـ ما شغله معنا ، نسرق مال السلطان ؟

فنصحهم الحلبى بصوت متهدج :

ـ لا تصيحوا !

لكن أصواتا كثيرة ، متداخلة ، اندفعت فى لغط وسباب ، اعقبها ضحك متواصل اثر نكتة ماجنة ، وفرقع صوت كأس وقعت

وتحطمت بعنف ، وأزت نثراتها قبل أن تستقر فى جوانب الدكان وتحت الأقدام ، وضرب الرجل المخمور على حافة الطاولة فاهتزت قوائمها المتخلعة ، وترنحت الشمعة الوحيدة التى فوقها وسقطت على شرواله ، فنفضها وهب واقفا ، واذ ذاك سقطت وانطفأت فسادت الظلمة الدكان ، واندفع الرجال يقهقهون فى صخب وضجيج ، تقطعهما كحات من سعال لزج ، يعقبها بصاق على الجدران وخبط بالأرجل وشتائم مكشوفة صاخبة .

صاح الحلبى وقد وقف ووضع يديه فى خاصرتيه فوق تكة الشروال ، وبدا مخيفا كأنه موشك أن يرتكب جريمة عن عمد وتصميم :

ــ كفى ، اشعلوا الشمعة !

ولما لم يجيبه أحد ، لاستغراق الجميع فى الضحك والسباب أعاد صيحته التى اشتدت وغضبت :

ــ كفى !

واستمر الرجال فى نوبة الهرج العنيف ، فزعق الحابى للمرة الثالثة :

ــ يا أوباش ، كفى ، قلنا كفى !

وكفوا جميعا عن الضحك .. سوى الرجل المخمور الذى افقدته الخمرة وعيه فقد أجاب بلا مبالاة :

ــ حلمك علينا يا ...

وأشعل أحدهم عودا من ثقاب وسأل :

ــ أين الشمعة ؟

وفى نفس اللحظة انحنى الثلاثة دفعة واحدة ، وجعلوا يفتشون بين قشور البرتقال وأوراق الفجل ، واذ وجدوا

الشمعة وأشعلوها ، أضاء نور واهن متراقص ، وجوه الجالسين فجلاها لعينى فارس الواقف عند الباب ، وتبدت له الشوارب الكبيرة المتهدلة على الأفواه ، والشراويل السود ، وطاقيات اللباد ، وظهر محمد الحلبى منتصبا وسط الدكان ، قاسى الملامح ، يهتز شاربه لفرط الغضب ، وتحدق عيناه الحمراوان بعصبية ونزق ، وطربوشه الخمرى قد مال الى وراء ، وبدت جبهته المحدبة مكشوفة قليلا ، ومراق أنفه يرتعش شأن الرجال الأقوياء ، وقد برز شريان أزرق فى جبينه لو مسته ابرة لنفر منه الدم الى بعد أمتار .

نهض رجل نحيل ، ضامر الخصر ، يشد عليه ، فوق الشروال الأسود ذى الثنيات ، زنار حريرى أبيض ، معرق باللون الرصاصى ، وجعل يرف بجفنيه اللذين خيل الى فارس أنهما شقا بالطول ، خلافا لجميع الجالسين ، مما أعطى وجهه شكلا يابانيا ، لولا أن رقبته طويلة رفيعة ، ووجهه مستطيل جدا ، تتدلى فى وسطه ، تحت الأنف الدقيق البارز ، شفة مقلوبة ومكورة ، ويغطى القسم الأكبر من شفته العليا شارب قليل الشعر ، كأنه نتف مرة لم ينبت بعدها !

كان فارس يعرف هذا الرجل ، ويعرف أنه حارب الفرنسيين فى جبل الزاوية حتى أعجزهم فوضعوا مكافأة لمن يقتله ، وكان أهل الحى يقدرونه لذلك برغم تصرفاته السيئة ، واذ يمر فى الشارع يشيرون اليه قائلين :

ــ أبو جميعة !

وكان أبو جميعة هذا ، الماثل لعينى فارس فى هذه اللحظة ، ـدر فى الناس الرجولة أكثر من أى شىء آخر ، ويقول لمن ـوله :

ـ جئت من بطن أمي والسكين في يدى (وهذه العبارة ـ كما يؤكدون ـ لمحمد الحلبى فى الأصل) انما السكين سلاح العاجز اذا استعملت للغدر بالناس ، ولهذا فان العصا خير منها ، أو كما يقول الحلبى ، لم يبق من يلقى ضربة السكين أو يستأهلها ، ثم أن قيمتها كانت ، فى جبل الزاوية ، كقيمة الملعقة ، هناك كان الدور للبارودة والرشاش .

ولما سمع أبو جميعة ، من محمد الحلبى ، أن فارسا ضرب حسن حلاوة الفران أثنى عليه ، وسهر عند والده ليلة كاملة ، وسأله « هل من يضايقك يا عم ؟ » فابتسم أبو فارس وقال « أنتم فى الحارة ونحن نشكو المضايقة ؟! » ، فصاح الحلبى « باطل أبو فارس ، انت رب المرجلة » . لكن هذا لم يمنع الحلبى من الترصد ، خوفا أن يأتى أقرباء حسن حلاوة ، من الحى الآخر ، ويعلموا على حى القلعة ، بالتعرض لأبى فارس .

ان الرجل خليق بالرجال وكفى ـ هذا هو شعار أبى جميعة ، ولهذا فقط وقف لفارس وقدم له كرسيا ، وقال :

ـ تفضل .

فتحرك الحلبى من مكانه وقد زايله بعض غضبه وأجاب :

ـ أما أنت فاجلس ، فارس أخونا .

وتناول « سحارة » وقال :

ـ هنا ، قربى ..

وجلس فارس وهو يفكر ، دون أن يقطع برأى : هل أخرج ؟ وقد لحظ أحد الحضور تردده فصاح :

ـ خائف منا ؟

ـ فارس ؟

سأل الحلبى باستنكار ، وجلس وهو يفتل شـاربه ، بينا سأل الرجل المخمور وهو يتوجه بكلامه الى فارس :

ـ انت ضربت حسن حلاوة الفران ؟

ـ بلى .

ـ ليتك قتلته !

فقال الحلبى :

ـ لا داع للقتل ، التأديب يكفى .

ـ لا يكفى .

ـ بل يكفى !

ـ لا يكفى .

ـ قلنا يكفى !

فزعقت أصوات من حواليه :

ـ لا يكفى .. لا يكفى !

كانوا منقسمين ، منذ القديم ، حول هذا الموضوع ، بعضهم يرى أن يكون الضرب للتأديب فقط ، والبعض الآخر يرى أن يكون للقتل ، أو التعطيل على الأقل .

سأل الحلبى :

ـ لما تريدون قتل حسن حلاوة ؟

ـ لأنه كافر !

فقال الحلبى محاولا انهاء الموضوع :

ـ كلنا نكفر ..

فقاطعه رجل لم يتكلم قبل الآن :

ـ لا كفر أكثر من سرقة الخبز والتعاون مع الأعداء .

وقال ابو جميعة :

وأضاف بعد وقفة قصيرة :

ـ كلهم يسرقون .

فأجاب الحلبى برما بالحديث :

ـ نحن على طاولة سكر أم فى محكمة ، فهمونى !

ـ ليسرقوا . كل مسروق سيرد ، ولابد ، فى النهاية ، من حساب ، لابد من تأديب الذين يخونون الوطن .

وقال رجل خرج لتوه من السجن :

ـ لا يأكلها سوى الضعيف .

وأراد المخمور أن يعلق على هذا القول ، فانتهره الحلبى نافد الصبر :

ـ يا عبد الهادى ، يا أخانا ، كفى فلسفة ، لسنا فى محكمة الآن ..

ونقر بكأسه على حافة الطاولة وقال :

ـ اشربوا ، واذا كنتم رجالا خذوا ثأركم دون كلام ، العمى ! هل هبطت عليكم المرجلة فى هذه الساعة ؟

ضحك فارس فى قلبه رغما عنه ، وقد أنسته طرافة اللوحة أفكاره الخاصة ، لكنه لم يعلق بشيء على ما سمع ، وفى أعماقه شعر براحة لهذا التحدى يطلقه هؤلاء الرجال فى وجه الحياة ، كيف يفكرون ، وقرر فى نفسه :

« لن استطيع مفاتحة الحلبى فى الموضوع » .

اغتم لذلك قليلا ، وود لو شرب كأسا أو كأسين ، لعل الخمرة تقضى على تردده ، وتجلو الصدأ الذى يعلو صفاء نفسه ،

لكنه لم يكن يملك مالا ، وقد فهم فى هذه اللحظة ، أن للرذيلة ، كما للفضيلة ثمنا يجب أن يؤدى من السمعة أو الجيب ، ولما لم يكن راغبا فى تلويث سمعته وقف وقال :

ــ أتسمحون ؟

ــ نعم نسمح .

قالها الحلبى بغير لف ولا دوران ، وأضاف :

ــ أنت لا تنسجم معنا ومكانك ليس بيننا . اذهب وسلم على الوالد ، واذا مررت أمام الفرن فتجاهل حسن حلاوة تماما ..

أضاف أبو جميعة مكملا حديث الحلبى :

ــ أما اذا انفردت بفرنسى فاكسر رقبته دون ابطاء ..

قال فارس وهو يبتسم :

ــ لعينيكم ..

ورد الجميع :

ــ لعينيك .. حيا الله الرجال !

وخرج فارس فأغلقت الدكان كما فتحت ، وعاد أدراجه الى البيت ، يخب وحده فى الشارع ، ويسمع وقع أقدامه على الأرض وقد عاوده التفكير بموضوعه الخاص :

« أيظل يحفر الملاجىء أم يتطوع ويذهب الى الحرب ! »

الشارع مظلم ، مقفر ، والمصابيح الزرق تتلفع بسحابة تزداد كثافة كلما ابترد الليل ، والريح تعصف ، والسوق أقفلت وليس من حركة سوى عصا الحارس تنقر نقرا رتيبا على الرصيف .

***

وعندما استلقى فى فراشه ، كان قد استقر رأيه على البقاء ، وقد ابتسم حين تصور نفسه جنديا عند الفرنسيين :

« العمى ! أمجنون أنا ؟ وماذا يقول عنى هؤلاء الرجال !؟ »

همس بذلك فى وليجة نفسه ، واستدار على أحد جنبيه وهمد ..

١٥

وعند الفجر أفاق قبل موعده ..

كان خجلا من تصرفاته أمس ، وسرعان ما اغتم ، وراح فى تفكير انقلب الى نوع من ذهول . الحاجبان مقفلان ، واليد اليمنى تنبسط على الطرف الأيسر من الصدر ، والأسنان تصر فتبرز عظمتان فى مؤخرة ذقنه تحت الأذنين ، والوجه ضامر فيه قسوة وصرامة .

كان تفكيره يدور حول نقطة واحدة : الجندية . واذ استعاد القرار الذى اتخذه قبل أن يستسلم الى الرقاد أمس ، شعر بارتياح داخلى ، فتثاءب ، وتمطى ، وقفز من الفراش وهو يقول فى نفسه : أبدا ! لا يمكن أن أتطوع مع الفرنسيين .

وفى طريقه الى الشغل ، تمثل فى خاطره الرجال الذين رآهم عند محمد الحلبى . وقد وجد أن الرجل الطويل الناحل ، انطبع فى ذهنه أكثر من سواه . كان كرهه للفرنسيين عنيفا ، وهذا ما ساعد فارس على استبعاد التفكير فى التطوع ، فمن

الجائز أن يراه هذا الرجل ذات يوم ، وعندئذ لابد أن يبصق فى وجهه « يا نذل » .. « وفى مثل هذه الحال ــ قال فارس فى نفسه ــ أموت خجلا ! »

وهكذا ، ناسجا على منوال هذه الهواجس ، ظل يفكر طوال يومه . وقد بدا سادرا كأنه يعيش فى عالم مستقل ، ومكث نجوم يراقبه عن كثب ، موقنا أن الخميرة قد بدات فعلها فى العجين ، وحين انتهى العمل فى المساء ، أسرع فارس فاستبدل ثيابه ، وخف الى شارع « سانت اليكس » حيث تواعد مع رنده على اللقاء .

ومن جديد حين التقيا وسارا جنبا الى جنب ، جعل يفكر فى موضوعه الخاص ، غير انه أمسك عن ذكره ، واكتفى كعادته فى الآونة الأخيرة بالتنهد لغير ما سبب . ولما ضاق ذرعا بالصمت ، واستشعر حاجة الى مفاتحتها فى الموضوع ، ألقى ، بغير مقدمات ، العبارة التالية :

ــ ربما سافرت ..

ــ الى أين ؟

ــ وهل أعرف ؟ سأترك المدينة ، وهذا كل شيء ..

كان مقدرا أنها ستبكى لدى سماعها هذه الكلمات ، وقد توقع منها ذلك بدافع من شعور خاص ، ثم تطلبه كدليل على الحب والاخلاص ، ولو انها بكت ، لقال لها بحرارة « لا تبكى .. أنا لك طول العمر ، ولن أسافر » ، الا أنها لم تفعل ، واكتفت بالتطلع الى وجهه الشاحب الجذاب ، وأمسكت أصابعه المرتعشة انفعالا فداعبتها برفق وحنان ، وتابعا السير وكل منهما يتقرى فكرات الآخر .

كانت الشمس على وشك المغيب ، وقد امتزجت حمرتها القانية بصفرة شاحبة ، واستطالت ظلال الأشجار استطالات مضطردة ، وبدت الأغصان جرداء ، كأصابع معروقة ، مرفوعة الى فوق ، تذكر بالخريف وتعطى لوحة قاتمة عنه ، والطريق من السراى الى ساحة القديسة الكسندرة ، تمتد فى خط مستقيم ، ثم تضيع بين البساتين ، والبحر الأزرق يبدو رحبا كالرجاء منبسطا كسهل لا نهاية لاتساعه ، يلامس الأفق فى الأبعاد البعيدة ، ويحلم ، هادئا راكدا ، بما لا يدرى الا هو ، كأنه يهدهد أسرارا خاصة به ، ويرمق المدينة بعين عظيمة الاتساع ، مبتسما وقائلا « اعرف كل شيء » ، ثم يقهقه بموجاته المصطفقة على صخور الشاطىء ويضيف : « لكننى لن أبوح بشيء » .

وفى النهايات القصية ، حيث يخيل الى الرائى أن السماء تلامس صفحة الماء ، كانت سحب كثيرة تتجمع ، متوهجة كجمر ، وقد وقفت عند تخوم الأفق ، تودع الشمس الغاربة ، وعلى البحر ، الصافى صفاء السماء الممتدة فوقه ، تنبسط حزمات ذهبية من ضوء ، لها شكل رماح ، وترتسم وراء القوارب الذاهبة فى طلب الصيد ، خطوط رصاصية خلفتها مجاديف القوارب المنزلقة على الماء ، وطيور بيضاء تحوم فى الفضاء ، فتعلو وتهبط ، وتنفتل فى السماء ، وتنقض حتى لتلامس أجنحتها الماء ، وتبتعد حتى تختفى عن الأنظار ، ثم فجأة تأتى ، كأنها كانت فى طوايا السحاب .

وكان المستشفى الكبير ، ذو الآجر الأحمر القانى ، محاطا بحقول الزيتون والتين والليمون ، وعلى سطحه يلوح صليب احمر رسم بالكلس أو بدهان أبيض ، ومن حقل مجاور يتعالى غناء رقيق يرجع صداه البحر من جهة ، والجبل من جهة أخرى ،

وكانت الأغنية اسوانة ، وصوت المغنى حزينـــا ، يمور بالصبابة والوجد .

يا ميجانا ويا ميجانا ويا ميجانا

لا تزعلوها بعــــدها بتحبنـــــا

سألت رنده ولما تزل تداعب انامل فارس :

ــ تحب العتابا ؟

رنا اليها فارس وقد تضاعف تأثره ، وأحس عاطفة جارفـــة تتولد فى أعماقه ، وقال :

ــ ومن لا يحبها ؟ والدى . . .

وتذكر مواله المفضل « المشنقة أرجوحة الأبطال » فأضـاف :

ــ اذا أردت الحقيقة ، الموال ، فى رأيى ، أجمـــــل أنواع الغنـــــاء .

وخالفته رنده :

ــ كل الرجال هكذا يقولون .

وسكتا لحظة ، فابتعد المغنى ناشرا وراءه أصداء غنائه العذب ، وزقزقت عصافير كثيرة بين الأشجار ، ودفدفت بأجنحتها ورفرفت

وسألته رنده :

ــ ماذا تفكر ؟

ــ فيك .

ــ وعجب كيف باح لها بصراحة تامة ، انه يفكر فيهـــــا ، فارتسمت على وجهه ظلال ندم على ما قال ، و أدركت رنده ذلك فسألت بغير قليل من الدلال :

ــ تفكر بى وتريد السفر ؟

ـ اريد السفر لانني أحبك .

ـ الذين يحبون لا يسافرون .

ـ اما انا فسأسافر .. سأفعل ذلك لاجلك لاحصل على المال وأتزوجك ! وهتفت رنده حالمة :

ـ تتزوجني ! .. ومع ذلك تسافر ! ؟

سكت فارس غير راغب بأي جواب ، واكتفى باستراق النظر الى الجانب الايسر من وجهها ، بينما هي تسير الى جانبه ، مرفوعة الرأس الى وراء كعادتها .

تفحص أولا جسمها الفارع ونهديها الناميين ، ثم عنقها وكتفيها وشعرها المتهدل فوقهما ونظر حواليه وفكر :

ـ هل اقبلها ؟ هل أحصرها بين ذراعي ؟!

كان يجهل كيف يشرح لها حبه ، وتكاد عواطفه التي تجيش في صدره تخرج به عن الاتزان ، وهو ، من جهة ، قادر على البكاء ، لكن مثل هذه الطريقة في شرح الحب لم تكن تروق له ، وقد آلمه انه لا يعرف كيف يتحدق المحبون ، وشعر للحظة انه انسان غبي لا يصلح لشيء ، وان على رنده أن تقوده ، وأن تشجعه .

الشمس توسدت صدر البحر ، ولملمت بقايا أشعتها عن رؤوس الأشجار وأسطحة المنازل ، وازداد توهج اليم واحمرار الأفق ، وتراقصت زوارق الصيد ناشرة ملاءاتها البيض ، وحملت الأمواج في تدفقها نحو الشاطىء نسمات رطبة أنعشته فانتفى ارتباكه وصفا ذهنه وهدأت نفسه ، فأسف على التفكير السيىء الذي راوده منذ هنيهة . قال في سره : « ان ما فكرت به ليس من الحب في شيء ، انه شهوة قذرة ليس غير » . وقد وجد ان هذه النوبات الشهوانية كثيرا ما عاودته في الآونة الأخيرة ..

فالهبت نارا فى جسمه كله ، واذ ذاك يروح فى تصورات داعرة ، يخجل منها اذا انجاب الليل .. كان يتمثل رنده وقد نضت ثيابها ، ووقفت دون هذه الأستار التى تغيب جمالاتها وتخفى ملاحتها . وكان يذكر المرأة الأخرى ، فيشعر بالقرف اذا قارن بين جسمها وجسم رنده ، ويقول فى نفسه : « أشتهى هذه لا تلك ! » .

وكانت رنده التى تعرف أكثر مما تتكلم ، تراقب حيرته بكثير من التلذذ ، وقد سألته للمرة الثانية :

ــ هل تحلم ؟

غمغم ، كطفل ضبط يرتكب ذنبا ، بما لا يدرى من لفظ كى لا يفصح عن حقيقة مشاعره . كان موقنا انه أذنب ، وان من من تخاطبه عرفت ذنبه وقد تعاقبه عليه ، لذلك جهد لاخفائه ، واضعا يده فى فتحة قميصه ، باسطا راحة يده اليمنى على الصدر ، وعيناه مشدودتان الى قرص الشمس الذى تعرى وغاص فى الماء حتى منتصفه ، بينما رنده متعطشة الى سماع كلمة ما عن هذا الذى يحسه ، عن الذنب الذى لديها مايقابله ، عن الشوق المتجمع فى كلمة « أشتهيك » ، تلك التى تحبها المرأة وتتوقعها ، وتبذل من نفسها الشىء الكثير لسماعها .

عاد فارس ينظر الى رنده فى دهش ، وقد ازداد لسانه عيا ، وأخذت عيناه تومضان وتفصحان عن شهوة لا سبيل الى اخفائها ومضت وهى تحدق فيه تحديقا متزايدا ، لكنها كانت هادئة ، واثقة من جمالها وقوة سلطانها عليه ، شاعرة بأنها قادرة على ضمه وتقبيله أمام جميع الناس .

كانت متطرفة الميول ، لاتقنع من الاشياء باوساطها ، واذ تعرى نفسها على حقيقتها ، تجد انها جارفة النزوات ، متعطشة

الفرائز ، يستعر بين ضلوعها لهب الشباب ، وتتشهى بين مقلتيها نار الرغبات ،وترهف اذناها الى كلمات الحب العنيفة ، الصارخة لا الفاترة ولا الهامسة ، وهى بعد ، تدرك كل هذه الأشياء باحساساتها وليس بمسمياتها .

لقد صدت الكثيرين ، عذبتهم ، هزئت بهم ، وقد خيل اليها انه جاء يوم العذاب فى حب عنيف تكشف لها فى هذه اللحظة جارفا كل الموانع والاسباب الخاصة لديها ، بسبب من لامبالاة فارس ، واعتزامه السفر وراء ما ليس تدرى من الأشياء الجميلة التى تحلم بها ولكنها لا تريد أن تفصلها عنه ..

ولقد وجدت لذة محمومة فى أن تمد ذراعها وراء ظهره . كانت العتمة قد حجبتهما عن العيون البعيدة ، فما شعرت الا ويدان قويتان تهصران جسدها ، وشفتان حارقتان تتبردان على شفتيها فى قبلة وجلة ، خاطفة !

كانا قد بلغا قاعدة تمثال « القديسة الكسندره » في فسحة مستديرة .تحيط بها الحقول ، وتطل من احدى جهاتها على البحر وكان التمثال عامودا من رخام ، وقد بدا طروبا كأنه يهم أن يبتسم أو لعله يستعيد ، على طريقته المفضلة ، ذكريات قديمة ، أثيرت لديه .

انهما لا يعرفان قصة التمثال ولا حكاية «القديسة الكسندره» على أن وجوده ذاته ، والاسم المنقوش عليه ، أوحيا اليهما خشوعا عميقا ، خشوعا نبع من نفسيهما الصافيتين الطفلتين .. وتفاعل مع سمو الطبيعة وجلال الذكرى ، وقد بدا لهما أن القديسة الكسندره قامت بعمل كبير ، ومن المؤكد انها لم تكن امرأة كسائر النساء ، لعلها راهبة ، أو شيء من هذا القبيل .

ولا يدرى فارس كيف ، أو ما هو التداعى الفكرى الذى جعله يرسل هذه الملاحظة :

ـ القديسة ألكسندرة أحبت أيضا .

واضاف قبل أن يفسح مجالا لأى جواب :

ـ نعم .. أحبت !

قالت رنده وفى غنة صوتها عتب رقيق :

ـ القديسات لا يمنحن قلوبهن الا للمسيح .

ـ والراهبات هكذا .

ـ والقديسات كن راهبات فى الأصل .

ـ أنا سمعت براهبة أحبت .

ـ من قال ذلك ؟

ـ جارتنا .

سألته رنده بمزيد من العتب :

ـ وهل صدقت أنت ؟

قال وقد استدارا عائدين :

ـ نعم صدقت .

وبعد توقف أضاف :

ـ ولماذا لا أصدق ؟ للراهبة ، كما لنا ، قلب وقد روت جارتنا (وهى امرأة فقيرة دخلت المستشفى اثر نزيف كاد يقضى

عليها بسبب من الاجهاض العمد) انها تعرفت هناك الى راهبة تحب !

وانشأ بعد ذلك يروى لها الحكاية :

كان النزيف قد ذهب بدماء المرأة ، وظلت أياما فى غيبوبة تامة ثم زايلها الخطر ، وصحت وتماثلت الى الشفاء ، لكنها لم تكن تستطيع النوم ، فدرجت ، لكي تسلى نفسها ، على انشاد بعض المواويل والأغنيات القديمة .

وذات ليلة ، كانت قمراء قائظة من ليالى آب ، دخلت غرفتها راهبة شابة فسمعتها تغنى :

عا العين يا أم الزلف　　زلفا يا عينيا
لا تحلفى وتنكرى　　مرجوعك ليا

وقالت جارتى :

كنت أغنى وعيناى شبه مغمضتين ، فلما شققتهما وجدت الراهبة فوق راسى . كانت المفاجأة كفيلة بأن تخجلنى وتخيفنى ، فصمت متوقعة التأنيب ، لكن الراهبة لاطفتنى بأكثر مما تستطيع :

ـ كيف انت اليوم ؟ صوتك جميل ، اى ؟ غنى ، لماذا تسكت ؟ ارجوك !

... وغنيت ، نعم ، غنيت حتى صفا راسى ، وكلما توقفت طلبت الراهبة المزيد .

كانت الأنوار منبعثة من المرفأ تترك انعكاسات ضوئية على الماء والقمر يسطع فى السماء ، والمنارة البعيدة تشع وتخبو ،

والأرض تتنفس فيسمع لتنهداتها نشيش فى الآذان ، وقد الهى كل ذلك فارسا عن متابعة الحديث ، فسألته رنده :

ـ وبعد .. ؟

وبعد ؟ نالت جارتى حصة طيبة من اللحم والخبز فى اليوم التالى ، انما كان عليها ـ كما قالت ـ أن تدفع الثمن غناء فى المساء ، وهكذا مضى أسبوع فى كل ليلة ، بعد صلاة المساء ، تأتى الراهبة فتقف الى النافذة ، وتسند رأس المريضة بوسادة وترجوها أن تغنى وتصغى هى وتذهب فى تفكير طويل ، وتظل تنظر الى بعيد .. ماذا يا ترى كانت ترى ؟

قالت رنده دون أن تعلق أهمية على جواب تساؤله :

ـ وبعد أيضا ؟

ـ بكت الراهبة ذات ليلة ، بكت كطفلة صغيرة ، وخجلت فهربت . لقد أقسمت جارتنا ان هذا جرى معها بالتمام ، وان الراهبة بللت الأرض بدموعها ؟

سألت رنده :

ـ هل بكت لأنها تحب ؟

قال فارس :

ـ من يدرى ؟ الأغنية كانت تتحدث عن الحب .

وسكت لحظة فسألته :

ـ وماذا جرى للراهبة ؟

قال فارس :

ـ ذهبت ولم تعد .. اختفت من المستشفى كله .

هبط الليل وتكاثف الغبش ، فرجته رنده أن يسرعا ، ولم تنس اذ وصلا البيت أن تسوق اليه هذا الطلب ، واضعة فى لهجتها كل ما فى المرأة من دل واغراء :

ـ قل انك لن تسافر !

وأخذته حماسة الصبا واعتداده :

ـ بل سأسافر .

ولما أصبح وحيدا تساءل :

ـ كيف قلت لها سأسافر ؟ والى أين ! ؟

وجاءه صوت نجوم من داخله :

ـ الى ليبيا يا فارس ! الى ليبيا ! !

١٦

بعد أيام من هذا اللقاء وجد فارس نفسه يتسكع فى الطرقات بغير عمل . وقد كانت مفاجأة اليمة له حين ابلغته مصلحة الدفاع السلبى ان العمل انتهى .

تساءل مغضباً :

كيف ؟ !

ـ انتهى ...

فربت زميله نجوم على كتفه بلطف ، مرتاحا الى هذه النتيجة المتوقعة ، وقال كالظافر بتوجيه انسان ما وجهة معينة :

ــ ما رأيك ؟

ــ لن أتطوع .

ــ انت جبان !

ــ **أنا ؟ !**

قالها باستنكار ، وقد خيل اليه انه داخل مع نجوم في عراك لا محالة .. وبجهد ضبط أعصابه ، واكتفى بالتحديق فيه بقهر وغيظ ، وقد بدا ذاهلا خامد العزم ، كانسان ركض طويلا حتى اقترب من النقطة التي يقف عندها مرغما ، مستسلما بيأس حقود الى شخص يطارده بغير اشفاق .

قال نجوم :

ــ الجندية ولا سبيل غيرها ، لو كنا سنبقى هنا لما تطوعت .. سنرحل ، سنذهب بعيدا ، ونعود ..

فقاطعه فارس :

ــ ان عــــدنا ...

ــ لــماذا التشاؤم ؟ سنعود دون شك ، فكر في الموضوع .. مال وزواج .. ماذا قلت ؟ سنلتقي في الثكنة ، طيب ؟

ومضى متعجلا . دون أن ينتظر الجواب أو يعلق اهمية عليه ، وراح فارس يلاحقه بأنظاره حتى توارى . ثم جعل يفكر بأقواله ، شاعرا ان رأسه تطن كقفير نحل .

لقد انذر رنده في ساعة اعتداد انه مسافر ؛ وقد حسب انه

يلهو بذلك ويتعزز ، لكنه الآن وقد أضحى بدون عمل ، يجد نفسه ملزما بتنفيذ انذاره . والا فما عساه يقول لها غدا اذ يلقاها ؟ لاشك أنها ستكتشف لعبته وتضحك منها ، وستنظر الى كل تهديد أو تعزز من جانبه نظرة هزء ورثاء ، وسيغدو تبعا لذلك مدعيا فارغا فى نظرها .

كان عقله مدفوعا الى استنباط هذه المبررات السخيفة بسبب من الايحاء الخفى ، وقد كان قمينا أن يلحظ تأثير نجوم فى كل ذلك ، لولا أنه كان يخدع نفسه ، ويكابر فى الاعتراف بأنه وافق على الهرب ، وان السفر الذى حسبه هزلا أصبح جدا ، وان كل شيء يسير به فى الطريق التى سار بها زميله .

فكر فى أن يعود الى معلمته ويرجوها تدبير عمل جديد له ، ولم يلبث أن طرح هذه الفكرة جانبا وقرر الذهاب الى محمد الحلبى ، لكن فكرة أخرى معاكسة ما لبثت أن تفتقت فى ذهنه المضطرب :

ــ من المحتمل أن يثور الحلبى فى وجهى ويطردنى !

همس بذلك وجعل ، خلال دقائق عشر ، يقلب الأمور على كافة وجوهها . غير أنه ، بدافع من اضطرابه ، لم يكن يهتدى الى أى منفذ ، ولما أعياه التفكير ، هتف فى ذات نفسه كمن يزيح ثقلا يبهظ ظهره :

ــ لأذهب الى جريس المختار .

وبسرعة ، قبل أن يدركه تردد من أمره ، مضى مصعدا فى طريقه الى حى القلعة ، وهو يتجنب لقاء أحد من معارفه ، كان الشارع من حوله قليل الحركة فى ساعة الضحى تلك ، وثمة بائع جوال يدفع عربته المليئة أرزاً مكوما فوقها كبيدر صغير ، وينادى

على بضاعته الشهية بكثير من الحماسة والمباهاة ، والناس يطلون من الحوانيت ، مادين رؤوسهم من أبوابها ، أو يتوقفون ويغمرون الأرز بنظرات مشوقة ، بين مصدقين وغير مصدقين ، والبائع الفطن النشيط يزداد تألقا وزهواً ، فيترك مقبضى العربة ويروح يصفق ويرقص فى نوبة من حماسته ، صائحا بصوت تخالط جرسه بحة غليظة :

ـ تعالوا ...

واقترب البعض فاشتروا ، واكتفى البعض الآخر ، بعد دغدغة حنون لبيدر الأرز ، باملاء راحاتهم وشم هذه المادة التى حرموها طوال السنوات الأولى للحرب ، وقال المارة بعضهم لبعض :

ـ طاب أكل المحاشى .

واعتلى رجلان ، على الرصيف المقابل ، سلما خشبيا ، وراحا يلصقان نشرات الدعاية للحلفاء ، وتجمع السابلة حولهما ، وقرأ قارىء هذه العبارة :

ـ « والحريات الأربع » .

فسأله آخر يقف وراءه :

ـ ما من شىء عن نهاية الحرب ؟

ورد القارىء محنقاً :

ـ ضيعت على الجملة ...

ثم ركز انتباهه فى النشرة ، وراح يقرؤها من جديد .. واقتربت امرأة تتوكأ على عكاز وسألت :

ـ ماذا جرى ؟

الا أن احدا لم يفدها بشيء ، فعادت تسأل :

ـ ايش صار يا جماعة ؟

وارتفع صوت من المؤخرة :

ـ ماذا عن الخبز ؟

ودفع بائع الأرز عربته نحو الجماعة ، وجعل يصفق ويصرخ اعنف واعلى ، محاولا استرعاء الانتباه اليه ، وصرف الأنظار المحدقة فى نشرة « الحريات الأربع » وهو ما يفتأ ينادى :

ـ تعالوا .. بأسعار قبل الحرب ، كلوا وترحموا ، الرز بسعر البرغل ، بسعر البصل ، بسعر الفجل ، يا هو .. ياجماعة تعالوا ..

وقال قائل :

ـ الدنيا رخصت .. الحرب انتهت .

فرد عليه رجل له سيماء المفكرين :

ـ الجمل بقرش ، وما فى قرش ، الشغل ، يا ابنى ، قبل الرخص ، صحيح والا لأ ؟

وتوجه الى فارس الواقف قربه بهذا السؤال ، فأمن هذا على كلامه بهزات متتابعة من راسه وقال :

ـ صحيح ...

ثم مضى دون أن يرفع بصره عن نشرة «الحريات» فما أن شال قدمه ودفعها ليخطو ، حتى اصطدمت بكتلة لحمية على الرصيف ،

وطفر صـــحن نحاسى متدحرجا على الأرض ، وتبعثرت قروش كانت فيه فوسوست ورنت متـــدحرجة فى اتجاهات شتى ، وهرع عجوز معمم من حانوت مجاور وهو يصيح نزقا :

ـ هيه ، الا تشوف ؟

وتفاصح حلاق يضع يديه وراء ظهره وقال بصوت أنثوى :

ـ ما شاء الله .. شباب !

فخطر لفارس ، الذى اصطبغ بحمرة الخجل ، أن يعود اليه ، لـكن الـكتلة اللحمية كانت قد استعادت روعها وزعقت :

ـ الحقوه .. سرقنى .

ورد العجوز المعمم :

ـ لم يسرقك .. اسكت .

واندار يجمع القروش وهو يسأل عن عدد ما كان منهـا فى الصحن ، بينا تابع فارس طريقه مرتبكا ، لائماً نفسه على ما فعل راغبا فى كل خطوة ، لو عاد الى الحلاق فصفعه بضع صفعات ، بضع صفعات فقط !

... وحين بلغ دكان جريس المختار كان على حال نفســية سيئة ، فألقى التحية واقتعد أول كرسى صـــادفه ، ثم صمت قليلا وهو يراقب المختار كيف يكتب ، وما لبث هذا أن قال دون أن يرفع عينيه عن الأوراق :

ـ خير ان شاء الله ؟

ـ خـــير ..

وشرع فارس يمضغ الكلام ويتدبر الأسلوب المناسب لمفاتحة

المختار بحديثه الذى أربكه الخجل عن المصارحة به . وكأن المختار الذى لم يرزق بمخلوق يحادثه هذا الصباح ، قد سره دخول فارس عليه ، فاستغل فترة الصمت والقى نكتة ضحك لها وحده وبصعوبة ابتسم فارس ابتسامة مبتسرة جامله بها ، وأصغى اليه بعد ذلك اصغاء المكره ، آملا أن ينتهى من حديثه بسرعة ليعرض عليه موضوعه ويطلب نصيحته .

قال المختار :

ـ استدعانى رئيس البلدية أمس فرفضت الذهاب اليه ، هيه .. قلت للشرطى :

ـ ماذا يريد سعادة الرئيس منى ؟

فهز الشرطى كتفيه وقال :

ـ وما أدرانى ؟

قلت :

ـ وكيف اتيت اذن ؟

فأجاب وقد أحرجته :

ـ ما على الرسول الا البلاغ .

وكان صادقا فى قولته ، فما يدور بينى وبين سعادة الرئيس لا يعرفه سوانا ، لذلك أجبته :

ـ طيب ، بلغ سعادته تحياتى .

وقد أضمرت الا أذهب ، لكننى عدت ففكرت :

ـ لعل سعادة الرئيس بحاجة اليك . ان لم يكن بصفة

الصداقة الحميمة التى تربطك به ، فبصفة الوظيفة ، بصفتك مختارا للحى .. آه ما أكثر مشاغل المخترة وما أخطر مركز المختار وأفدح واجباته حين يكون مشيرا وناصحا لرجال الحكم (وهنا ضحك وبانت أسنانه الصفر ، وتراقص حاجباه ، وازدادت طيات الغضون فى وجهه) وتابع : الخلاصة اننى ذهبت ، ولم أكن أستطيع غير ذلك ، فأنا — ولا فخر — يد الرئيس اليمنى . البلدية كلها فى كفة (وضرب على صدره ضربا خفيفا لطيفا) والداعى فى كفة !

تنفس فارس مرتاحا ، اذ خيل اليه أن الحديث انتهى ، غير أن المختار عاجله بالعبارة التالية :

— لعنة الله على الذكاء !

وأضاف متسائلا يزهو :

— يا أخى ماذا تريد ؟ أحاول اظهار جهلى فيكتشفوننى ، فأثور وأسخط ، ثم اهدأ وأقول : « وهل يخفى القمر ؟ » والمصيبة لا تتناول شخصى فقط — أنا العبد — بل أولادى الناسجين على منوالى أيضا ، وهذا ، فيما أرى ، داء وراثى .. الذكاء ، آه يا أخى ، الذكاء كالصوت الجميل ، موهبة لكنه — واسمح لى أن أقول هذا لكونى ملما بالطب — موهبة وراثية لا يد فيها ولا حيلة .

وأشرقت طلعته اشراقة الغبطة ، وتنهد وأضاف كمن يكره الكلام عن شيء ، ويرى نفسه مضطرا الى الحديث عنه :

— اسمع ما جرى معى أمس . أفقت فى منتصف الليل .. ماذا تظننى وجدت ؟ الاولاد مازالوا يدرسون والصغير فيهم نام

وكتابه على صدره . تملكنى الغضب لهذا التصرف منهم ، فالاولاد فلذات الاكباد ، وانا ـ اعوذ بالله من كلمة انا ـ مقروح الكبد ، فقد توفى لى ولد فى السابعة من عمره ، وتوفى آخر ولم يبلغ الشهرين ، وأجهضت زوجتى خمس مرات ، لذلك صحت بهم « ناموا يا أولاد .. ناموا يا بابا » فقالوا والدروس ؟ نم انت يا بابا نم واتركنا نراجع دروسنا لنبقى الأول فى صفوفنا . وقالت البنت الكبرى . ولا أخفى عليك أنها جميلة فوالدتها وقد طلبت منى عدة مرات لأحسن شباب البلد ! (وهنا ضغط فارس على أعصابه كى لايضحك) وتابع المختار : قالت البنت « وتريد أن يقول المدير اولاد فلان وفى المدرسة من يسبقهم ؟ »

وضحك وطقطق بلسانه ، واهتز جسمه الصغير اهتزازات انفعالية وقال : ليست هنا المشكلة ... ليدرسوا ما طاب لهم أن يدرسوا ، المشكلة أن سنهم لا تسمح لهم بالتقدم الى الفحص . يا أخى الذكاء ، العائلة كلها ذكية . اما زوجتى (وغمز بمؤخرة عينه اليسرى) فهى لبيبة أريبة تفهم بالاشارة ، وتناقشنى ـ تأمل هذا بالله عليك ـ حتى لتكاد تغلبنى ، وقد قلت لها مرة :

ـ « لا تجربى شطارتك على ياحرمة فانا ابن بجدتها » لكن بيننا ، انها اشطر منى ، وهى تعرف ذلك ، غير أن عراقة محتدها ونبل ارومتها يمنعانها من التباهى وقد كتبت لى رسالة ذات يوم ونقشت على غلافها كلاما يدل على احترامها لى فقالت « حضرة العالم العلامة والفهيم الفهامة .. فلان ! » فلما التقينا عاتبتها مازحا على هذا المديح فردت عتابى وقالت على استحياء :

ـ ارجوك .. أنت فى نظرى أكثر من ذلك .

والحق اننى أكثر من ذلك فى نظر الناس ـ رغم أن مدح المرء لنفسه ليس من شيمتى ـ فللناس يا أخى عيون ، ولزوجى

عيونها أيضا ، وانا ارهقها بطلباتى ، أرهقها برغباتى الجنسية ، وكثيرا ماتضيق بنزواتى وتذعن لها مكرهة ، بدافع من شعورها واحترامها لواجباتها الزوجية .

وهنا كركر ضحكة قاحلة ، فانفسحت شفتاه عن أسنانه المتنافرة واضاف وعيناه تلتمعان بسائل زجاجي :

ـ لا حيلة فى اليد ، جبلتى قوية ، وكثيرا ما أقول لنفسى « كفى يا رجل ! أصبحت أبا لعدة أولاد » الا أننى أعود فأقول « ان لجسمك عليك حقا ، فطالما أن جسمك يتطلب فلا بأس ولا ضير ، ولا اخفى عليك ، اذ لا حياء فى الحلال ، اننى فى هذه السن أقرب زوجتى (وأشار الى رقم بأصابعه) فى الليلة الواحدة ، وزوجى ولود كما هو معروف عنها ، لأنها من سلالة مباركة مكثارة النسل .

وسعل وتلمظ وابتسم ، ممهدا لقصة جديدة ، وادرك فارس ذلك فأشفق على وقته أن يضيع ، وقاطع المختار مغتنما وقفة اضطرارية وقفها ليلتقط انفاسه فقال وفى نبرة صوته يلوح التبرم :

ـ يا مختارنا ! ..

وتنبه المختار الى شططه فى الحديث فهتف :

ـ صحيح .. عدم المؤاخذة ، لماذا لم تشتغل اليوم ؟

ـ انتهى الشغل .. صرفونا .

ـ وما تنوى أن تعمل ؟

ـ جئت لأستشيرك .

فاشرق وجه المختار من جديد ، وفتل شاربه واقبل على فارس بجماع حواسه قائلا :

ـ خـــير !

ـ اريد ان اتطوع .

رشق المختار وجه فارس بنظرة فاحصة ، وتساءل مذعورا : « اقول له : تطوع ؟ وهل ينصب لى هذا الشيطان فخاً ؟ » .

وبعد تفكير قال :

ـ والله الظروف استثنائية يا ابنى ، وهذه مسالة تخصك وحـــدك ..

ـ وما رايك انت ؟

ـ وانت ما رايك ؟

ـ رأيى ان اتطوع .

ـ اذن تطوع .

ـ ورايى أن لا أتطوع .

ـ اذن لا تتطوع .

فقال فارس منفعلا :

ـ اهذه مشورة ؟

ولم يجب المختار بسوى تنهدة عميقة ، وقد رانت سحابة غم على سحنته ، وغاصت الاشراقة في وجهه ، واشعل فورا سيكارة سحب منها نفسا قويا ، وانبسطت أساريره كرة أخرى ، حتى خيل الى فارس أن المختار انتهى الى حل . لـكن هذا ما لبث أن ســـأل :

ـ ماذا قلت :

ـ ما رايك ؟

ـ رايى انا ؟

وصاح فارس :

ــ رأى من اذن ؟ ولمــاذا أنا هنا منذ ساعة ؟

وجعل يتمتم بما ليس يدرى ، وقد فار دمه وشعر أنه اذا أفلت السيطرة على هدوئه فلابد أن يتصرف تصرفا سيئا ، وقد يشتم المختار وزوجه وأولاده والمخترة أيضا ، لــكنه سرعان ما لمح ظلا من خوف الفضيحة يرتسم على جبينه ، فأدرك انه لن يفيده فى شىء ، خشية ذيوع الخبر فى الحى وقول الناس انه أشـــار عليه أن يتطوع مع الأجانب ، فغادره ، بعد أن أوصاه بكتم السر ، وخف الى البيت فنتر هويته من الصندوق ، وانحدر من القلعة الى البحر ، آخذا مكانه فى صفوف المتطوعين أمام الشـــكنة ، انتظارا للدور .

***

... وبعد أسبوع شـــاع فى الحى بأكمله أن فارس بن أبى فارس الذى ضرب حسن حلاوة الفران هرب وتطوع ، وقد تلقت أمه النبأ بالبكاء ، ووضعت ثيابه وصورته أمامها وجعلت تندب ، واكتفى أبوه بزفرة حرى أطلقها كمن يكتم غيظه وقال :

ــ دنيـــا .. !

وشرع يعب دخان سيكارته صامتا ، معرضا عن كل تعليق ، كأن الأمر من التفاهة بحيث لا يستأهل ولو كلمة عابرة منه .

وقد أزعج صمته الــكئيب هذا زوجه فتمتمت :

ــ يا لك من حجر !

لــكنها بدت فى الأيام التالية ، أكثر اشفاقا عليــــه ، حين تلامحت أزمته النفسية وهو يكبتها فى كبرياء ورجولة .

وقالت رنده اسوانة :

ــ اذن فعلها ؟

وفى أعماقها استشعرت غبطة بعثها الاعجاب بالمغامرة ، ثم راحت تسأل أم فارس كل صباح :

ــ أما من خبر ؟

وتلطم أم فارس خدها وتجيب :

ــ لا خبر .. فارس هجرنا يا رنده !

ثم تمسح دمعة تخالها جاهزة ، لولا أسى يلفها وينضح من كل ذرة فى كيانها ..

ولما بلغ النبأ محمد الحلبى ضرب الطاولة بكفه وقال مستغربا :

ــ لك .. !

وبعد لحظة أضاف كمن يخاطب نفسه :

ــ خدعوه ..

وقال عازار الاسكافى :

ــ خسرنا زبونا جديدا ، لن نستفتح من رقع حذائه بعد اليوم ..

والتفت الى أبى رزوق الصفتلى قائلا :

ــ العمى ، بوط العسكرية لا يهترىء .

وعلق الصفتلى :

ــ هذا صحيح .. وقد حدث لى ..

وطفق يعيد ، للمرة الألف ، قصة تطوعه فى بونس أيرس ..

والشخص الوحيد الذى أظهر جهلا تاما بالموضوع ، وشارك ابا فارس أساه ، هو جريس المختار ، فقد أصر على قضاء سهرة كاملة عنده لم يتحدث فيها سوى عن فارس :

ـ تصوروا (قالها وهو يرفع كفيه وعصاه المعلقة بساعده الأيمن تهتز) هذا الملعون ، كنا نظنه أعقل من بنت فاذا هو ...

وقطع حديثه فضرب صدره بكفه واستأنف :

ـ حل المسألة على .

وقبل أن تفتح أم فارس فمها متوسلة أضاف :

ـ لكن ايش النفع ، انتهى الآن كل شيء ، آه لو شممت الرائحة قبل أن يلبس البدلة ويوقع ، اذن لسحبته كما تسحب الشعرة من العجين !

والتفت الى أبى فارس وتابع :

ـ ان لنا ، يا أبا فارس ، كلمة مسموعة والحمد لله ، وأنت تعرف جيدا ، لكن ما النفع ، السيف ...

وقال نايف الفحل :

ـ ... سبق العذل .

أما خادم الكنيسة بشارة القندلفت فقد نتر بطحته وجرع منها جرعة طيبة وقال :

ـ حلو !

ثم شق جفنيه المهومين سكراً ، وساق متعتعا ـ ثقيل اللسان كرفش ـ هذه النصيحة الى أم فارس :

ـ اشعلى شمعة وقدمى قداسة !

فانتفضت مريم السودا وأشارت بيدها اشارة الرفض والقرف :

ـ لا شمع ولا قداس ، همنا يكفينا !

وفتحت ، فى هذه اللحظة ، أم صقر عينيها المرمضتين ، وسح جفناها المهترئان بضع قطرات ، ولما تأكدت ان ابنها مايزال بجانبها أمسكت طرف چاكيتته ، دون أن تدعه يشعر ، وأغمضت عينيها ثانية .. ونامت !

وقال أبو فارس لزوجه قبل النوم :

ـ فارس بهدل شيبتى .. كنت أعتز به والآن أخجل .. ليته مات !

وفى الصباح طلب من نايف الفحل أن يذهب الى الثكنة ويقول لفارس :

ـ لا ترجع الى البيت ولا الى الحى .. لم يعد لك أب ولا أهل ..

وظل طوال يومه يفكر بابنه ، ويحاول التخفيف عن نفسه بالقول ان كثيرا من الناس يتطوعون مع الفرنسيين ، وان قتال الألمان ليس عملا سيئا ، ثم يعود فيذكر ان ابنه خالف ارادته ، وتصرف ، فى السنتين الأخيرتين ، على هواه ، دون أن يحسب له حسابا ، هو والده الذى يحترمه كل من فى الحى ، وعندئذ يثور ، وتئن كرامته ، ويقول دون كلام :

ـ انتهى فارس .. لم يعد لى ابن والسلام !

17

تلقى فارس أمر والده كحكم مبرم .. وقد كان ، هو نفسه ، لاينوى زيارة الحى ، كى لا يرى الحلبى ، وأبو جميعة والآخرين ، الذين يعزهم ويخجل منهم .. وها هو والده يتبرأ منه ، ويحكم عليه بقسوة !

كان يعرف أن التطوع مع الفرنسيين ليس بالأمر المستحب ، لكنه ليس جريمة .. وهو جندى لا أكثر ، جنـدى ضد الألمـان وليس ضد السوريين .. لم يحارب أبناء بلده اذا نشب قتـال بين الفرنسيين وبينهم ، ثم هو ذاهب الى ليبيـا ولن يبقى فى سورية .. لو كان باقيا لمـا تطوع .. وقد أخطأ .. الآن يشعر انه أخطأ ، لـكن الظروف هى التى أرغمته على ارتكاب هـذا الخطأ . وقال فى نفسـه : « لولا قسـوة والدى وخوفى من مفاتحته لاستشرته بالأمر ، ولربما تجنبت غضبـه وحرمانه .. أما الآن فقد صـار كل شيء من الماضى .. وصرت أنا بلا ماض .. ولم يبق الا السفر ! » .

وفكر برنده وقال : « لن أراها بعد اليوم .. أنا لا استطيع الذهاب الى الحى ولا أريد مخالفة والدى » وأحس بالندم والغربة والعذاب ، وراح يبحث عن النسيان ..

لجأ الى الخمر وأدمنته بسرعة .. صار يشرب ويقضى أوقاته فى الخمارات .. وكلما أصر على النسيان ازداد شعورا بالغربة ،

وراح ، يوما بعد يوم ، ينحدر الى القاع ، ويتخبط دون أمل ولا عـــزاء .

وفي احدى الليالي ، وكان قد شرب الى درجة الانطفـاء ، جن شوقا الى المرأة ، فغادر الحانة الى بيت معلمته ، لـكنه وجد عندها ضابطا فرنسيا ، فأدى له التحية وخرج وهي تضـحك عليه . قالت له في الصالون دون أن تدعوه الى الجلوس :

ــ تطوعت ؟ كنت سأقترح عليك ذلك لو راجعتني .

قال فارس :

ــ أخطأت .. عائلتي تبرأت مني .

ــ ولمــاذا ؟ أنا لا أفهم كيف يفكر هؤلاء الناس .. الفرنسيون لطفاء .. زوجي كان فرنسيا كما تعلم ..

وقال فارس في نفســـه : « وعشيقك فرنسي الآن ! » .. وقال لها :

ــ ليسوا لطفاء مع السوريين .

ولـكي ينتقم لنفسه باهانتها أضاف :

ــ انهم أعـــداء وطننا .

فضحكت وقالت :

ــ ما شاء الله .. أين تعلمت هذا الـكلام ؟ في السجن ؟ .. اذهب .. أنت مخمور .. لا تقل هذا الـكلام والا أرسلوك الى المحكمة العسكرية !..

***

ذهب فارس وبوده أن يعود .. جاء وهو يحلم بليلة من تلك

الليالى ، فلم تسمح له حتى بالجلوس .. وقد أدى التحية لعشيقها وانسحب . وضحكت هى عليه ، وهددته !

وقال لنفسه مغيظاً :

ــ القحبة تهددنى !

وجعل يتذكر لطفها معه فى الماضى ، ولياليها بين أحضانه ، وذلك الجسد كم بذلته وكم تعزز ! لقد أعطته نفسها دون أن يطلب وهاهى تتمنع وهو يطلب .. عينه تطلب ، ويده تطلب ، وجوارحه تطلب ، وهى ترفض « اذهب أنت مخموور .. لا تقل هذا الكلام والا أرسلوك الى المحكمة العسكرية » .

ــ يا نسل حواء ! يا ساقطة !

وقال فى نفسه : يا لها من فاجرة ، تخون زوجها الذى مات!» فقال صوت من داخله : « وأنت تخون سيدك الذى مات ! » . وقال فى نفسه : « تخونه مع عدو وطنها ! » فأجابه الصوت الداخلى « وأنت جندى عند هذا العدو ! »

وطالعته من الظلام عينا والده تصيحان به : « يا زانى ! » .. واقتربت العينان واتسعنا وصاحتا : « يا خائن ! » ، فأغمض عينيه كى لا يرى شيئا بعد ، واستدار وراح يعدو لا يلوى على شىء .

كانت غرفتها مضاءة لا تزال ، فتولته نفس الرعدة النذلة التى تولت الصفتلى وهو يلاحق الأرمل والقندلفت ، وصمم على دخول البيت ولو بالقوة .

طرق الباب بعنف ، برغبة فى أن ينتقم لنفسه .. وسمع وقع اقدام ، وفتح الباب وظهرت معلمته خائفة ، ووراءها الضابط

منفعلا .. وانزاحت المراة ، ورفع فارس يده ، لـكنه أحس بركلة في معدته ، فتمدد على الأرض ، وراح حذاء ينشال وينحط على صدره ورأسه وكل أطرافه .

***

افاق فى اليوم التالى مدمى الوجه ، ممزق القميص ، فوجد نفسه على الأرض فى غرفة صغيرة قذرة وباردة . أدرك انه فى السجن .. تذكر كبقايا كابوس ؛ وجه الضابط ، وركلته فى بطنه وحذاءه على جسمه ، ومجيء الشرطة .. والسيارة .. واغمض عينيه وان .. ضاع الآن كل شيء : الأهل والحبيبة والعشـيقة والـكرامة .. شيء واحـد بقى : أن يسـافر الى الحرب ، ويموت فيها .

***

وجاء يوم السفر اخيرا ..

كان يوما غائما ، ممطرا ، خاضت فيه الريح معركة حقيقية ، ميدانها الفضاء الوسيع ، فهبت من الشرق ، وهبت من الغرب ، وصفرت وزارت والتحمت ، واصطخب البحر وهاجمت أمواجه الساحل دون طائل .

كانت تقف فى عرض البحـر طرادة فضـية ، بدت للعين المجـردة كزورق كبـير بغير شراع ، ومن حولها قوارب تذهب وتجيء ، ناقلة الجنود بكثير من الاحتراس .

وفى الميناء المقفر كمدينة هجرها سـكانها ، ازدحم جمـع صغير ، آباء وامهات واخوات المسافرين .

كانت المناديل البيض ، شارات الوداع ، تلوح من الساحل

بأيدى الأمهات ، فترتفع ، من قلب اليم ، مناديل مماثلة ، يخيل اليك انها تقول « اذكرونا مثل ذكرانا لكم ! »

وثمة ، فى طرف الميناء ، عجوز تبكى ، وولدها المسافر مطرق بين يديها لا يدرى ما يقول ، وشيخ يتوكأ على عصاه ، يتكلم وكأنه يبكى « لا تنس أمك واخوتك . ربما رجعت فما وجدتنى ! » ورجال يوقظون ذكرياتهم النائمة ، وفى الجو ترين جهامة خرساء ، تضغط كالرصاص على الصدور ، ومدخنة الدارعة ترسل عمودا أسود من لهاثها الهبابى ، تلفه الريح وتذروه ، وصافرة تخور وتتضاغى فى طلب المزيد من الوقود ، والقوارب الذاهبة الآيبة تخلف خطوطا مستطيلة من الزبد ، وحبالا من نظرات الوداع المشدودة بين الساحل وصدر البحر .

ولم يسمح لفارس بالخروج من الميناء .. ورفض والده أن يذهب ليراه .. ظل فى البيت يدخن ويدخن بلا انقطاع ، وقد تقوس ظهره ، وخبا الاشراق المعهود فى عينيه مخلفا صرامة كامدة .

وذهب صقر لوداعه ، فوقف فارس قبالته مطرقا ، صامتا لا يتكلم ، ويده على قلبه ، تحت المعطف السميك ، ونظراته الحيرى تبحث عن عزيز تتوقع قدومه .. وكلما تصرم الوقت غاض الأمل ، فقال لصقر هامسا دون أن يرفع نظره اليه :

ــ ألن تأتى رنده ؟

قال صقر :

ــ رنده مريضة يا فارس !

ــ سلم عليها اذن .. قل لها اننى أفكر فيها ، ولن أنساها .

وكانت أم فارس تنظر الى ابنها وتبكى ، ومريم السودا تقول لها : « لا تبكى .. البكاء عند الوداع شؤم » لكن الأم تذرف الدمع ، وتتلفت برجاء اليائس الى الدرب . لقد قالت لزوجها : « اذهب وودعه .. دعه يرك على الأقل .. افعل ذلك لأجلى ، أنا التى قضيت معك كل هذا العمر » .

وفى اللحظة الأخيرة جاء أبو فارس تحقيقـــا لرجائها ، فغطى فارس وجهه بيديه منذ رآه وجعل يبكى كطفل ، وطفرت الدموع من عيون الجميع ، وقالت أم فارس لزوجها :

ــ كلم ابنك ولو كلمة ..

لــكن الأب ، الذى أطبق فمه يوم هرب فارس وتطوع ، لم يفتح هذا الفم ولا بكلمة . وهجم فارس يريد تقبيل يده ، فأعطاه يده ولم يتكلم .. وقبله ، بعد ذلك ، عند السفر ، ولم يتكلم أيضا ..

واذ قطعت الأم أملها من صفح زوجها مضت تبكى بصـــمت وتنشج فى قلبها نشيجا حادا له حز السكاكين .

ــ فارس (تقولها وترتجف شفتها السفلى وتوكف عيناها) انتبه لنفسك ، لا تنم دون غطاء ، لا تخاطر . اكتب لنا دائما ، توق البرد ، أبوك رجل كبير ، وأنا ؟ آه ..

وتسحب منديلها من جديد ..

وعلى رصيف الميناء ، فوق الجمبة العسكرية ذات السيور الجلدية ، جلس نجوم طامرا رأسه فى يديه . كان يفكر بشىء ما هو الآخر ، ففى زاوية فمه سيكارة تحترق باهمال ، وسحنته مربدة ، وحاجباه الكثيفان قد اتصلا فى قفلة محكمة ، وعينـــاه

ثابتتان فى الأرض ، كأنما تبحثان عن شىء ضاع لتوه . ومن حين الى حين ، يرفع راسه ويتلفت ثم يزفر كحيوان متعب ويعـــود الى الاطراق ..

ووصـــل أبو رزوق الصفتلى بغير انتظار من أحـــد . كان محدودبا أكثر من المعتاد ، وذقنه النامية الطوية الجلد ، بيضـــاء كالثلج ، وقميصه الأزرق محلول الأزرار ، يظهر منه شعر صدره الأشيب ، ويبدو وجهه شاحبا جدا ، غائر العينين كأنه لم ينم ليلا بطوله ، وفى حدقتيه خبا بريق النظرات الخبيثة الآكلة ، وحل مكانها خوف من مصيبة مجهولة بهظته بثقلها حتى قبل أن تقع ،

استند الى الجدار ، وتمتم بكلمات خرجت متقطعة ، ثم ، بغتة ، شرع ، هو الآخر ، يبكى . ماذا ؟

ـ يا فارس عمتك أم رزوق تموت .

قالها ولوى عنقه ، وعصر عينيه بابهامه وسبابته ، فســـقطت دموعه وغابت فى شعر صدره ، وارتجف فكه الأسفل ارتجافة الألم المكبوت .

وقالت أم فارس وقد أوجعها النبأ :

ـ مسكينة يا ميلو !

وتناول فارس علبـــة تبغ ودراهم قليلة فأدخلها فى جيب الرجل رغم الممانعة ، وأشاح بوجهه وقد استبد به جزع طاغ لمرأى دموع العجوز .

وحين دقت ســـاعة الرحيل ، ودع فارس والديه ، وقبله أبو رزوق ومريم السودا ، وكذلك قبلته والدته ، ولوحـــوا له ، حين انحدر فى القارب ، بالمناديل ، ثم لاحقوه بأبصـــارهم حتى

غاب ، واذ ذاك تفرق المودعون ، وتفرقوا هم أيضا ، وسار كل منهم فى طريق ..

١٨

فى تلك الليلة تلاقت قلوب كثيرة على البعد ..

الراحلون أودعوا قلوبهم البلد الذى تركوه ، والمقيمون أرسلوا قلوبهم وراء الذين رحلوا . وفى منتصف الليل مات أبو رزوق فجأة ، فلم ير زوجته ولم تره . كانت فى المستشفى وكان فى البيت ، وقيل انه مات حزنا عليها ، رغم انها شفيت فيما بعد .

أما أم فارس فجعلت تبكى مذ وصلت البيت ، وكادت تقيم مناحة لولا أن صاح بها أبو فارس :

ــ خلصنا !

فأمسكت عن البكاء أمامه ، ثم ما لبثت أن دخلت على مريم السودا وجعلتا تبكيان معا . وظل الأب وحيدا ، يدخن بنهم شديد وينفث الدخان بلا مبالاة ، فيخرج من شفتيه ويعلو متخللا شاربيه ، ويرتفع الى جبينه وشعره ، حتى ليخيل الى رائيه أن نارا تنس فى ثيابه ، وانها تدخن قبل أن تشتعل .

كان أبو فارس يحب الدخان حبا يفوق الادمان ، فاذا قال له قائل :

ــ الا تستطيع ترك الدخان ؟

نظر اليه نظرة ازدراء وسأل :

ــ ولماذا اتركه ؟ الا يكفينا الحرمان من كل شيء ، حتى نحرم من الدخان أيضا ؟

انه يشعر ، أحيانا ، ان من حق رجولته عليه أن يدافع عنها بشيء من قسوة ، وقد كان ، فيما يتعلق بالدخان ، قاسيا لا لطف لديه ، فالسيكارة لذته الوحيدة الباقية من لذاذات العمر الماضيات ، وها هو بكثير من لذة الأسى ، يدخن بلا انقطاع ، ويرسل الدخان من حواليه سحابات سحابات ، وقد غام كل شيء في ناظريه ، وامحت ، وراء ضباب الذكريات صورة الابن ، وحلت مكانها صورة الأب ، صورته هو ، حين كان في مثل سن ابنه ، فذهب ايضا الى الحرب . انه لم يركب البحر ، بل سيق على قدميه عبر سهوب وسهول الأناضول . لقد كانت حربا طويلة قاسية ، حرب « السفربرلك » تلك .

مد يده الى صدره فتحسس ، بكثير من الحنين ، جرحا في صدره . ان تاريخ هذا الجرح هو تاريخ شبابه ، لقد كان يافعا حين سيق الى الأناضول ، وهناك أمضى ثلاث سنوات هي أشقى ما في حياته من سنين ، وحين عاد ، في نهاية الحرب ، وقد انقطعت أخباره عن أهله ، وأخبار اهله عنه ، ألفى كل شيء قد تغير ..

على انه ، رغم السنين ، يذكر كيف حدث ذلك .. يذكر كيف عاد ..

كان بيتهم يقوم على خاصرة ربوة غير عالية ، نبتت عليها ، بغزارة ، اشجار الحور والدلب والرمان ، وامتد الى جانبها بستان كبير ، غطته اشجار الفاكهة بسقف من الخضرة ، وتعرشت

الدوالى ذات العناقيد السود ، على واجهة البيت ، وامتدت على الآجر الأحمر ، وخرت ساقية ماء رقراق ينحدر من جانب صخرة كبيرة حولها دغل من شجر الآس ، ينشر رائحة تفعم الجو ، ويقطر من وريقاتها الماء ، كما تقطر حبات المطر بعد الصحو ، ويختبىء البيت فى غابة من الأوراق والأغصان .

كان يعود ماشيا كما ذهب ، كيس الخيش على ظهره ، ويده تعبث بذقنه الطويلة المغبرة .

ووقف فى طرف البستان وتنهد بارتياح ، ثم استند الى الجميزة الكبيرة ، فرحا بعودته فرحا لا يقدره الا من طال به الغياب . هنا كان يجلس ، وهنا كان يلعب ، وهذه التينة تعرفه ، وتلك التفاحة غرسها بيديه ، والحورة ؟ كم كبرت ؟ وشجرة الآس ؟ والساقية ؟

كل شيء نما وتغير . والبيت ؟ مابالة صامتا ؟ والكلب رهوان ؟ لماذا لم ينبح ، وهذه المرأة الواقفة أمام الباب ؟ أمه ؟ اخته ، ابنة الجيران ؟ سيعدو فيغمض عينيها ، لكنها لن تحزر ، كيف ؟ ثلاث سنوات ؟ انه ، فى ظنهم ، قد مات .

اقترب قليلا وقلبه يخفق ، وظل يقترب ببطء ، محاذرا أن تراه فتفسد عليه المفاجأة التى يعدها ، لكن المرأة انتبهت ، ففتح فمه لكي يصرخ « أمى » ، الا أن فمه ظل مفتوحا ، هذه ليست أمه ، لا ولا اخته ، وحدقت المرأة فيه تحديقا خائفا أبله لا ينم عن سرور ولا شعور بالمعرفة .

صاحت به بلا اكتراث :

ــ نعم ! .

فرفع يده الى رأسه ، وبدون وعى منه صاح :

ـ اهلى ..

قالت ببرود لا يخالطها أى انفعال :

ـ رحلوا !

ـ الى اين ؟

فقلبت المرأة شفتيها وقالت :

ـ لا أدرى ..

ـ رحلوا كلهم ؟

ـ ابوك واختك واخوتك الصغار .

ـ وامى ؟

ـ ماتـ ... ت !

قالتها بتقطع كمن أدرك الخطأ فى قولته دون أن يقوى على تداركه . واذ ذاك تلجلج النطق فى فمه ، وتحيرت دموع حبسها ثلاث سنوات فى عينيه ، فجاهد لكى يمسكها ، ثم رغب فيها فأطلقها بغير تحفظ ولا حسبان .

أما المرأة فقد دهشت لهذا كله ، وودت لو تفعل ما يصلح غلطتها ، واقتربت منه فاستدار هو وعاد من نفس الطريق ، وجعلت تصيح به أن قف ، تعال ، تفضل ، الا أنه لم يلتفت ابدا ، ولعل المرأة ذاتها لم تكن هى نفسها فى خاطره آنذاك ، ان أمه هى الماثلة فى فراغ خياله الآن ، انها أمام الباب ، ها هى مقبلة ، ثم ها هى مدبرة ، وها هى ، أيضا ، قائمة ، ثم قاعدة ، وها هو طفل يعدو بين يديها وهى تطارده وتلهو به ، وكلما كادت

تطاله نط كأرنب صغير . لقد وقفت يوم سيق الى الحرب عند طرف البستان ، ونادته وهو يبتعد :

ـ نرى وجهك بخير ، ليحفظك الاله .

وها هو قد عاد ، لكنها ، وا أسفاه ، لن ترى له وجها .

ـ يبدو أن الحرب لا تقبل حتى الشفاعات !

كانت المرأة تناديه بصدق وحرارة :

ـ تفضل ، تعال استرح ..

وكان يسرع كالهارب من عدو يطارده ، لكنه ، كالحالم أيضا ، كان يقتلع خطاه بكثير من المشقة والجهد . وحين بلغ الجميزة الكبيرة التفت الى وراء ، فألفى المرأة قد عادت الى البيت ، وعندئذ جلس على جذع الشجرة ، ورمق كل ما حوله بنظرات شرود ، وتوقف ، قليلا ، عند الدرب التى ساعد والده على شقها ذات يوم .

من بعيد ، هرع رهوان اليه ، وبعد أن بصبص وهز ذنبه ، دار حوله وقفز عليه ، وراح يشمه ويداعبه ، واذ عاين عبوسه رجع الى وراء ، ودار حول الجميزة مرة أو مرتين ، ثم اقعى ورنا اليه هادئا متأملا كأنه أدرك حزنه فاحترمه وشاركه فيه .

أما هو فقد جلس مقدار ما شرب سيكارة ، ثم رفع كيسه على ظهره ، ومضى يخب شريدا ، باحثا ، دون جدوى ، عن ذويه ..

***

كانت السيكارة الرابعة قد احترقت وحرق عقبها أصبعيه ،

فتنبه ابو فارس والقاها أمام الباب ، ثم نهض ومضى ، وفى نفسه يدور هذا الكلام :

« ما أشبه حكايتينا » .

وبعد أن زفر بغير قصد فكر :

« أما أنا فقد عدت ، لكن هو . ؟ »

وقبل أن يجيب ، خرج بطيئا ، صارما ، متجنبا اعطاء أى جواب .

١٩

حوالى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى شيعوا جثمان ابى رزوق الصفتلى الى مقبرة الفاروس . كان موكب التشييع لا يتعدى بضعة أشخاص ، وقد أغلق عازار الاسـكافى دكانه ومشى وراء صديقه الراحل بكثير من الحزن والأسى ، وبين الخطوة والأخرى كان يتمتم ويهز رأسه ، ويقول لنايف الفحل ، وكأنه يخاطب نفسه :

ـ من كان يظن هذا ؟

قال نايف :

ـ الموت أقرب من الحاجب للعين .

ـ ولكن ..

فالتفت ابو فارس اليه وقال :

ـ كلنا على الطريق ..

وصاح الحلبى بصوت مسموع ، كأنه ينبه السـائرين وراء النعش الى واجبهم :

ـ آجروا يا اخوان .

ولمـا عادوا من المقبـرة اجتمعوا فى بيت الفقيد ، تطوف بمخيلاتهم ذكريات الموت .

قال نايف الفحل :

ـ مات المرحوم غما .

فرد الحلبى :

ـ بل مات بردا .

وقال مكسور المبيض :

ـ بل فقرا .

وقال آخر :

ـ بل حزنا على زوجته .

وقالت مريم السودا وهى تسحب علبة التبغ من جيب ابى فارس :

ـ على كل حال استراح !

أما صاحب القبو الذى كان يسكنه المرحوم ، فقد أكد تأكيدا لا يقبل الاعتراض انه مات لأنه سكن قبوه ، لا لشىء آخر . واذ سئل عن تعليل للسبب قال « القبو هذا ليس قبوا بل مقبرة ،

بئر ماء ، حيطانه تنضح ، وارضه تنضح ، وسقفه ينضح أيضا ، وقد نصحته ، ونصحت غيره فلم تقبل نصيحتى ، وغدا يأتى مستأجر جديد فيقول « يا عم ، اجرنى قبوك » ، وانصح هـذا المستأجر « لا تفعل يا فلان » ، فيحرن ويقول « وعيالى ؟ » ، فأقول له « أنا انصحك لوجه الله ، ولن آخذ أجرة اذا سكنت » ، فيبتهج ويهتف « عظيم .. كتر خيرك ، سأسكن والله يحفظنى » ، ويسكن ثم .. يموت !

قالت امراة تسمع من بعيد :

ـ صحيح .. الرطوبة سبب كل علة ..

ثم مالت على مريم السـودا وهمست فى اذنها بكلام قطبت له وعبست .

ولما رجتها المتكلمة إلا تنقل الخبر الى احد قالت :

ـ تحت نعلك .

ـ الا أنها رغم ذلك ، لم تستطع أن تحمل نفسها الى البيت ، فمالت بعد قليل على أذن ابى فارس وقالت :

ـ سمعت ؟

ـ خير ؟!

ـ رنده مريضة .. أخذوها الى لبنان .

فعض أبو فارس شفته باستياء ، وحين أخبر زوجته فى المساء ضربت كفا بكف وصاحت :

ـ يا ضياع صباك يا رنده .

وتحولت وبصقت ، لتبعد عدوى السل عن البيت !

الفصل الثالث

١

لم يعرف أحد فى الحى بعد ذلك ، وحتى بعد مضى عامين على سفر فارس ، ماذا جرى له . ولم تدع الأحداث التى تعاقبت سريعة متلاحقة مجالا للتفكير فيه ، فقد شغل كل بأمره ، وشغل الجميع بأمر واحد : اخراج الفرنسيين .

أما المختار فقد أجاب حين سئل عن رأيه فى اعلان الاضراب ، وتنظيم مظاهرات فى اللاذقية اسوة بباقى المدن :

ـ لا تحرجونى !

ثم تلفت حواليه ليضفى على ما يقول صفة الخطورة :

ـ العمى ، تقاومون الحكومة وتطلبون موافقتها ؟ اشتغلوا شغلكم !

وبعد وقفة قصيرة أضاف :

ـ الظروف ..

وبلع ريقه ولم يكمل ...

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت ، ومنذ أيام خمسة والأفراح قائمة فى البلد ، والمصابيح الزرق الناعسة قد غدت مشعة الآن ، وزال الطلاء الأزرق الأغبر عن النوافذ والجامات ، وتدفق الجنود من البحر والبر عائدين الى أهلهم وبيوتهم .

ومع ذلك وجد المختار الهية جديدة .. قال :

ـ دعونا نهتم باعاشة الحى أولا .

نظر اليه عبد القادر ولم يتكلم . كان يحب مراقبة ادوار الآخرين قبل أن يلعب دوره . لذلك سكت وأصغى الى مختار القلعة محمد أبو سليمان الذى قال :

ـ خمس سنوات ونحن ننتظر . أنا مستعد أرمى الختم فى خلقة الحكومة ..

وشاعت فى الجو ، عقب هذا الجواب ، بشاشة تمازجها الحماسة ، فقال الحلبى :

ـ هذا كلام رجال !

فاحتج جريس المختار :

ـ لا اقبل التعريض يا محمد ، العين لا تقاوم المخرز ، فهمت ؟

لكن أحدا لم يفهم ، واختلط النقاش وعلا الضجيج ، فاضطر عبد القادر الى الكلام :

ـ غدا اضراب .

قال الحلبى :

ـ والمظاهرة ؟ من الجامع أم من البازار ؟

واذ ذاك تدخل عبد المقصود فى الحديث لأول مرة :

ـ يا محمد لا تستعجل ، خلينا فى الاضراب .

ـ وما نفع الاضراب بلا مظاهرة ؟

ـ طيب خلينا فى الاضراب .

كان عبد المقصود يتكلم وينظر بالحاح الى وجه جريس المختار ، لكن هذا لم يملك من الجرأة ما يجعله يجهر برأى ، فلاذ

بالصمت على مضض ، وعادت الأصوات ، فى القاعة الكبيرة ، تتعالى وتتداخل ، وعاد الحلبى يسأل بالحاح :

ـ اتركونا نفهم يا اخوان ، المظاهرة من الجامع أم من البازار ؟

ومن طرف القاعة نظر اليه عبد المقصود نظرة ضيق ولم يتكلم ، وجعل الرجال يتشاورون باهتمام استأثر بكل تفكيرهم ، واذ ذاك دخل رسول من حى الصلبة :

ـ غدا اضراب ..

سأل الحلبى للمرة الثالثة :

ـ والمظاهرة ؟

وناح عبد المقصود بصوت خرج من بطنه :

ـ أما كفتنا مظاهرات أمس ؟ خلونا فى الاضراب .

فرد عليه عبد القادر :

ـ مظاهرات أمس نوع ومظاهرات غد نوع آخر . أمس ابتهجنا بانتهاء الحرب ، وغدا نريد أن نبتهج بتحقيق الوعود التى قطعوها لنا فى الحرب ، نريد الجلاء .

فأشرق وجه طالب فتى وقال :

ـ هذا صحيح ، ومن جهتنا ...

فقاطعه عبد المقصود بنفس صوته النائح :

ـ خل غيرك يحكى يا ابنى ..

لكن الفتى لم يترك غيره يتكلم قبل أن يتم قوله :

ـ من جهتنا نحن طلاب التجهيز ، ستخرج مظاهرتنا من الشيخ ضاهر .

فوقف الحلبى وقال حاسما الموضوع :

ــ اذن انتهينا ، الملتقى فى جامع العجان ، ومن هناك تخرج المظاهرة الكبيرة .. بخاطركم .

فأمن محمد أبو سليمان على كلامه :

ــ كلامك عسل .

ونهض الرجال جميعا ، وظل أبو فارس جالسا القرفصاء فى الزاوية ، يلف سيكارة . وحين انتصب واقفا بدا الذهول عليه كأنه فى عالم آخر ، ثم تحرك وخرج ، مخلفا وراءه لغطا ونقاشا بين الطلاب وشباب الحى ، ودخان السكائر ينعقد كثيفا فى جو القاعة الكبيرة العارية .

على أنه ما كاد يستقبل هواء الشارع حتى ارتد اليه عزمه الذى تضعضع منذ ثوان ، وقرر وهو يرسل نظرة ثقبت جدار الليل ، انه لن يبوح بالسر الى أحد ، حتى ولا الى امرأته . انما كان فى قرارة نفسه ، يشعر بحاجة الى البكاء ، الى الشراب ، الى الابتعاد عن البيت ، الى فعل أى شىء يزيل هذه الوحشة القابضة على قلبه .

وفى طريقه شاهد بضعة من الجنود يسيرون ويقهقهون ، فأدار وجهه كى لا يراهم ، ثم ، برغم ارادته ، التفت وخطف من أحدهم نظرة جانبية ، وقارن مرغما بين هذا الوجه ووجه فارس ، فى آخر مرة رآه فيها على رصيف الميناء ، وارسل حقودا على ضعفه ، لكنه مستسلم له ، هذا الهمس الخفى فى ذاته :

« أيمكن ذلك ؟ مات ؟ هكذا اذن ؟ »

واستعاد فى ذاكرته كيف بلغه النبأ ، وتمثل نجوم ، مقطوع الرجل فى المستشفى العسكرى ، يقص عليه الواقعة :

« كنـــا ننزل من الدارعة حين فاجأنا الانذار ، وأطفئت الأنوار حتى ما عدنا نميز بعضـــنا ، ثم لمع ، كبـــريق خاطف ، ووميض القنـــابل ، وبدأت من الجو والبحر زغردات الرصـــاص واهتز الفضاء ، واضطربت زوارق الانزال وأخذت تغور فى البحر ، وشرعنا ، جرحى وســالمين ، نلقى بأنفسنا فى المـــاء ، أما القتلى فقـــد ظلوا حيث هم ، يئنون ويتعذبون قبل أن يصبحوا فى القاع .

كانت لهثات أبى فارس قد خفت ، ودموعه المتحيرة فى مآقيه قد تحجرت بفعل من ضغط ذاتى عنيف ، فاكتفى بتوجيه هذا السؤال :

« ألا يجوز أن يكون قد فقد ؟ »

« لا ، سمعت صوته وهو يســقط مصابا أمامى . لــكنهم سجلوه من المفقودين لأنهم لم يعثروا على جثته » .

نظر أبو فارس فى وجه نجوم ولم يزد . كان يجهل أن هذا الماثل أمامه هو الذى قاد ابنه الى هذا المصير ، وبطبيعة لا حيلة له فيها ، أظهر أكثر ما يستطيع من الهـــدوء ، ثم تمنى للجريح الشفاء وخرج ، رافضا بعناد أن يعترف بالجيش الأجنبى الذى هرب ابنه وتطوع فيه ، أو يقبل بتعويض ، أو يتوجه باستفسار معتبـــرا أن كل شيء قد انتهى ، وأن لا فائدة من البكاء أو ابلاغ النبأ الى الأم التى تنتظـــر أوبة ابنها ، وتترقب رسالة منه منذ سنتين » .

« فلتظل تنتظر ! »

قالها مرتاحا الى نتيجة قراره ، غير ملاحظ انه فى الأعماق من نفسه يمارس تجربة مماثلة ، وانه برغم كل شيء ، ينطوى على أمل باللقاء ، وانه كزوجته ينتظر أيضا !

٢

على أن هذا الانتظار طال . وثمة ثلاثة كانوا يستشعرونه خلدا خبيثا يقرض قلوبهم ، أول هؤلاء الثلاثة أم فارس ، وثانيهم رنده ، وثالثهم فارس ، ولكل منهم دافع وعاطفة ، وان كانت الدوافع والعواطف تختلف ، وان كان أبو فارس ظل يرفض الاعتراف بأنه ينتظر أحدا ، لأنه لم يكن يعى انسياقه فى هذا التيار مع الزمن .

أما أم فارس فقد جعلت تذهب فى الأمسيات الى البحر ، فتقف على الشاطىء ، أو تجلس على الصخرة الكبيرة الداخلة فى البحر ، وتنظر الى الأفق البعيد ، حالمة فى كل لحظة أن تبدو سفينة ما فى الأقاصى وعليها ولدها ، أو أن ينبعث من الماء ، أو ان يسير فوقه ، هذا الولد الحبيب ، فيتقدم منها ويرتمى بين أحضانها . فتقبله حتى تشبع !

وكان الاعتقاد بأن فارسا عائد لا محالة يقوى فى ذاتها ، فتقول وهى تجلس الى جوار زوجها :

ـ قلبى يحدثنى أن فارس سيعود .

فيقول زوجها :

ـ الله لا يخيب لك رجاء .

وعند تنير طلعتها الصغيرة المغضنة ، مسحة من شعاع الأمل فتقول لزوجها :

ـ يجب أن نهيء له بدلة جديدة .

فيكتفي الزوج بهز رأسه وهو ما يفتأ يدخن ، وتستمر هي في الحديث :

ـ ولابد من ضباط .

فيتمتم الزوج :

ـ ضروري .

ـ ما رأيك اذ اشترينا البدلة من الآن ؟

ـ غدا ان شاء الله .

ـ اليوم .

فينظر اليها أبو فارس ويتساءل بغم « ماذا لو قلت لها ان ابنك ، يا مسكينة ، مات ؟ »

واذ ذاك يحس لذعا في قلبه ، ويؤنب نفسه اجرد انه فكر بهذا ، أو انه ، اشفاقا منه على أمله ، يستبعد فكرة الموت ، ويؤثر أن تظل الأمور على حالها ، فيستبدل حديثا بحديث ، لكن زوجه تلح عليه ، ويلح هو على الهائها ، واذ يعجز يتركها ويذهب ، طامرا في الأعماق من نفسه لوعة ما تلبث أن تسلى حين يصبح في السوق ، بين الجيران والأصحاب .

وقد كانت فرحتها الكبرى يوم عاد زوجها من السوق ونتر من تحت طرف جاكتته صورة مكبرة لفارس ، وقال مداريا زوجته :

ـ ما رأيك ؟

فأخذت الصورة وقبلتها ، واقترحت عليه أن يعلقها في

صدر البيت ، وانصرفت بعد ذلك فرحة سعيدة الى شغلها ، ثم ما لبثت أن عادت من المطبخ مذعورة وطرحت عليه هذا السؤال :

ـ لماذا كبرت الصورة ؟

ارتج الأمر على أبى فارس ، فهو ، فى الحقيقة ، لم يكن قد فكر فى الجواب ، ومع ذلك استطاع أن يقنعها أن الصورة الكبيرة أفضل ، وانه يعتزم ان يسحب واحـــدة لها وأخرى له فى مقبل الأيام ٠٠ لأن الناس الأوادم هكذا يفعلون ٠

وأما رنده فمنذ ان ذهبت الى لبنان ، لم تنقطع عن التفكير فى انها ذات يوم ، ولا تدرى كيف ، سيأتى من الطريق البعيد ، الطريق الصاعد بتعرج الى هضبة المصح ، الانسان الذى تنتظره .

هناك أويقات سـوداء كانت تمر فى حياتها ، تلك اويقات اشتداد المرض والهواجس ، ففى مثل هذه الحال ، كانت تشعر أنها أصبحت نسيا منسيا من الجميع ، حتى من فارس ، والا لماذا تأخر عنها ؟

ـ هل يخاف العدوى ؟

تهتف بذلك فى سرها ، وهى مطبقة الجفنين ، ثم لا تلبث أن تدارى جزعها بالفكرة التالية : « فارس لا يخاف » ، وتذهب تقص على رفيقة لها ، صبية أيضا ، ان هذا الفارس لا شبيه له بين الرجال ، فتتوقد عيناها وهى تصفه ، ولا تفطن الى اسرافها فى الحديث الا ورفيقتها قد نامت حالمة هى الأخرى بفارس تنتظر قدومه من نفس الطريق ٠

ولم يكن أبو فارس من جهته على جزع كبير كالاثنتين ، لأنه لم يكن على أمل كبير مثلهما . وقد جد فى الحى من الأمور ما كان يسرى عنه ويجعله يعيش الحياة بحق ٠

أستمر الاضراب متقطعا قرابة أسبوعين ، وطافت المظاهرات صاخبة فى الشوارع ، مطالبة بالجيش والجلاء ، وقد اعتاد محمد الحلبى فى مثل هذه الأيام أن يفتح دكانه يوما ويغلقها اياما ، وذهب الجبلاوى صاحب المطعم الى « جبلة » فقال بعضهم « هرب » لكنه حين عاد رد التهمة وزعم أنه لم يقصر فى بلده ، وشوهد فى أحد الأصباح على مكسور يودع أهل السوق :

ــ الى أين يا على ؟

ــ الوطن قتال .

وأوضح فكرته :

ــ لا يمكن أن أظل هنا بعيدا عن بيتى وقبر ابنى فى انطاكية ، سأذهب فأعيش هناك كما يعيش الآخرون .

وهكذا باع عدته وأغراضه ، وأخذ خلو دكانه ورحل .. الا انه بعد شهر هرب بمفرده وعاد . وحين اجتمع بأهل السوق شرق بدمعه وهو يضرب رأسه بيديه :

ــ خربت بيتى يا جيران .

فقال له الجبلاوى :

ــ نصحناك فلم تسمع !

فاعترف :

ــ نعم نصحتونى ، لكن من كان يظن أن انطاكية أصبحت غير انطاكية ، آه من الأتراك ، بدلوها ، سرقوها ، هدموا البيت ونقلوا حجارة القبر ، وساقوا أولاد العرب الى الأناضول .. الأتراك ، آه من الأتراك ..

وذهب يدق على رأسه بكفيه وهو يصيح :

ـ الأتراك خربوا بيتي مرتين ، هجروني من اللواء وهجروني من اللاذقية .

اما بيرم فقد تخلى عن حلمه بالمرأة ، أو أنه ترجمه الى عمل ، فغدا الآن يركض في الشوارع والأولاد خلفه ، وكلما أبصر امرأة ضحك بغباء وصاح :

ـ يا لطيف !

ثم عاود ركضه والأولاد خلفه .

وازداد مع الأيام قنوط أم فارس ، وأضحى البيت أكثر صمتا وعبوسا ، وفي أوقات الوحدة كانت تقف أمام صورة فارس المعلقة على الجدار وتبكي :

ـ يا عين أمك أين أنت ؟ أما اشتقت ؟

وقد فكر أبو فارس أن ينزع الصورة ، لكن مريم السودا نصحته :

ـ لا تفعل ! حرام نزع صورة الغائب قبل أن يعود !

وحدق فيها أبو فارس بعصبية تمردت على هدوئه وكاد يصرخ :

« يا غبية ، فارس لن يعود » .

الا إنه ، مرة أخرى ، اضطر الى مداراة الموقف على حساب أعصابه ، فاختزن المزيد من الألم وابتسم بتكلف وقال :

ـ طيب ، سنبقيها موضعها .

وأبقى الصورة معلقة كما وعد ، لكنه كان يتحاشى النظر اليها ، ويتحاشى ، ما اســـتطاع ، المكوث فى البيت ، فاذا عاد سألته زوجته :

ــ أما من خبر ؟

فيضطر الى الكذب :

ــ بلى ، سمعت ان بعض الجنود من اولاد العرب موجودون فى (ويخترع اسم بلد ما) ..

فتقول زوجته متوسلة :

ــ لو تكتب اليهم !

ويعدها :

ــ سأسأل عن العنوان .

وتمضى الأيام متتابعة .. دون سؤال ولا جواب ..

٣

بعد ليال طرقت مريم السودا الباب وهى تصيح ملهوفة :

ــ يا أم فارس افتحى !

ونطت أم فارس مهرولة الى الباب لتتلقى هذا النبأ :

ــ رنده ماتت !

ــ أين ؟ فى لبنان ؟

ــ لا .. نقلوها أمس .

جلس أبو فارس فى فراشه كأن قضيبا محميا قد غرز فى أذنه فوقرها ، وتنهد بعمق وزفر ، ثم أشعل سيكارة وهو يراقب زوجته التى أسرعت الى ثيابها ترتديها ، وراح ، فى الأعماق من ذاكرته ، ينبش كل التفاصيل الدقيقة للوجه الذى اختطفه الموت هذه الليلة . وبتأثر بالغ ، تأثر غير اعتيادى ، استعرض كل ما لاحظه عن علاقتها بفارس ، وشعر أن المصيبة ، بالنسبة اليه ، أضحت مصيبتين ، لكنه انطوى على ما به وأمعن فى التدخين .

واذ انتهت زوجه من لبس ثيابها سألته :

ــ ألن تلحق بى ؟

ــ بلى ..

ونهض دون أن يتلفظ بأية كلمة أخرى ، فغسل وجهه ، وارتدى شرواله الجديد ، وتزنر بزناره الأبيض المعرق باللون الرصاصى فوقه ، ورفع طربوشه عن مسمار الجدار فاعتمر به ، وألقى على أولاده النيام نظرة غير عجلى ، ولحق بزوجه التى سبقته تصحبها مريم السودا الى بيت أهل رنده الذين كانوا قد انتقلوا الى طرف آخر من الحى .

ولما صار فى الشارع بدا كمأساة تجسمت فى رجل : صمت ، وألم ، وسيكارة تشتعل ، وراحت قدماه تدوسان الأرض بعداء وغيظ ، والعتمة تلفه وتلف الشارع والبيوت القائمة على جانبيه .

كانت السماء تزدحم بغيوم الخريف ، مستعدة فى كل لحظة

لأن ترد للبحر ما بخرته شمسها فى أيام الصيف . وريح الشمال الغضوب تعوى كأنها تندب عزيزا مات ، وعواء كلاب يأتى من بعيد ، كعادته أبدا فى أنصاف الليالى ، حين تجوس أشباح الرجال أطراف الحقول ، وينبعث فى نفوس الشجيين أشواق وأحزان لا تدفع ولا تنقع بسوى اللقاء أو الغناء أو البكاء ، ومن الزقاق المجاور يتناهى عويل امرأة ، ما أن سمعه أبو فارس حتى توقف عن المسير .

كانت تغشاه اذ يرى الأموات وهم فى النعوش ، عبرة من دهره الذى ما هادنه يوما ، فتأخذه خيفة أن يكون قد أضاع عمره سدى ، وكان للموت فى نفسه اجلال واحترام ما فاز سواه بمثلهما . لكنه الآن ، وهو يسير الى جنازة مخلوق يعرف أين مكانه من قلب هو من قلبه فلذة ، لا يجد فى ذاته ما ألف من صلابة هى عدته فى الملمات ، لذلك توقف حتى جمع ارادته ، وهدأ ارتعاش عضلات وجهه ، ثم دخل وجفناه قد ضاقا حتى ليظن من يراه أنه سمرهما لئلا يطرفان فيدمعان .

... وبرغم هذا كله جاءت لحظة حسب معها أنه سيبكى عداد ما حبس دموعه من أيام ، وانه سينهار انهيارا يزرى بكل ما عرف عنه من لا مبالاة حيال أحداث الحياة ، وقد كانت تلك هى اللحظة الأولى التى دخل فيها بيت الصبية التى يعرف أن ابنه أحبها ذات يوم .

طاولتان متلاصقتان طولا ، وشمعة عند الرأس وأخرى عند القدمين ، وجسم فارع مسجى فى شرشف أبيض عليه بعض الزهور ، ووجه أصفر ، عظمى الطلعة ، ترنو حدقتاه الغائرتان المطبقتان الى أعلى ، ويدان مصلبتان على الصدر .. قرب القلب !

صاحت المرأة الثكلى مذ رأته يدخل :

ــ تعال أبو فارس شف رنده .

ووقفت وانكبت على وجه ابنتها تلثمه وتمسحه بكفيها ، واعولت النساء وصحن :

ــ يا عروس ..

فعض أبو فارس على شفته حتى أدماها ، وارتعش فمه فتحرك فكاه واهتز شاربه ، وضاقت أكثر فأكثر فتحتا عينيه ، والتقى بصره ببصر زوجته فأسرع فى خطوه ، ولم يلتفت الى وراء حتى صار فى الغرفة المجاورة التى جلس فيها بضعة رجال يتحدثون .

كان محزونا أكثر من كل هؤلاء الجالسين ، وحتى اكثر من والد رنده نفسه ، فلما التقت عيناه بزوجته ثانية ، حسب أن عويلا حادا يثقب أذنيه :

« أين فارس ؟ »

أين فارس ؟ ظن أن زوجته اكتشفت السر ، وأنها لا تبكى رنده بل تبكى ابنها ، فأشفق عليها من كل قلبه ، وقد يكون اشفق على نفسه ، واذ ضاق ذرعا بالنواح والعويل ، وبالأغانى الحزينة التى تستدر الدموع ، خرج من البيت ومضى ، وفى أعقابه سمع عازار الاسكافى يطلق هذه الجملة :

ــ مسكين أبو فارس !

تمنى أن يعود متحديا عازار ذا الرجل المقطوعة ، لكنه كان فى قرارة نفسه يصارع تيارا من انفجار عاطفة الأبوة فى صدره ،

فسار لا يلوى على شيء ، واستقبل هواء الليل المنعش ثانية واشعل سيكارة ثم اخرى ، ثم اخرى ..

***

في صبيحة اليوم التالى مس أول شعاع من شمس أيلول الفاترة الوجه الأصفر المحاط بالورود ، وانحدر على الجسم الطويل النحيل الذى حملت نساء الحى وعاملات التبغ اليه الزهور فغمرنه بها .

كانت الأم الثكلى تجلس فوق رأس ابنتها ، وتجلس غير بعيد منها مريم السودا وام فارس ، والشمعتان عند الراس والقدمين تشتعلان بعد ، وزجاجة من عطر قد أسندت الى الجسم المسجى وغنت امرأة ذات صوت حنون غناء حزينا فأبكت النساء ، وأقام الرجال عند الباب الخارجي ينتظرون ساعة الدفن . فلما أذن العصر حملوا الجثمان وساروا ، الوالد وراء النعش مباشرة ، ومن بعده المشيعون . وسار أبو فارس منتصب القامة ، سادر النظرات هادئا وقورا ، يدخن ، ويدخن ، ويدخن غير فزع ولا مبال ، لكنه ما أن اقبل الليل وعاد الى البيت حتى أدنى صورة ابنه من فمه وقبلها سرا ، ثم نام دون أن يأكل أو يتحدث فى شيء تلك الليلة ..

***

ولما أصبحت أم فارس تسوى فراش زوجها ، نظرت فى الوسادة وهمست :

ــ عرق ؟! أبو فارس مريض ؟!

واذ قالت لها مريم السودا :

ـ هذا دمع !

نفت بشدة :

ـ أبو فارس لا يبكى ، أكثر من خمسين سنة وأنا معه وما رأيت له دمعة !

وارادت مريم أن ترد عليها ، لكن جلبة علت من الشارع ، وهدر عجيج من كل صوب ، وانفجرت هتافات جذبت الناس الى الأبواب ، فركضت مريم تنظر ما حدث وارتدت مسرعة تصيح :

ـ مظاهرة !

وعادت الى الباب تتبعها أم فارس والجارات الأخريات ، وظل المتظاهرون يتقدمون نحوهن بجموع سدت الشارع الكبير على رحبه . كان محمد الحلبى فى المقدمة يحمل البيرق مركزا عقب ساريته فى خصره ، ومصطفى الصيداوى وأبو فارس وصقر والجبلاوى وعلى مكسور يسيرون مع السائرين ، وعبد القادر يهتف محمولا على الأكتاف ، وهتافات الجموع ما تفتأ تعنف وتعنف فى كل خطوة ، والناس يتسارعون فينضمون الى المظاهرة ويهزون قبضاتهم فى الفضاء ، مرسلين انذارا بالموت أو الجلاء .

« انتهت »

فهرس

صفحة

صدر من هذه السلسلة

من أعدادنا القادمة

* السفينة................................ لجبرا إبراهيم جبرا
* أغانى الحياة............................... لأبى القاسم الشابى
* مختارات من القصة السعودية.... اختيار وتقديم: د. طه وادى
* فدوى طوقان....... قصائد

رقم الإيداع : ٣٩٣٦ / ٢٠٠٢

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلي سابقاً)

المصابيح الزرق

رواية تصوّر حياة جماعة من الناس البسطاء أيام الحرب العالمية الأخيرة، ومن ورائها حياة اللاذقية، سوريا. أو بكلمة واحدة تصوّر الجو المحموم الذى كانت تعيشه بلادنا أيام الحرب. فإذا صح أن تكون لكل قصة عقدة، فعقدة (المصابيح الزرق) هى أزمة الحرب.

هذه هى الفكرة، أما القصة فشىء آخر. أن الروائى قد تجاوز هذه الفكرة (أثر الحرب فى الناس) إلى تصوير حياة كاملة، تلعب فيها أزمة الحرب دورا كبيرا، ولكن الدور الأكبر هو لمجموعة هؤلاء الناس الذين يضطربون فى ثنيات هذه الرواية المتميزة.

شوقى بغدادى

من رابطة الكُتّاب العرب

الأهل للطباعة والنشر

الثمن: جنيهان